سورة الدخان

(خمسون وتسع آيات مكية إلا قوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ﴾ [الدخان: ١٥])

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا
يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُ هُوَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٦ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَا
إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۝٨ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ
يَلْعَبُونَ ۝٩﴾

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: في قوله: ﴿حمٓ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ وجوه من الاحتمالات: أولها: أن يكون التقدير: هذه حم والكتاب المبين. كقولك: هذا زيد والله. وثانيها: أن يكون الكلام قد تمّ عند قوله: ﴿حمٓ﴾ ثم يقال ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾. وثالثها: أن يكون التقدير: وحم، والكتاب المبين، إنا أنزلناه، فيكون ذلك في التقدير قَسَمين على شيء واحد.

المسألة الثانية: قالوا: هذا يدل على حدوث القرآن لوجوه: الأول: أن قوله: ﴿حمٓ﴾ تقديره: هذه حم، يعني هذا شيء مؤلف من هذه الحروف، والمؤلف من الحروف المتعاقبة محدث. الثاني: أنه ثبت أن الحلف لا يصح بهذه الأشياء بل بإله هذه الأشياء فيكون التقدير: ورب حم ورب الكتاب المبين، وكل من كان مربوبًا فهو محدث. الثالث: أنه وصفه بكونه كتابًا والكتاب مشتق من الجمع، فمعناه أنه مجموع والمجموع محل تصرف الغير، وما كان كذلك فهو محدث الرابع: قوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾ والمنزل محل تصرف الغير، وما كان كذلك فهو محدث. وقد ذكرنا مرارًا أن جميع هذه الدلائل تدل على أن الشيء المركب من الحروف المتعاقبة والأصوات المتوالية محدث، والعلم بذلك ضروري بديهي، لا ينازع فيه إلا من كان عديم العقل وكان غير عارف بمعنى القديم والمحدث، وإذا كان كذلك فكيف ينازع في صحة هذه الدلائل، إنما الذي ثبت قدمه شيء آخر سوى ما تركب من هذه الحروف والأصوات.

المسألة الثالثة: يجوز أن يكون المراد بالكتاب ههنا الكتب المتقدمة التي أنزلها الله على أنبيائه، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥]

ويجوز أن يكون المراد اللوح المحفوظ، كما قال: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩] وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا﴾ [الزخرف: ٤] ويجوز أن يكون المراد به القرآن، وبهذا التقدير فقد أقسم بالقرآن على أنه أنزل القرآن في ليلة مباركة، وهذا النوع من الكلام يدل على غاية تعظيم القرآن، فقد يقول الرجل إذا أراد تعظيم رجل له حاجة إليه: أستشفع بك إليك، وأقسم بحقك عليك.

المسألة الرابعة: ﴿ ٱلْمُبِينِ﴾ هو المشتمل على بيان ما بالناس حاجة إليه في دينهم ودنياهم، فوصفه بكونه مبينًا وإن كانت حقيقة الإبانة لله تعالى؛ لأجل أن الإبانة حصلت به، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [النمل: ٧٦] وقال في آية أخرى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣] وقال: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٥] فوصفه بالتكلم إذ كان غاية في الإبانة، فكأنه ذو لسان ينطق، والمعنى فيه المبالغة في وصفه بهذا المعنى.

المسألة الخامسة: اختلفوا في هذه الليلة المباركة: فقال الأكثرون: إنها ليلة القدر. وقال عكرمة وطائفة آخرون: إنها ليلة البراءة، وهي ليلة النصف من شعبان. أما الأولون فقد احتجوا على صحة قولهم بوجوه: أولها: أنه تعالى قال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] وهاهنا قال: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ فوجب أن تكون هذه الليلة المباركة هي تلك المسماة بليلة القدر؛ لئلا يلزم التناقض. وثانيها: أنه تعالى قال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥] فبيّن أن إنزال القرآن إنما وقع في شهر رمضان، وقال هاهنا: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ فوجب بأن تكون هذه الليلة واقعة في شهر رمضان، وكل من قال إن هذه الليلة المباركة واقعة في شهر رمضان، قال إنها ليلة القدر، فثبت أنها ليلة القدر. وثالثها: أنه تعالى قال في صفة ليلة القدر: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝ سَلَٰمٌ هِىَ﴾ [القدر: ٤، ٥] وقال أيضًا هاهنا: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ وهذا مناسب لقوله: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ وهاهنا قال: ﴿ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾ وقال في تلك الآية ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ وقال هاهنا: ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ وقال في تلك الآية ﴿سَلَٰمٌ هِىَ﴾ وإذا تقاربت الأوصاف وجب القول بأن إحدى الليلتين هي الأخرى. ورابعها: نقل محمد بن جرير الطبري في (تفسيره): عن قتادة أنه قال: نزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان، والتوراة لستٍّ ليالٍ منه، والزبور لاثنتي عشرة ليلة مضت منه، والإنجيل لثمان عشرة ليلة مضت منه، والقرآن لأربع وعشرين ليلة مضت من رمضان، والليلة المباركة هي ليلة القدر. وخامسها: أن ليلة القدر إنما سميت بهذا الاسم لأن قدرها وشرفها عند الله عظيم، ومعلوم أنه ليس قدرها وشرفها لسبب ذلك الزمان؛ لأن الزمان شيء واحد في الذات والصفات، فيمتنع كون بعضه أشرف من بعض لذاته، فثبت أن شرفه وقدره بسبب أنه حصل فيه أمور شريفة عالية لها قدر عظيم ومرتبة رفيعة، ومعلوم أن منصب الدين أعلى وأعظم من منصب الدنيا،

وأعلى الأشياء وأشرفها منصبًا في الدين هو القرآن؛ لأجل أن به ثبتت نبوّة محمدﷺ، وبه ظهر الفرق بين الحق والباطل في سائر كتب الله المنزلة، كما قال في صفته: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[المائدة: ٤٨] وبه ظهرت درجات أرباب السعادات، ودركات أرباب الشقاوات، فعلى هذا لا شيء إلا والقرآن أعظم قدرًا وأعلى ذكرًا وأعظم منصبًا منه، فلو كان نزوله إنما وقع في ليلة أخرى سوى ليلة القدر، لكانت ليلة القدر هي هذه الثانية لا الأولى، وحيث أطبقوا على أن ليلة القدر التي وقعت في رمضان، علمنا أن القرآن إنما أُنزل في تلك الليلة. وأما القائلون بأن المراد من الليلة المباركة المذكورة في هذه الآية – هي ليلة النصف من شعبان، فما رأيت لهم فيه دليلًا يعول عليه، وإنما قنعوا فيه بأن نقلوه عن بعض الناس، فإن صح عن رسول اللهﷺ فيه كلام فلا مزيد عليه، وإلا فالحق هو الأول، ثم إن هؤلاء القائلين بهذا القول زعموا أن ليلة النصف من شعبان لها أربعة أسماء: الليلة المباركة، وليلة البراءة، وليلة الصك، وليلة الرحمة، وقيل: إنما سميت بليلة البراءة، وليلة الصك، لأن البندار إذا استوفى الخراج من أهله كتب لهم البراءة، كذلك الله عزّ وجلّ يكتب لعباده المؤمنين البراءة في هذه الليلة، وقيل: هذه الليلة مختصة بخمس خصال: الأول: تفريق كل أمر حكيم فيها، قال تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ والثانية: فضيلة العبادة فيها، قال رسول اللهﷺ: «مَنْ صَلَّى فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ مِائَةَ رَكْعَةٍ أَرْسَلَ اللَّهُ إِلَيْهِ مِائَةَ مَلَكٍ: ثَلَاثُونَ يُبَشِّرُونَهُ بِالْجَنَّةِ، وَثَلَاثُونَ يُؤَمِّنُونَهُ مِنْ عَذَابِ النَّارِ، وَثَلَاثُونَ يَدْفَعُونَ عَنْهُ آفَاتِ الدُّنْيَا، وَعَشَرَةٌ يَدْفَعُونَ عَنْهُ مَكَايِدَ الشَّيْطَانِ»(١) الخصلة الثالثة: نزول الرحمة، قال عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ يَرْحَمُ أُمَّتِي فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ بِعَدَدِ شَعْرِ أَغْنَامِ بَنِي كَلْبٍ»(٢) والخصلة الرابعة: حصول المغفرة، قالﷺ: «إِنَّ اللَّهَ

---

(١) موضوع: رواه الخلال في (فضائل سورة الأحد) (١/ ٥٢)، حديث رقم (١٥) من طريق صبيح بن دينار، حدثنا المعافى بن عمران، عن عمرو بن أبي المقدام العجلي وقال أعطاء مروان بن محمد كتابًا فيه عن أبي يحيى أنه حدثه بضعة وثلاثون ممن يوثقون بهم... فذكره. وفيه المعافى بن عمران وهو ضعيف.

ورواه ابن الجوزي في (الموضوعات) (٢/ ١٢٩) من طريق أبي علي بن البنا، أنبأنا أبو عبد الله الحسين بن عمر العلاف حدثنا أبو القاسم الفامي، حدثنا علي بن بندار البردعي، حدثنا أبو يوسف يعقوب بن عبد الرحمن، حدثنا محمد بن عبيد الله قال: سمعت أبي يقول: حدثنا علي بن عاصم، عن عمرو بن مقدام، عن جعفر بن محمد عن أبيه قال: قال رسول اللهﷺ: «من قرأ ليلة النصف من شعبان...» فذكره. وقال: هذا حديث لا نشك أنه موضوع، وجمهور رواته في الطرق الثلاثة مجاهيل، وفيهم ضعفاء بمرة، والحديث محال قطعًا. والفاكهي في (أخبار مكة) (٣/ ٨٦)، حديث رقم (١٨٤١) من طريق عمرو بن ثابت عن محمد بن مروان عن أبي يحيى عن أبيه قال: حدثني بضعة وثلاثون رجلاً من أصحاب النبيﷺ... فذكره.

(٢) إسناده ضعيف: أخرجه الترمذي في كتاب (الصوم)، باب: (ما جاء في ليلة النصف من شعبان) (٣/ ١٠٧)، حديث رقم (٧٣٩) من طريق يزيد بن هارون... به. وقال: حديث عائشة لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث الحجاج، وسمعت محمدًا يضعف هذا الحديث، وقال: يحيى بن أبي كثير لم يسمع من عروة، والحجاج بن أرطأة لم يسمع من يحيى بن أبي كثير. وابن ماجه في (١/ ٤٤٤)، حديث رقم (١٣٨٩) من طريق يزيد... به، وأحمد في (مسنده) (٦/ ٢٣٨)، حديث رقم (٢٦٠٦٠) من طريق يزيد بن هارون... به، والبيهقي في (شعب الإيمان) (٣/ ٣٧٩/ ٣٨٠)، حديث رقم (٣٨٢٥)، واللالكائي في (اعتقاد أهل السنة والجماعة) (١/ ٢٨٢)، حديث رقم

تَعَالَى يَغْفِرُ لِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، إِلاَّ لِكَاهِنٍ، أَوْ مُشَاحِنٍ، أَوْ مُدْمِنِ خَمْرٍ، أَوْ عَاقٍّ لِلْوَالِدَيْنِ، أَوْ مُصِرٍّ عَلَى الزِّنَا»[1] والخصلة الخامسة: أنه تعالى أعطى رسوله في هذه الليلة تمام الشفاعة، وذلك أنه سأل ليلة الثالث عشر من شعبان في أمته فأعطي الثلث منها، ثم سأل ليلة الرابع عشر، فأعطي الثلثين، ثم سأل ليلة الخامس عشر، فأعطي الجميع، إلا من شرد على الله شراد البعير، هذا الفصل نقلته من (الكشاف)، فإن قيل: لا شك أن الزمان عبارة عن المدة الممتدة التي تقديرها حركات الأفلاك والكواكب، وأنه في ذاته أمر متشابه الأجزاء فيمتنع كون بعضها أفضل من بعض، والمكان عبارة عن الفضاء الممتد والخلاء الخالي، فيمتنع كون بعض أجزائه أشرف من البعض، وإذا كان كذلك كان تخصيص بعض أجزائه بمزيد الشرف دون الباقي ترجيحًا لأحد طرفي الممكن على الآخر لا لمرجح وإنه محال، قلنا: القول بإثبات حدوث العالم وإثبات أن فاعله فاعل مختار بناء على هذا الحرف وهو أنه لا يبعد من الفاعل المختار تخصيص وقت معين بإحداث العالم فيه دون ما قبله وما بعده، فإن بطل هذا الأصل فقد بطل حدوث العالم وبطل الفاعل المختار، وحينئذٍ لا يكون الخوض في تفسير القرآن فائدة، وإن

---

(٧٦٤)، والحسيني في (البيان والتعريف) (١/ ١٩٣). وقال: أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها، ولفظ (أن يحيف الله عليك ورسوله) من طريق ابن جريج عن عبد الله بن كثير بن المطلب عن محمد بن قيس عن عائشة. . . به. وابن الجوزي في (العلل المتناهية) (٢/ ٥٥٦)، حديث رقم (٩١٥)، جميعًا من طريق عروة عن عائشة. . . به، وابن الجوزي أيضًا في (العلل المتناهية) (٢/ ٥٥٨)، حديث رقم (٩١٨) من طريق عبد الله بن الجراح قال: حدثنا سعيد بن عبد الكريم الواسطي عن أبي نعمان السعدي عن أبي رجاء العطاردي عن أنس بن مالك. . . به. وقال المؤلف: وهذا الطريق لا يصح، قال أبو الفتح الأزدي الحافظ: سعيد بن عبد الكريم متروك.

(١) حسن: رواه البزار في مسنده (٧/ ١٨٦)، حديث رقم (٢٧٥٤)، عبد الله بن لهيعة عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم عن عبادة بن نسي عن كثير بن مرة عن عوف رضي الله عنه قال: قال رسول الله: يطّلع الله تبارك وتعالى على خلقه ليلة النصف من شعبان، فيغفر لهم كلهم إلا لمشرك أو مشاحن. أورده الهيثمي في (المجمع) (٨/ ٦٥)، وقال: رواه البزار. وفيه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم، وثقه بن صالح وضَعَّفه جمهور الأئمة، وابن لهيعة لين، وبقية رجاله ثقات.

(قلت): أما الحديث فهو صحيح، فقد جاء عن عدة من أصحاب النبي ﷺ فهو صحيح بمجموع طرقه، وأورده الألباني في (السلسلة الصحيحة) (٣/ ٢١٨)، حديث رقم (١١٤٤)، وذكر حديث عوف بن مالك وقال: وأما حديث عوف بن مالك فيرويه ابن لهيعة عن عبد الرحمن بن أنعم عن عبادة بن نسي عن كثير بن مرة عنه. أخرجه أبو محمد الجوهري في (المجلس السابع) والبزار في (مسنده) (ص ٢٤٥) وقال: (إسناده ضعيف).

قلت: وعلته عبد الرحمن هذا، وبه أعله الهيثمي فقال: (وثقه أحمد بن صالح وضَعَّفه جمهور الأئمة، وابن لهيعة لين، وبقية رجاله ثقات).

قلت: وخالفه مكحول فرواه عن كثير بن مرة عن النبي ﷺ مرسلاً. رواه البيهقي وقال: (هذا مرسل جيد). كما قال المنذري. أخرجه اللالكائي (١/ ١٠٢/ ١) عن عطاء بن يسار ومكحول والفضل بن فضالة بأسانيد مختلفة عنهم موقوفًا عليهم، ومثل ذلك في حكم المرفوع لأنه لا يقال بمجرد الرأي. وقد قال الحافظ ابن رجب في (لطائف المعارف) (ص ١٤٣): وفي فضل ليلة نصف شعبان أحاديث متعددة، وقد اختلف فيها، فضعفها الأكثرون، وصحح ابن حبان بعضها وخرجه في (صحيحه).

صح هذا الأصل فقد زال ما ذكرتم من السؤال، فهذا هو الجواب المعتمد، والناس قالوا: لا يبعد أن يخص الله تعالى بعض الأوقات بمزيد تشريف حتى يصير ذلك داعيًا للمكلف إلى الإقدام على الطاعات في ذلك الوقت؛ ولهذا السبب بيّن أنه تعالى أخفاه في الأوقات وما عيّنه لأنه لم يكن معينًا جوز المكلف في كل وقت معين أن يكون هو ذلك الوقت الشريف، فيصير ذلك حاملاً له على المواظبة على الطاعات في كل الأوقات، وإذا وقعت على هذا الحرف ظهر عندك أن الزمان والمكان إنما فازا بالتشريفات الزائدة تبعًا لشرف الإنسان، فهو الأصل وكل ما سواه فهو تبع له، والله أعلم.

المسألة السادسة: روي أن عطية الحروري سأل ابن عباس رضي الله عنهما عن قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾[القدر: ١] وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾ كيف يصح ذلك مع أن الله تعالى أنزل القرآن في جميع الشهور؟ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: يا بن الأسود لو هلكت أنا ووقع هذا في نفسك ولم تجد جوابه هلكت، نزل القرآن جملة من اللوح المحفوظ إلى البيت المعمور، وهو في السماء الدنيا، ثم نزل بعد ذلك في أنواع الوقائع حالاً فحالا. والله أعلم.

المسألة السابعة: في بيان نظم هذه الآيات، اعلم أن المقصود منها تعظيم القرآن من ثلاثة أوجه: أحدها: بيان تعظيم القرآن بحسب ذاته. الثاني: بيان تعظيمه بسبب شرف الوقت الذي نزل فيه. الثالث: بيان تعظيمه بحسب شرف منزلته. أما بيان تعظيمه بحسب ذاته فمن ثلاثة أوجه: أحدها: أنه تعالى أقسم به، وذلك يدل على شرفه. وثانيها: أنه تعالى أقسم به على كونه نازلاً في ليلة مباركة، وقد ذكرنا أن القَسَم بالشيء على حالة من أحوال نفسه يدل على كونه في غاية الشرف. وثالثها: أنه تعالى وصفه بكونه مُبِينًا وذلك يدل أيضًا على شرفه في ذاته.

وأما النوع الثاني: - وهو بيان شرفه لأجل شرف الوقت الذي أنزل فيه - فهو قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾ وهذا تنبيه على أن نزوله في ليلة مباركة يقتضي شرفه وجلالته، ثم نقول: إن قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾ يقتضي أمرين: أحدهما: أنه تعالى أنزله. والثاني: كون تلك الليلة مباركة، فذكر تعالى عقيب هذه الكلمة ما يجرى مجرى البيان لكل واحد منهما، أما بيان أنه تعالى لمَ أنزله؟ فهو قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ يعني الحكمة في إنزال هذه السورة أن إنذار الخلق لا يتم إلا به، وأما بيان أن هذه الليلة ليلة مباركة فهو أمران: أحدهما: أنه تعالى يفرق فيها كل أمر حكيم، والثاني: أن ذلك الأمر الحكيم مخصوص بشرف أنه إنما يظهر من عنده، وإليه الإشارة بقوله: ﴿أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ﴾.

وأما النوع الثالث: فهو بيان شرف القرآن لشرف منزله، وذلك هو قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾ فبيّن أن ذلك الإنذار والإرسال إنما حصل من الله تعالى، ثم بيّن أن ذلك الإرسال إنما كان لأجل تكميل الرحمة وهو قوله: ﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾ وكان الواجب أن يقال: (رحمة منا) إلا أنه وضع الظاهر موضع المضمر إيذانًا بأن الربوبية تقتضي الرحمة على المربوبين، ثم بيّن أن تلك الرحمة

وقعت على وفق حاجات المحتاجين؛ لأنه تعالى يسمع تضرعاتهم، ويعلم أنواع حاجاتهم؛ فلهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فهذا ما خطر بالبال في كيفية تعلق بعض هذه الآيات ببعض.

المسألة الثامنة: في تفسير مفردات هذه الألفاظ: أما قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ فقد قيل فيه: إنه تعالى أنزل كلية القرآن من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا في هذه الليلة، ثم أنزل في كل وقت ما يحتاج إليه المكلف، وقيل: يبدأ في استنساخ ذلك من اللوح المحفوظ في ليلة البراءة، ويقع الفراغ في ليلة القدر، فتدفع نسخة الأرزاق إلى ميكائيل، ونسخة الحروب إلى جبرائيل، وكذلك الزلازل والصواعق والخسف، ونسخة الأعمال إلى إسماعيل[١] صاحب سماء الدنيا وهو ملك عظيم، ونسخة المصائب إلى ملك الموت.

أما قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ﴾ أي في تلك الليلة المباركة يُفرق، أي يُفصل ويبين، من قوله: فرقت الشيء أفرقه فرقًا وفرقانًا، قال صاحب (الكشاف): وقرئ (يفرق) بالتشديد و(يفرق) على إسناد الفعل إلى الفاعل ونصب كل والفارق هو الله عز وجل، وقرأ زيد ابن علي (نفرق) بالنون.

أما قوله: ﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ فالحكيم معناه ذو الحكمة، وذلك لأن تخصيص الله تعالى كل أحد بحالة معينة من العمر والرزق والأجل والسعادة والشقاوة - يدل على حكمة بالغة لله تعالى، فلما كانت تلك الأفعال والأقضية دالة على حكمة فاعلها وُصفت بكونها حكيمة، وهذا من الإسناد المجازي؛ لأن الحكيم صفة صاحب الأمر على الحقيقة ووصف الأمر به مجاز، ثم قال: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾ وفي انتصاب قوله ﴿أَمْرًا﴾ وجهان: الأول: أنه نصب على الاختصاص، وذلك لأنه تعالى بيّن شرف تلك الأقضية والأحكام بسبب أن وصفها بكونها حكيمة، ثم زاد في بيان شرفها بأن قال: أعني بهذا الأمر أمرًا حاصلاً من عندنا كائنًا من لدنا، وكما اقتضاه علمنا وتدبيرنا. والثاني: أنه نصب على الحال، وفيه ثلاثة أوجه: الأول: أن يكون حال من أحد الضميرين في ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾، إما من ضمير الفاعل، أي: إنا أنزلناه آمرين أمرًا، أو من ضمير المفعول، أي: إنا أنزلناه في حال كونه أمرًا من عندنا بما يجب أن يفعل. والثالث: ما حكاه أبو علي الفارسي عن أبي الحسن رحمهما الله أنه حمل قوله: ﴿أَمْرًا﴾ على الحال، وذو الحال قوله: ﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ وهو نكرا.

ثم قال: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ يعني أنا إنما فعلنا ذلك الإنذار لأجل ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ يعني الأنبياء.

ثم قال: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي للرحمة، فهي نصب على أن يكون مفعولاً له.

ثم قال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ يعني أن تلك الرحمة كانت رحمة في الحقيقة لأن المحتاجين إما أن يذكروا بألسنتهم حاجاتهم، وإما أن لا يذكروها: فإن ذكروها فهو تعالى يسمع كلامهم فيعرف حاجاتهم، وإن لم يذكروها فهو تعالى عالم بها، فثبت أن كونه سميعًا عليمًا يقتضي أن ينزل رحمته عليهم.

---

(١) هكذا في الأصل، والمعروف المشهور المتواتر أن اسمه (إسرافيل). (هامش).

ثم قال: ﴿ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ ﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: قرأ عاصم وحمزة والكسائي بكسر الباء من (رب) عطفًا على قوله: (رحمة من ربك) والباقون بالرفع عطفًا على قوله: (هو السميع العليم).

المسألة الثانية: المقصود من هذه الآية أن المُنزِّل إذا كان موصوفًا بهذه الجلالة والكبرياء، كان المُنزَّل الذي هو القرآن في غاية الشرف والرفعة.

المسألة الثالثة: الفائدة في قوله: ﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ من وجوه: الأول: قال أبو مسلم: معناه إن كنتم تطلبون اليقين وتريدونه، فاعرفوا أن الأمر كما قلنا، كقولهم: (فلان مُنْجِد مُتْهِم) أي يريد نجدًا وتهامة. والثاني: قال صاحب (الكشاف): كانوا يقرون بأن للسموات والأرض ربًّا وخالقًا فقيل لهم: إن إرسال الرسل وإنزال الكتب رحمة من الرب سبحانه وتعالى، ثم قيل: إن هذا هو السميع العليم الذي أنتم مقرون به ومعترفون بأنه رب السموات والأرض وما بينهما، إن كان إقراركم عن علم ويقين، كما تقول: هذا إنعام زيد الذي تسامع الناس بكرمه إن بلغك حديثه وسمعت قصته. ثم إنه تعالى رد أن يكونوا موقنين بقوله: ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾ وأن إقرارهم غير صادر عن علم ويقين ولا عن جد وحقيقة، بل قول مخلوط بهزء ولعب، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝١٢ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝١٣ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ۝١٤ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ۝١٥ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ۝١٦ ﴾

اعلم أن المراد بقوله: ﴿ فَٱرْتَقِبْ ﴾ انتظِر، ويقال ذلك في المكروه، والمعنى: انتظِر يا محمد عذابهم. فحذف مفعول الارتقاب لدلالة ما ذكر بعده عليه وهو قوله: ﴿ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ويجوز أيضًا أن يكون ﴿ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ ﴾ مفعول الارتقاب.

وقوله: ﴿ بِدُخَانٍ ﴾ **فيه قولان:**

القول الأول: أن النبي ﷺ دعا على قومه بمكة لما كذبوه فقال: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْ سِنِيَّهِمْ كَسِنِيِّ يُوسُفَ**»(1) فارتفع المطر وأجدبت الأرض وأصابت قريشًا شدة المجاعة، حتى أكلوا العظام والكلاب والجيف، فكان الرجل لِما به من الجوع يرى بينه وبين السماء كالدخان. وهذا قول

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (التفسير)، باب: (سورة آل عمران)، باب: (ليس لك من الأمر شيء) (٨/ ٧٤)، حديث رقم (٤٥٦٠) من طريق إبراهيم بن سعد... به، ومسلم في كتاب (المساجد)، باب: (استحباب القنوت في جميع الصلاة) (١/ ٢٩٤/ ٤٦٦/ ٤٦٧) من طريق يونس... به، كلاهما (إبراهيم بن سعد، يونس) عن الزهري... به.

ابن عباس رضي الله عنهما في بعض الروايات ومقاتل ومجاهد، واختيار الفراء والزجاج، وهو قول ابن مسعود رضي الله عنه، وكان ينكر أن يكون الدخان إلا هذا الذي أصابهم من شدة الجوع كالظلمة في أبصارهم حتى كانوا كأنهم يرون دخانًا، فالحاصل أن هذا الدخان هو الظلمة التي في أبصارهم من شدة الجوع. وذكر ابن قتيبة في تفسير الدخان بهذه الحالة وجهين: الأول: أن في سنة القحط يعظم يبس الأرض بسبب انقطاع المطر ويرتفع المطر ويرتفع الغبار الكثير، ويظلم الهواء، وذلك يشبه الدخان ولهذا يقال لسنة المجاعة: الغبراء. الثاني: أن العرب يسمون الشر الغالب بالدخان فيقول: كان بيننا أمر ارتفع له دخان، والسبب فيه أن الإنسان إذا اشتد خوفه أو ضعفه أظلمت عيناه، فيرى الدنيا كالمملوءة من الدخان.

والقول الثاني في الدخان: أنه دخان يظهر في العالم، وهو إحدى علامات القيامة، قالوا: فإذا حصلت هذه الحالة حصل لأهل الإيمان منه حالة تشبه الزكام، وحصل لأهل الكفر حالة يصير لأجلها رأسه كرأس الحنيذ، وهذا القول هو المنقول عن علي بن أبي طالب عليه السلام، وهو قول مشهور لابن عباس، واحتج القائلون بهذا القول بوجوه: الأول: أن قوله: ﴿يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ﴾ يقتضي وجود دخان تأتي به السماء، وما ذكرتموه من الظلمة الحاصلة في العين بسبب شدة الجوع - فذاك ليس بدخان أتت به السماء، فكان حمل لفظ الآية على هذا الوجه عدولاً عن الظاهر لا لدليل منفصل، وإنه لا يجوز. الثاني: أنه وصف ذلك الدخان بكونه مبينًا، والحالة التي ذكرتموها ليست كذلك لأنها عارضة تعرض لبعض الناس في أدمغتهم، ومثل هذا لا يوصف بكونه دخانًا مبينًا. والثالث: أنه وصف ذلك الدخان بأنه يغشي الناس، وهذا إنما يصدق إذا وصل ذلك الدخان إليهم واتصل بهم، والحال التي ذكرتموها لا توصف بأنها تغشى الناس إلا على سبيل المجاز، وقد ذكرنا أن العدول من الحقيقة إلى المجاز لا يجوز إلا لدليل منفصل. الرابع: روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**أَوَّلُ الْآيَاتِ الدُّخَانُ، وَنُزُولُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وَنَارٌ تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدَنَ تَسُوقُ النَّاسَ إِلَى الْمَحْشَرِ**» قال حذيفة: يا رسول الله وما الدخان؟ فتلا رسول الله ﷺ الآية وقال: «**دُخَانٌ يَمْلَأُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ يَمْكُثُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا وَلَيْلَةً، أَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيُصِيبُهُ كَهَيْئَةِ الزُّكْمَةِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَهُوَ كَالسَّكْرَانِ يَخْرُجُ مِنْ مَنْخِرَيْهِ وَأُذُنَيْهِ وَدُبُرِهِ**»[1] رواه

---

(١) ضعيف: أورده الزمخشري في (الكشاف) (٦/ ٢٥٩)، قال: وعن رسول الله ﷺ . . . فذكره بدون إسناد، ورواه الثعلبي في (الكشف والبيان) (١٢/ ١١٨) من طريق المعافى بن زكريا قال: أخبرنا محمد بن جرير، حدثنا عصام بن داود الجراح، حدثنا أبي، حدثنا سفيان بن سعيد، حدثنا منصور بن المعتمر عن ربعي بن حراش قال: سمعت حذيفة بن اليمان . . . فذكره، وأورده الزيلعي في (تخريج الكشاف) (٣/ ٢٦٧). وقال: وضَعَّفه الطبري فقال: وحدثني محمد بن خلف العسقلاني أنه سأل روادًا عن هذا الحديث هل سمعه من سفيان؟ فقال: لا. قال: فقلت أقرأته عليه؟ قال: لا. قال: فقلت له أقرئ عليه وأنت حاضر؟ فقال: لا. قلت: فمن أين جئت به؟ قال: جاءني به قوم فعرضوه عليَّ وقالوا لي: اسمعه منا. فقرءوه ثم ذهبوا فحدثوا به عني. قال ابن كثير: وقد أجاد الطبري فإنه موضوع بهذا السند. انتهى.

صاحب (الكشاف) وروى القاضي عن الحسن عن النبي ﷺ أنه قال: «بَاكِرُوا بِالأَعْمَالِ سِتًّا... وَذَكَرَ مِنْهَا طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَالدَّجَّالَ وَالدُّخَانَ وَالدَّابَّةَ» (١). أما القائلون بالقول الأول، فلا شك أن ذلك يقتضي صرف اللفظ عن حقيقته إلى المجاز، وذلك لا يجوز إلا عند قيام دليل يدل على أن حمله على حقيقته ممتنع، والقوم لم يذكروا ذلك الدليل، فكان المصير إلى ما ذكروه مشكلاً جدًّا، فإن قالوا: الدليل على أن المراد ما ذكرناه، أنه تعالى حكى عنهم أنهم يقولون: ﴿رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ وهذا إذا حملناه على القحط الذي وقع بمكة استقام، فإنه نُقل أن القحط لما اشتد بمكة مشى إليه أبو سفيان وناشده بالله والرحم، وأوعده أنه إن دعا لهم وأزال الله عنهم تلك البلية، أن يؤمنوا به، فلما أزال الله تعالى عنهم ذلك رجعوا إلى شركهم، أما إذا حملناه على أن المراد منه ظهور علامة من علامات القيامة لم يصح ذلك؛ لأن عند ظهور علامات القيامة لا يمكنهم أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ ولم يصح أيضًا أن يقال لهم: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ والجواب: لمَ لا يجوز أن يكون ظهور هذه العلامة جاريًا مجرى ظهور سائر علامات القيامة في أنه لا يوجب انقطاع التكليف فتحدث هذه الحالة، ثم إن الناس يخافون جدًّا فيتضرعون، فإذا زالت تلك الواقعة عادوا إلى الكفر والفسق، وإذ كان هذا محتملاً فقد سقط ما قالوه، والله اعلم.

ولنرجع إلى التفسير فنقول: قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي ظاهر الحال لا يشك أحد في أنه دخان ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ﴾ أي يشملهم، وهو في محل الجر صفة لقوله: ﴿بِدُخَانٍ﴾ وفي قوله: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قولان: الأول: أنه منصوب المحل بفعل مضمر وهو (يقولون) و(يقولون) منصوب على الحال أي قائلين ذلك. الثاني: قال الجرجاني صاحب (النظم): هذا إشارة إليه وإخبار عن دنوه واقترابه، كما يقال: (هذا العدو فاستقبله) والغرض منه التنبيه على القرب.

ثم قال: ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ﴾ فإن قلنا: التقدير: يقولون: هذا عذاب أليم ربنا اكشف عنا العذاب. فالمعنى ظاهر، وإن لم يضمر القول هناك أضمرناه هاهنا، والعذاب على القول الأول هو القحط الشديد، وعلى القول الثاني الدخان المهلك ﴿إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ أي بمحمد وبالقرآن، والمراد منه الوعد بالإيمان إن كشف عنهم العذاب.

ثم قال تعالى: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ يعني كيف يتذكرون وكيف يتعظون بهذه الحالة وقد جاءهم ما هو أعظم وأدخل في وجوب الطاعة، وهو ما ظهر على رسول الله من المعجزات القاهرة والبينات الباهرة ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ﴾ ولم يلتفتوا إليه ﴿وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ وذلك لأن كفار مكة كان لهم في ظهور القرآن على محمد عليه الصلاة والسلام قولان: منهم من كان يقول: إن محمدًا يتعلم هذه الكلمات من بعض الناس لقوله: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ﴾

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في (صحيحه) (٤/ ٢٢٦٧/ ٢٩٤٧)، وأحمد في (مسنده) (٢/ ٣٣٧)، حديث رقم (٨٤٢٧)، كلاهما من طريق العلاء عن أبيه عن أبي هريرة... به.

[النحل: ١٠٣] وكقوله تعالى: ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَ﴾ [الفرقان: ٤] ومنهم من كان يقول: إنه مجنون، والجن يلقون عليه هذه الكلمات حال ما يعرض له الغشي.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ﴾ أي كما يكشف العذاب عنكم تعودون في الحال إلى ما كنتم عليه من الشرك، والمقصود التنبيه على أنهم لا يوفون بعهدهم، وأنهم في حال العجز يتضرعون إلى الله تعالى، فإذا زال الخوف عادوا إلى الكفر والتقليد لمذاهب الأسلاف.

ثم قال تعالى: ﴿يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ قال صاحب (الكشاف): وقرئ (نبطُش) بضم الطاء، وقرأ الحسن (نُبطش) بضم النون، كأنه تعالى يأمر الملائكة بأن يبطشوا بهم، والبطش: الأخذ بشدة، وأكثر ما يكون بوقع الضرب المتتابع، ثم صار بحيث يستعمل في إيصال الآلام المتتابعة، وفي المراد بهذا اليوم قولان:

القول الأول: أنه يوم بدر، وهو قول ابن مسعود وابن عباس ومجاهد ومقاتل وأبي العالية رضي الله تعالى عنهم، قالوا: إن كفار مكة لما أزال الله تعالى عنهم القحط والجوع عادوا إلى التكذيب، فانتقم الله منهم يوم بدر.

والقول الثاني: أنه يوم القيامة، روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال: قال ابن مسعود: البطشة الكبرى يوم بدر، وأنا أقول: هي يوم القيامة، وهذا القول أصح لأن يوم بدر لا يبلغ هذا المبلغ الذي يوصف بهذا الوصف العظيم، ولأن الانتقام التام إنما يحصل يوم القيامة لقوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ﴾ [غافر: ١٧] ولأن هذه البطشة لما وُصفت بكونها كبرى على الإطلاق وجب أن تكون أعظم أنواع البطش، وذلك ليس إلا في القيامة. ولفظ الانتقام في حق الله تعالى من المتشابهات كالغضب والحياء والتعجب، والمعنى معلوم، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا قَبۡلَهُمۡ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ وَجَآءَهُمۡ رَسُولٞ كَرِيمٌ ١٧ أَنۡ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٨ وَأَن لَّا تَعۡلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ١٩ وَإِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمۡ أَن تَرۡجُمُونِ ٢٠ وَإِن لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ لِي فَٱعۡتَزِلُونِ ٢١ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ ٢٢ فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ٢٣ وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ ٢٤ كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ٢٥ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ٢٦ وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ٢٧ كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ٢٨ فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ٢٩﴾

اعلم أنه تعالى لما بيّن أن كفار مكة مصرون على كفرهم، بيّن أن كثيرًا من المتقدمين أيضًا كانوا كذلك، فبيّن حصول هذه الصفة في أكثر قوم فرعون. قال صاحب (الكشاف): قرئ، (ولقد فتّنا) بالتشديد للتأكيد قال ابن عباس: ابتلينا. وقال الزجاج: بلونا، والمعنى عاملناهم

معاملة المختبر ببعث الرسول إليهم ﴿وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ وهو موسى، واختلفوا في معنى الكريم هاهنا: فقال الكلبي: كريم على ربه، يعني أنه استحق على ربه أنواعًا كثيرة من الإكرام. وقال مقاتل: حسن الخلق. وقال الفراء: يقال فلان كريم قومه لأنه قل ما بُعث رسول إلا من أشراف قومه وكرامهم.

ثم قال: ﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ وفي (أنْ) قولان: الأول: أنها (أن) المفسرة، وذلك لأن مجيء الرسول إلى من بُعث إليهم متضمن لمعنى القول لأنه لا يجيئهم إلا مبشرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله. الثاني: أنها المخففة من الثقيلة، ومعناه وجاءهم بأن الشأن والحديث أدوا، وعباد الله مفعول به وهم بنو إسرائيل، يقول: أدوهم إلي وأرسِلوهم معي. وهو كقوله: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾[طه: ٤٧] ويجوز أيضًا أن يكون نداء لهم والتقدير: أدوا إليَّ عباد الله ما هو واجب عليكم من الإيمان، وقبول دعوتي، واتباع سبيلي، وعلل ذلك بأنه ﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ قد ائتمنه الله على وحيه ورسالته ﴿وَأَن لَّا تَعْلُواْ﴾ (أنْ) هذه مثل الأول في وجهيها، أي لا تتكبروا على الله بإهانة وحيه ورسوله ﴿إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ بحجة بينة يعترف بصحتها كل عاقل ﴿وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ قيل: المراد أن تقتلون وقيل ﴿أَن تَرْجُمُونِ﴾ بالقول فتقولوا: ساحر كذاب ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِى﴾ أي إن لم تصدقوني ولم تؤمنوا بالله لأجل ما أتيتكم به من الحجة. فاللام في (لي) لام الأجل ﴿فَٱعْتَزِلُونِ﴾ أي اخلوا سبيلي لا لي ولا عليَّ.

قال مصنف الكتاب رحمه الله تعالى: إن المعتزلة يتصلفون ويقولون: إن لفظ الاعتزال أينما جاء في القرآن كان المراد منه الاعتزال عن الباطل لا عن الحق. فاتفق حضوري في بعض المحافل، وذكر بعضهم هذا الكلام فأوردت عليه هذه الآية، وقلت: المراد الاعتزال في هذه الآية الاعتزال عن دين موسى عليه السلام وطريقته، وذلك لا شك أنه اعتزال عن الحق، فانقطع الرجل.

ثم قال تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ﴾ الفاء في (فدعا) تدل على أنه متصل بمحذوف قبله، التأويل أنهم كفروا ولم يؤمنوا فدعا موسى ربه بأن هؤلاء قوم مجرمون، فإن قالوا: الكفر أعظم حالاً من الجرم، فما السبب في أن جعل صفة الكفار كونهم مجرمين حال ما أراد المبالغة في ذمهم؟ قلت: لأن الكافر قد يكون عدلاً في دينه، وقد يكون مجرمًا في دينه، وقد يكون فاسقًا في دينه فيكون أخس الناس، قال صاحب (الكشاف): قرئ (إن هؤلاء) بالكسر على إضمار القول، أي فدعا ربه فقال: (إن هؤلاء مجرمون).

ثم قال: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا﴾ قرأ ابن كثير ونافع (فاسر) موصولة بالألف، والباقون مقطوعة الألف. سرى وأسرى لغتان، أي أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي ليلاً إنكم متبعون، أي يتبعكم فرعون وقومه فيكون ذلك سببًا لهلاكهم ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾ وفي الرهو قولان: أحدهما: أنه الساكن، يقال: عيش راهٍ، إذا كان خافضًا وادعًا، وافعل ذلك سهوًا رهوًا، أي ساكنًا بغير تشدد، أراد موسى عليه السلام لما جاوز البحر أن يضربه بعصاه فينطبق كما كان، فأمره الله تعالى بأن

يتركه ساكنًا على هيئته قارًا على حاله في انفلاق الماء وبقاء الطريق يبسًا حتى تدخله القبط، فإذا حصلوا فيه أطبقه الله عليهم. والثاني: أن الرهو هو الفرجة الواسعة، والمعنى ذا رهو، أي ذا فرجة، يعني الطريق الذي أظهره الله فيما بين البحر أنهم جند مغرقون، يعني اترك الطريق كما كان يدخلوا فيغرقوا، وإنما أخبره الله تعالى بذلك حتى يبقى فارغ القلب عن شرهم وإيذائهم.

ثم قال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ دلت هذه الآية على أنه تعالى أغرقهم، ثم قال بعد غرقهم هذا الكلام، وبيّن تعالى أنهم تركوا هذه الأشياء الخمسة، وهي الجنات والعيون والزروع والمقام الكريم، والمراد بالمقام الكريم ما كان لهم من المجالس والمنازل الحسنة، وقيل: المنابر التي كانوا يمدحون فرعون عليها ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾ قال علماء اللغة: (نَعمة العيش)، بفتح النون: حُسنه ونضارته، ونعمة الله إحسانه وعطاؤه، قال صاحب (الكشاف): النعمة بالفتح من التنعم، وبالكسر من الإنعام. وقرئ فاكهين وفكهين (كذلك) الكاف منصوبة على معنى: مثل ذلك الإخراج أخرجناهم منها، وأورثناها أو في موضع الرفع على تقدير أن الأمر ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ ليسوا منهم في شيء من قرابة ولا دين ولا ولاء، وهم بنو إسرائيل كانوا مستعبدين في أيديهم، فأهلكهم الله على أيديهم وأورثهم ملكهم وديارهم.

ثم قال تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ وفيه وجوه:

الأول: قال الواحدي في (البسيط): روى أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «**مَا مِنْ عَبْدٍ إِلاَّ وَلَهُ فِي السَّمَاءِ بَابَانِ: بَابٌ يَخْرُجُ مِنْهُ رِزْقُهُ، وَبَابٌ يَدْخُلُ فِيهِ عَمَلُهُ، فَإِذَا مَاتَ فَقَدَاهُ وَبَكَيَا عَلَيْهِ**»[(١)] وتلا هذه الآية، قال: وذلك لأنهم لم يكونوا يعملون على الأرض عملاً صالحًا فتبكي عليهم، ولم يصعد لهم إلى السماء كلام طيب ولا عمل صالح فتبكي عليهم، وهذا قول أكثر المفسرين.

القول الثاني: التقدير: فما بكت عليهم أهل السماء وأهل الأرض، فحذف المضاف، والمعنى: ما بكت عليهم الملائكة ولا المؤمنون، بل كانوا بهلاكهم مسرورين.

والقول الثالث: أن عادة الناس جرت بأن يقولوا في هلاك الرجل العظيم الشأن: إنه أظلمت له الدنيا، وكسفت الشمس والقمر لأجله، وبكت الريح والسماء والأرض. ويريدون المبالغة في تعظيم تلك المصيبة لا نفس هذا الكذب. ونقل صاحب (الكشاف): عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَا مِنْ مُؤْمِنٍ مَاتَ فِي غُرْبَةٍ غَابَتْ فِيهَا بَوَاكِيهِ، إِلاَّ بَكَتْ عَلَيْهِ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ**»[(٢)]. وقال جرير:

---

(١) **إسناده ضعيف**: رواه الخطيب في (تاريخ بغداد) (١١/ ٢١١)، والثعلبي في (الكشف والبيان) (١٢/ ١٢١)، كلاهما من طريق مكي بن إبراهيم، عن موسى بن عبيدة، عن يزيد الرقاشي، عن أنس بن مالك.. به، وفي إسناده موسى بن عبيدة الربذي وهو ضعيف.

(٢) **مرسل**: رواه الطبري في (تفسيره) (٢٢/ ٣٥)، والثعلبي في (الكشف والبيان) (١٢/ ١٢٢)، كلاهما من طريق عيسى بن يونس، عن صفوان بن عمرو، عن شريح بن عبيد الحضرمي قال: قال رسول الله ﷺ.. فذكره. وهذا حديث إسناده مرسل.

الشَّمْسُ طَالِعَةٌ لَيْسَتْ بِكَاسِفَةٍ ... تُبْكِي عَلَيْكَ نُجُومَ اللَّيْلِ وَالْقَمَرَا[١]

وفيه ما يشبه السخرية بهم، يعني أنهم كانوا يستعظمون أنفسهم، وكانوا يعتقدون في أنفسهم أنهم لو ماتوا لبكت عليهم السماء والأرض، فما كانوا في هذا الحد، بل كانوا دون ذلك، وهذا إنما يذكر على سبيل التهكم.

ثم قال: ﴿وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾ أي لما جاء وقت هلاكهم لم يُنظَروا إلى وقت آخر لتوبة وتدارُك وتقصير.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بيّن كيفية إهلاك فرعون وقومه، بيّن كيفية إحسانه إلى موسى وقومه. واعلم أن دفع الضرر مقدم على إيصال النفع، فبدأ تعالى ببيان دفع الضرر عنهم فقال: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ يعني قتل الأبناء، واستخدام النساء، والإتعاب في الأعمال الشاقة.

ثم قال: ﴿مِن فِرْعَوْنَ﴾ وفيه وجهان: الأول: أن يكون التقدير: من العذاب المهين الصادر من فرعون. الثاني: أن يكون فرعون بدلاً من العذاب المهين؛ كأنه في نفسه كان عذابًا مهينًا لإفراطه في تعذيبهم وإهانتهم. قال صاحب (الكشاف) وقرئ: (من عذاب المهين) وعلى هذه القراءة (فالمهين) هو فرعون؛ لأنه كان عظيم السعي في إهانة المحقين. وفي قراءة ابن عباس (مَن فرعون) وهو بمعنى الاستفهام، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ جوابه، كأن التقدير أن يقال: هل تعرفونه من هو في عتوه وشيطنته؟ ثم عرَّف حاله بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أي كان عالي الدرجة في طبقة المسرفين، ويجوز أن يكون المراد ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا﴾ لقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤] وكان أيضًا مسرفًا، ومن إسرافه أنه على حقارته وخسته ادعى الإلهية. ولما بيّن الله تعالى أنه كيف دفع الضرر عن بني إسرائيل، وبيّن أنه كيف أوصل إليهم الخيرات فقال: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

---

(١) الشاعر جرير تقدمت ترجمته.

وفيه بحثان:

البحث الأول: أن قوله: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ في موضع الحال ثم فيه وجهان: أحدهما: أي عالمين بكونهم مستحقين لأن يُختاروا ويرجحوا على غيرهم. والثاني: أن يكون المعنى: مع علمنا بأنهم قد يزيغون ويصدر عنهم الفرطات في بعض الأحوال.

البحث الثاني: ظاهر قوله: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يقتضي كونهم أفضل من كل العالمين، فقيل: المراد على عالمي زمانهم، وقيل: هذا عام دخله التخصيص كقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[آل عمران: ١١٠].

ثم قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ﴾ مثل فلق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المن والسلوى، وغيرها من الآيات القاهرة التي ما أظهر الله مثلها على أحد سواهم ﴿بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾ أي نعمة ظاهرة؛ لأنه تعالى لما كان يبلو بالمحنة فقد يبلو أيضًا بالنعمة اختبارًا ظاهرًا ليتميز الصِّديق عن الزنديق.

وهاهنا آخر الكلام في قصة موسى عليه السلام ثم رجع إلى ذكر كفار مكة، وذلك لأن الكلام فيهم حيث قال: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾[الدخان: ٩] أي بل هم في شك من البعث والقيامة، ثم بيّن كيفية إصرارهم على كفرهم، ثم بيّن أن قوم فرعون كانوا في الإصرار على الكفر على هذه القصة، ثم بيّن كيف أهلكهم وكيف أنعم على بني إسرائيل، ثم رجع إلى الحديث الأول، وهو كون كفار مكة منكرين للبعث، فقال: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ فإن قيل: القوم كانوا ينكرون الحياة الثانية فكان من حقهم أن يقولوا: إن هي إلا حياتنا الأولى وما نحن بمنشرين؟ قلنا: إنه قيل لهم: إنكم تموتون موتة تعقبها حياة، كما أنكم حال كونكم نطفًا كنتم أمواتًا وقد تعقبها حياة، وذلك قوله: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾[البقرة: ٢٨] فقالوا: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ يريدون ما الموتة التي من شأنها أن تعقبها حياة إلا الموتة الأولى دون الموتة الثانية، وما هذه الصفة التي تصفون بها الموتة من تعقيب الحياة لها إلا الموتة الأولى خاصة، فلا فرق إذًا بين هذا الكلام وبين قوله: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾[الأنعام: ٢٩] هذا ما ذكره صاحب (الكشاف).

ويمكن أن يذكر فيه وجه آخر، فيقال: قوله: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ يعني أنه لا يأتينا شيء من الأحوال إلا الموتة الأولى، وهذا الكلام يدل على أنهم لا تأتيهم الحياة الثانية ألبتة، ثم صرحوا بهذا المرموز فقالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ فلا حاجة إلى التكلف الذي ذكره صاحب (الكشاف).

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ يقال: نشر الله الموتى وأنشرهم، إذا بعثهم، ثم إن الكفار احتجوا على نفي الحشر والنشر بأن قالوا: إن كان البعث والنشور ممكنًا معقولاً فاجعلوا لنا إحياء من مات من آبائنا بأن تسألوا ربكم ذلك، حتى يصير ذلك دليلاً عندنا على صدق دعواكم في النبوة والبعث في القيامة. قيل: طلبوا من الرسول ﷺ أن يدعو الله حتى ينشر قُصي بن كلاب

ليشاوروه في صحة نبوة محمد ﷺ وفي صحة البعث، ولما حكى الله عنهم ذلك قال: ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ والمعنى أن كفار مكة لم يذكروا في نفي الحشر والنشر شبهة حتى يُحتاج إلى الجواب عنها، ولكنهم أصروا على الجهل والتقليد في ذلك الإنكار؛ فلهذا السبب اقتصر الله تعالى على الوعيد، فقال: إن سائر الكفار كانوا أقوى من هؤلاء، ثم إن الله تعالى أهلكهم، فكذلك يهلك هؤلاء، فقوله تعالى: ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ استفهام على سبيل الإنكار، قال أبو عبيدة: ملوك اليمن كان كل واحد منهم يسمى تبعًا لأن أهل الدنيا كانوا يتبعونه، وموضع تبع في الجاهلية موضع الخليفة في الإسلام، وهم الأعاظم من ملوك العرب، قالت عائشة، كان تبع رجلاً صالحًا. وقال كعب: ذم الله قومه ولم يذمه. قال الكلبي: هو أبو كرب أسعد. وعن النبي ﷺ: «لاَ تَسُبُّوا تُبَّعًا فَإِنَّهُ كَانَ قَدْ أَسْلَمَ، مَا أَدْرِي أَكَانَ تُبَّعٌ نَبِيًّا أَوْ غَيْرَ نَبِيٍّ». فإن قيل: ما معنى قوله: ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ مع أنه لا خير في الفريقين؟ قلنا: معناه أهم خير في القوة والشوكة، كقوله: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ﴾ [القمر: ٤٣]بعد ذكر آل فرعون.

ثم إنه تعالى ذكر الدليل القاطع على القول بالبعث والقيامة، فقال: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ ولو لم يحصل البعث لكان هذا الخلق لعبًا وعبثًا. وقد مرّ تقرير هذه الطريقة بالاستقصاء في أول سورة يونس، وفي آخر سورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ حيث قال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥]وفي سورة (ص) حيث قال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾ [ص: ٢٧].

ثم قال: ﴿ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ والمراد أهل مكة، وأما استدلال المعتزلة بهذه الآية على أنه تعالى لا يخلق الكفر والفسق ولا يريدهما، فهو مع جوابه معلوم، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

اعلم أن المقصود من قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ [الدخان: ٣٨]إثبات القول بالبعث والقيامة، فلا جرم ذكر عقيبه قوله: ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وفي تسمية يوم القيامة بيوم الفصل وجوه: الأول: قال الحسن: يفصل الله فيه بين أهل الجنة وأهل النار. الثاني: يفصل في الحكم والقضاء بين عباده. الثالث: أنه في حق المؤمنين يوم الفصل، بمعنى

أنه يفصل بينه وبين كل ما يكرهه، وفي حق الكفار بمعنى أنه يفصل بينه وبين كل ما يريده.
الرابع: أنه يظهر حال كل أحد كما هو، فلا يبقى في حاله ريبة ولا شبهة، فتنفصل الخيالات والشبهات، وتبقى الحقائق والبينات، قال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى أن يوم يفصل الرحمن بين عباده ميقاتهم أجمعين البر والفاجر. ثم وصف ذلك اليوم فقال: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا﴾ يريد قريب عن قريب ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي ليس لهم ناصر، والمعنى أن الذي يُتوقع منه النصرة إما القريب في الدين أو في النسب أو المعتق، وكل هؤلاء يسمون بالمولى، فلما لم تحصل النصرة منهم فبأن لا تحصل ممن سواهم أَوْلى، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾[البقرة: ١٢٣] قال الواحدي: والمراد بقوله: ﴿مَوْلًى عَن مَّوْلًى﴾ الكفار ألا ترى أنه ذكر المؤمن فقال: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد المؤمن، فإنه تشفع له الأنبياء والملائكة.

اعلم أنه تعالى لما أقام الدلالة على أن القول بالقيامة حق، ثم أردفه بوصف ذلك اليوم، ذكر عقيبه وعيد الكفار، ثم بعده وعد الأبرار:

أما وعيد الكفار فهو قوله: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ۝ طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال صاحب (الكشاف): قرئ (إن شِجرة الزقوم) بكسر الشين، ثم قال: وفيها ثلاث لغات: شجرة بفتح الشين وكسرها، وشيرة بالياء، وشبرة بالباء.

المسألة الثانية: البحث عن اشتقاق لفظ الزقوم قد تقدم في سورة (والصافات)، فلا فائدة في الإعادة.

المسألة الثالثة: قالت المعتزلة: الآية تدل على حصول هذا الوعيد الشديد للأثيم، والأثيم هو الذي صدر عنه الإثم، فيكون هذا الوعيد حاصلاً للفساق. والجواب: أنا بينا في أصول الفقه أن اللفظ المفرد الذي دخل عليه حرف التعريف - الأصل فيه أن ينصرف إلى المذكور السابق، ولا يفيد العموم، وههنا المذكور السابق هو الكافر، فينصرف إليه.

المسألة الرابعة: مذهب أبي حنيفة أن قراءة القرآن بالمعنى جائز، واحتج عليه بأنه نُقل أن ابن مسعود كان يقرئ رجلاً هذه الآية فكان يقول: طعام اللئيم، فقال: قل طعام الفاجر. وهذا الدليل في غاية الضعف على ما بيناه في أصول الفقه.

ثم قال: (كالمهل) قرىء بضم الميم وفتحها، وسبق تفسيره في سورة الكهف، وقد شبَّه الله تعالى هذا الطعام بالمهل، وهو دردي الزيت وعكر القطران ومذاب النحاس وسائر الفلزات، وتمّ الكلام هاهنا، ثم أخبر عن غليانه في بطون الكفار فقال: ﴿يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾ وقرئ بالتاء، فمن قرأ بالتاء فلتأنيث الشجرة، ومن قرأ بالياء حمله على الطعام في قوله: ﴿طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ لأن الطعام هو (ثمر) الشجرة في المعنى، واختار أبو عبيد الياء لأن الاسم المذكور - يعني المهل -

هو الذي يلي الفعل فصار التذكير به أولى، واعلم أنه لا يجوز أن يحمل الغلي على المهل لأن المهل مشبه به، وإنما يغلي ما يشبه بالمهل كغلي الحميم، والماء إذا اشتد غليانه فهو حميم.

ثم قال: ﴿خُذُوهُ﴾ أي خذوا الأثيم ﴿فَٱعۡتِلُوهُ﴾ قرئ بكسر التاء، قال الليث: العتل أن تأخذ بمنكب الرجل فتعتله، أي تجره إليك وتذهب به إلى حبس أو محنة، وأخذ فلان بزمام الناقة يعتلها، وذلك إذا قبض على أصل الزمام عند الرأس وقادها قودًا عنيفًا، وقال ابن السكيت: عتلته إلى السجن وأعتلته، إذا دفعته دفعًا عنيفًا. هذا قول جميع أهل اللغة في العتل، وذكروا في اللغتين ضم التاء وكسرها وهما صحيحان، مثل يعكُفون ويعكِفون، ويعرُشون ويعرِشون.

قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أي إلى وسط الجحيم ﴿ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ﴾ وكان الأصل أن يقال: ثم صبوا من فوق رأسه الحميم أو يصب من فوق رؤوسهم الحميم، إلا أن هذه الاستعارة أكمل في المبالغة، كأنه يقول: صبوا عليه عذاب ذلك الحميم، ونظيره قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾ [البقرة: ٢٥٠] و﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩] وذكروا فيه وجوهًا: الأول: أنه يخاطب بذلك على سبيل الاستهزاء، والمراد إنك أنت بالضد منه. والثاني: أن أبا جهل قال لرسول الله ﷺ: ما بين جبليها أعز ولا أكرم مني، فوالله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بي شيئًا!! [1] والثالث: أنك كنت تعتز لا بالله، فانظر ما وقعت فيه، وقرئ (أنك) بمعنى لأنك.

ثم قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ﴾ أي أن هذا العذاب ما كنتم به تمترون، أي تشكُّون، والمراد منه ما ذكره في أول السورة حيث قال: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ﴾ [الدخان: ٩].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٥٢﴾ يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ﴿٥٤﴾ يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰۖ وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرۡتَقِبۡ إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر الوعيد في الآيات المتقدمة، ذكر الوعد في هذه الآيات فقال: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ قال أصحابنا: كل من اتقى الشرك فقد صدق عليه اسم المتقي، فوجب أن يدخل الفاسق في هذا الوعد.

واعلم أنه تعالى ذكر من أسباب تنعمهم خمسة أشياء: أولها: مساكنهم فقال: ﴿فِي مَقَامٍ أَمِينٖ﴾. واعلم أن المسكن إنما يطيب بشرطين: أحدهما: أن يكون آمنًا عن جميع ما يُخاف ويُحذر،

(١) مرسل: الطبري في (تفسيره) (٢٢/ ٤٩) من طريق ابن ثور عن معمر عن قتادة. . . به.

وهو المراد من قوله: ﴿فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ قرأ الجمهور في (مَقام) بفتح الميم، وقرأ نافع وابن عامر بضم الميم، قال صاحب (الكشاف): المقام بفتح الميم هو موضع القيام، والمراد المكان، وهو من الخاص الذي جُعل مستعملاً في المعنى العام، وبالضم هو موضع الإقامة، والأمين من قولك: أمِن الرجل أمانة فهو أمين وهو ضد الخائن، فوصف به المكان استعارة لأن المكان المخيف كأنه يخون صاحبه. والشرط الثاني لطيب المكان: أن يكون قد حصل فيه أسباب النزهة وهي الجنات والعيون، فلما ذكر تعالى هذين الشرطين في مساكن أهل الجنة، فقد وصفها بما لا يقبل الزيادة.

والقسم الثاني من تنعماتهم: الملبوسات فقال: ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ قيل: السندس ما رقّ من الديباج، والإستبرق ما غلظ منه، وهو تعريب إستبرك، فإن قالوا: كيف جاز ورود الأعجمي في القرآن؟ قلنا: لما عُرب فقد صار عربيًا.

وأما القسم الثالث: فهو جلوسهم على صفة التقابل، والغرض منه استئناس البعض بالبعض، فإن قالوا: الجلوس على هذا الوجه موحش لأنه يكون كل واحد منهم مطلعًا على ما يفعله الآخر، وأيضًا فالذي يقل ثوابه إذا اطلع على حال من يكثر ثوابه، يتنغص عيشه. قلنا: أحوال الآخرة بخلاف أحوال الدنيا.

والقسم الرابع: أزواجهم فقال: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ الكاف فيه وجهان: أن تكون مرفوعة والتقدير: الأمر كذلك. أو منصوبة والتقدير: آتيناهم مثل ذلك. قال أبو عبيدة: جعلناهم أزواجًا كما يزوج البعل بالبعل، أي جعلناهم اثنين اثنين، واختلفوا في أن هذا اللفظ هل يدل على حصول عقد التزويج أم لا؟ قال يونس: قوله: ﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي قرناهم بهن، فليس من عقد التزويج، والعرب لا تقول (تزوجت بها) وإنما تقول (تزوجتها)، قال الواحدي رحمه الله: والتنزيل يدل على ما قال يونس وذلك قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧] ولو كان المراد تزوجت بها (زوجناك بها) وأيضًا فقول القائل (زوَّجته به) معناه أنه كان فردًا فزوجته بآخر، كما يقال: شفَّعته بآخر. وأما الحور فقال الواحدي: أصل الحور: البياض والتحوير: التبييض، وقد ذكرنا ذلك في تفسير الحواريين، وعين حوراء، إذا اشتد بياض بياضها واشتد سواد سوادها، ولا تسمى المرأة حوراء حتى يكون حور عينيها بياضًا في لون الجسد، والدليل على أن المراد بالحور في هذه الآية البيض - قراءة ابن مسعود (بعِيس عِين) والعِيس: البيض، وأما العِين فجمع عيناء وهي التي تكون عظيمة العينين من النساء، فقال الجبائي: رجل أعين، إذا كان ضخم العين واسعها والأنثى عيناء، والجمع عِين. ثم اختلفوا في هؤلاء الحور العين: فقال الحسن: هن عجائزكم الدرد ينشئهن الله خلقًا آخر. وقال أبو هريرة: إنهن ليسوا من نساء الدنيا.

والنوع الخامس من تنعمات أهل الجنة: المأكول فقال: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾

قالوا: إنهم يأكلون جميع أنواع الفاكهة لأجل أنهم آمنون من التخم والأمراض.

ولما وصف الله تعالى أنواع ما هم فيه من الخيرات والراحات، بَيَّن أن حياتهم دائمة فقال: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ **وفيه سؤالان:**

السؤال الأول: أنهم ما ذاقوا الموتة الأولى في الجنة، فكيف حسن هذا الاستثناء؟ وأجيب عنه من وجوه: الأول: قال صاحب (الكشاف): أريدَ أن يقال: لا يذوقون فيها الموت ألبتة، فوضع قوله: ﴿ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ موضع ذلك لأن الموتة الماضية محال في المستقبل، فهو من باب التعليق بالمحال، كأنه قيل: إن كانت الموتة الأولى يمكن ذوقها في المستقبل فإنهم يذوقونها. الثاني: أن (إلا) بمعنى (لكن) والتقدير: لا يذوقون فيها الموت لكن الموتة الأولى قد ذاقوها. والثالث: أن الجنة حقيقتها ابتهاج النفس وفرحها بمعرفة الله تعالى وبطاعته ومحبته، وإذا كان الأمر كذلك فإن الإنسان الذي فاز بهذه السعادة فهو في الدنيا في الجنة وفي الآخرة أيضًا في الجنة، وإذا كان الأمر كذلك فقد وقعت الموتة الأولى حين كان الإنسان في الجنة الحقيقية التي هي جنة المعرفة بالله والمحبة، فذكر هذا الاستثناء كالتنبيه على قولنا: إن الجنة الحقيقية هي حصول هذه الحالة لا الدار التي هي دار الأكل والشرب؛ ولهذا السبب قال عليه السلام: «أَنْبِيَاءُ اللَّهِ لاَ يَمُوتُونَ وَلَكِنْ يُنْقَلُونَ مِنْ دَارٍ إِلَى دَارٍ» والرابع: أن من جرب شيئًا ووقف عليه صح أن يقال: إنه ذاقه، وإذا صح أن يسمى العلم بالذوق صح أن يسمى تذكُّره أيضًا بالذوق، فقوله: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ يعني إلا الذوق الحاصل بسبب تذكُّر الموتة الأولى.

السؤال الثاني: أليس أن أهل النار أيضًا لا يموتون؟ فلمَ بشر أهل الجنة بهذا مع أهل النار يشاركونهم فيه؟ والجواب: أن البشارة ما وقعت بدوام الحياة بل وقعت بدوام الحياة مع سابقة حصول تلك الخيرات والسعادات، فظهر الفرق.

ثم قال تعالى: ﴿ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ قرئ (ووقَّاهم) بالتشديد، فإن قالوا: مقتضى الدليل أن يكون ذكر الوقاية عن عذاب الجحيم متقدمًا على ذكر الفوز بالجنة؛ لأن الذي وُقي عن عذاب الجحيم قد يفوز وقد لا يفوز، فإذا ذكر بعده أنه فاز بالجنة حصلت الفائدة، أما الذي فاز بخيرات الجنة فقد تخلص عن عقاب الله لا محالة، فلم يكن ذكر الفوز عن عذاب جهنم بعد الفوز بثواب الجنة مفيدًا. قلنا: التقدير كأنه تعالى قال: ووقاهم في أول الأمر عن عذاب الجحيم.

ثم قال: ﴿ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ﴾ يعني كل ما وصل إليه المتقون من الخلاص عن النار والفوز بالجنة - فإنما يحصل بتفضل الله، واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن الثواب يحصل تفضلاً من الله تعالى لا بطريق الاستحقاق؛ لأنه تعالى لما عَدَّد أقسام ثواب المتقين بَيَّن أنها بأسرها إنما حصلت على سبيل الفضل والإحسان من الله تعالى، قال القاضي: أكثر هذه الأشياء وإن كانوا قد استحقوه بعملهم فهو بفضل الله لأنه تعالى تفضَّل بالتكليف، وغرضه منه أن يصيرهم إلى هذه المنزلة، فهو كمن أعطى غيره مالاً ليصل به إلى مِلك ضيعة، فإنه يقال في تلك الضيعة: إنها

من فضله. قلنا: مذهبك أن هذا الثواب حق لازم على الله، وإنه تعالى لو أخل به لصار سفيهًا ولخرج به عن الإلهية، فكيف يمكن وصف مثل هذا الشيء بأنه فضل من الله تعالى؟!

ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ واحتج أصحابنا بهذه الآية على أن التفضل أعلى درجة من الثواب المستحق، فإنه تعالى وصفه بكونه فضلاً من الله، ثم وصف الفضل من الله بكونه فوزًا عظيمًا، ويدل عليه أيضًا أن المَلِك العظيم إذا أعطى الأجير أجرته ثم خلع على إنسان آخر، فإن تلك الخلعة أعلى حالاً من إعطاء تلك الأجرة. ولما بَيّن الله تعالى الدلائل وشرح الوعد والوعيد قال: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ والمعنى أنه تعالى وصف القرآن في أول هذه السورة بكونه كتابًا مبينًا، أي كثير البيان والفائدة، وذكر في خاتمتها ما يؤكد ذلك فقال: إن ذلك الكتاب المبين، الكثير الفائدة - إنما يسرناه بلسانك، أي إنما أنزلنا عربيًّا بلغتك، لعلّهم يتذكرون، قال القاضي: وهذا يدل على أنه أراد من الكل الإيمان والمعرفة، وأنه ما أراد من أحد الكفر. وأجاب أصحابنا أن الضمير في قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ عائد إلى أقوام مخصوصين. فنحن نحمل ذلك على المؤمنين.

ثم قال: ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ أي فانتظِر ما يحل بهم ﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ ما يحل بك، متربصون بك الدوائر، والله أعلم.

قال المصنف رحمه الله تعالى: تم تفسير هذه السورة ليلة الثلاثاء، في نصف الليل الثاني عشر من ذي الحجة، سنة ثلاث وستمائة، يا دائم المعروف، يا قديم الإحسان، شهد لك إشراق العرش، وضوء الكرسي، ومعارج السموات، وأنوار الثوابت والسيارات، على منابرها، المتوغلة في العلو الأعلى، ومعارجها المقدسة عن غبار عالم الكون والفساد - بأن الأول الحق الأزلي لا يناسبه شيء من علائق العقول، وشوائب الخواطر، ومناسبات المحدثات، فالقمر بسبب محوه مقر النقصان، والشمس بشهادة المعارج بتغيراتها معترفة بالحاجة إلى تدبير الرحمن، والطبائع مقهورة تحت القدرة القاهرة، فالله في غيبيات المعارج العالية، والمتغيرات شاهدة بعدم تغيره، والمتعاقبات ناطقة بدوام سرمديته، وكل ما نوجه عليه أنه مضى وسيأتي فهو خالقه وأعلى منه، فبجوده الوجود وإيجاد، وبإعدامه الفناء والفساد، وكل ما سواه فهو تائه في جبروته، نائر عند طلوع نور ملكوته، وليس عند عقول الخلق إلا أنه بخلاف كل الخلق، له العز والجلال، والقدرة والكمال، والجود والإفضال، ربنا ورب مبادينا إياك نروم، ولك نصلي ونصوم، وعليك المعول، وأنت المبدأ الأول، سبحانك سبحانك.

سورة الدُّخَان

مكية باتفاق؛ إلا قولَه تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا﴾ [الآية: ١٥]. وهي سبعٌ وخمسون آية. وقيل: تسع[١]. وفي مسند الدَّارميِّ[٢] عن أبي رافع قال: «مَن قرأ الدخان في ليلة الجمعة، أصبح مغفوراً له، وزُوِّج من الحور العين». رفعه الثعلبيُّ من حديث أبي هريرةَ أن النبيَّ ﷺ قال: «مَن قرأ الدخان في ليلة الجمعة، أصبح مغفوراً له»[٣]. وفي لفظ آخر عن أبي هريرةَ أن النبيَّ ﷺ قال: «مَن قرأ الدخان في ليلة، أصبح يستغفر له سبعون ألفَ ملَك»[٤]. وعن أبي أمامةَ قال: سمعت النبيَّ ﷺ يقول: «مَن قرأ حم الدخان ليلةَ الجمعة أو يوم الجمعة، بَنى الله له بيتاً في الجنة»[٥].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿حمٓ ① وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ② إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ③﴾

إن جعلت «حم» جوابَ القسم، تمَّ الكلام عند قوله: «المُبِين»، ثم تبتدِئُ: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ». وإن جعلت «إِنَّا كُنَّا مُنْذِرين» جواب القسم الذي هو «الكتاب»، وقفت على:

---

(١) الكشاف ٣/٤٩٩ ، وذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/٦٨ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/٣٣٦ أن السورة مكية كلها.

(٢) برقم (٣٤٢١).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٨٨٩) وقال: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وهشام أبو المِقدام يضعف، ولم يسمع الحسنُ من أبي هريرة، هكذا قال أيوب ويونس بن عبيد وعلي بن زيد.

(٤) أخرجه الترمذي (٢٨٨٨) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وعُمر بن أبي خَثْعَم يضعف، قال محمد [يعني البخاري]: وهو منكر الحديث.

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير (٨٠٢٦)، قال الهيثمي في المجمع ٢/١٦٨ : فيه فضَّال بن جبير وهو ضعيف جدًّا.

«مُنْذِرِينَ»، وابتدأت: «فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ»(١). وقيل: الجواب: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ»(٢)، وأنكره بعض النحويين من حيث كان صفة للمُقْسَم به، ولا تكون صفة المقسَم به جواباً للقَسَم.

والهاء في «أَنْزَلْنَاهُ» للقرآن(٣). ومَن قال: أقسم بسائر الكتب فقوله: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ» كَنَى به عن غير القرآن، على ما تقدَّم بيانه في أوَّل «الزخرف»(٤).

والليلةُ المباركة ليلةُ القدر. ويقال: ليلةُ النصف من شعبان، ولها أربعةُ أسماء: الليلةُ المباركة، وليلةُ البراءة، وليلة الصَّكّ، وليلة القدر(٥). ووصفها بالبركة لِمَا يُنزِّل الله فيها على عباده من البركات والخيرات والثواب. وروى قتادة عن واثلةَ أن النبيَّ ﷺ قال: «أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لِستٍّ مَضَيْنَ من رمضان، وأُنزِلت الزَّبور لاثنتي عَشْرةَ من رمضان، وأُنزِل الإنجيل لثمان عَشْرة خلت من رمضان، وأُنزِل القرآن لأربع وعشرين مضت من رمضان»(٦).

ثم قيل: أُنزِل القرآن كلُّه إلى السماء الدنيا في هذه الليلة. ثم أُنزِل نَجْماً نَجْماً في سائر الأيام على حسب اتفاق الأسباب(٧). وقيل: كان ينزل في كلِّ ليلةِ القدر ما ينزل

---

(١) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٨٨ .

(٢) الكشاف ٣/ ٤٩٩ ، وزاد المسير ٧/ ٣٣٦ .

(٣) زاد المسير ٧/ ٣٣٦ .

(٤) ص٦ من هذا الجزء.

(٥) الكشاف ٣/ ٤٩٩ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٤٥ ، وأخرجه الطبراني في الأوسط (٣٧٥٢)، والبيهقي ٩/ ١٨٨ وفيه أن الإنجيل أنزل لثلاث عشرة خلت، وأن الزبور أنزل لثمان عشرة خلت. قال الطبراني: لم يرو هذا الحديث عن قتادة إلا عمران القطان، ولا يروى عن رسول الله ﷺ إلا بهذا الإسناد. قال الهيثمي في المجمع ١/ ١٩٧ : فيه عمران القطان، ضعفه يحيى، ووثقه ابن حبان، وبقية رجاله ثقات. وسلف ٣/ ١٦١ دون ذكر الزبور، وفيه أن الإنجيل أنزل لثلاث عشرة.

(٧) سلف هذا القول في سورة البقرة ٣/ ١٦٠ - ١٦١ .

في سائر السنة[١]. وقيل: كان ابتداء الإنزال في هذه الليلة[٢]. وقال عكرمة: الليلةُ المباركة ها هنا ليلةُ النصف من شعبان[٣]. والأوّل أصحُّ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]. قال قتادة وابن زيد: أنزل الله القرآن كلَّه في ليلة القدر من أمّ الكتاب إلى بيت العِزَّة في سماء الدنيا، ثم أنزله الله على نبيه ﷺ في الليالي والأيام في ثلاث وعشرين سنة[٤]. وهذا المعنى قد مضى في «البقرة»[٥] عند قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [الآية: ١٨٥]، ويأتي آنفاً إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾﴾

قال ابن عباس: يُحْكِم اللهُ أمرَ الدنيا إلى قابل في ليلة القدر ما كان من حياة أو موت أو رزق. وقاله قتادة ومجاهد والحسن وغيرُهم[٦]. وقيل: إلا الشقاءَ والسعادةَ فإنهما لا يتغيَّران. قاله ابن عمر[٧]. قال المهدوي: ومعنى هذا القول: أمرَ الله عزَّ وجلَّ الملائكةَ بما يكون في ذلك العام، ولم يَزَل ذلك في علمه عزَّ وجلَّ. وقال عكرمة: هي ليلة النصف من شعبان، يُبْرَم فيها أمر السَّنة، ويُنسَخ الأحياءُ من الأموات، ويُكتَب الحاجُّ، فلا يُزادُ فيهم أحد ولا يُنْقَص منهم أحد[٨].

وروى عثمان بن المغيرة قال: قال النبيُّ ﷺ: «تُقطَع الآجال من شعبانَ إلى

(١) ينظر تفسير أبي الليث ٣/ ٢١٥، والوسيط ٤/ ٨٥.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٦٨.

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٩.

(٤) أخرج قول ابن زيد الطبريُّ ٢١/ ٦، وأورد قول قتادة البغوي في تفسيره ٤/ ١٤٨.

(٥) ٣/ ١٦٠ - ١٦١.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٣٩٦ - ٣٩٧.

(٧) عزاه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٥ لابن أبي حاتم.

(٨) أخرجه الطبري ٢١/ ٩.

شعبانَ حتى إنَّ الرجل ليَنْكِح ويُولَد له وقد خرج اسمه في الموتى»[١]. وعن النبيِّ ﷺ قال: «إذا كانت ليلة النصف من شعبان، فقوموا ليلتها، وصوموا نهارها[٢]، فإن الله يَنزِل لغروب الشمس إلى سماء الدنيا يقول: ألا مستغفرٌ فأغفرَ له، ألا مبتلًى فأُعافيَه، ألا مسترزقٌ فأرزقه، ألا كذا ألا كذا، حتى يطلعَ الفجر»[٣] ذكره الثعلبي.

وخرج الترمذيُّ بمعناه عن عائشةَ عن النبيِّ ﷺ قال: «إن الله عز وجل ينزل ليلة النصف من شعبان إلى سماء الدنيا، فيغفرُ لأكثرَ من عدد شعر غَنَم كَلْب»[٤]. وفي الباب عن أبي بكرٍ الصديق قال أبو عيسى: حديثُ عائشةَ لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث الحجاجِ بن أرْطاة، عن يحيى بن أبي كثير، عن عروة، عن عائشة، وسمعت محمداً يُضعِّف هذا الحديث، وقال: يحيى بنُ أبي كثير لم يَسمع من عروة، والحجاجُ بن أرطاة لم يَسمع من يحيى بن أبي كثير.

قلت: وقد ذكر حديثَ عائشة مطوَّلاً صاحبُ كتاب «العروس»، واختار أنَّ الليلة التي يُفْرَق فيها كلُّ أمر حكيم ليلةُ النصف من شعبان، وأنها تُسمَّى ليلة البراءة. وقد ذكرنا قوله والردَّ عليه في غير هذا الموضع، وأنَّ الصحيح إنما هي ليلةُ القدر على ما بيَّنَّاه.

روى حمَّاد بن سَلَمةَ قال: أخبرنا ربيعة بنُ كُلْثوم قال: سأل رجل الحسن وأنا عنده فقال: يا أبا سعيد، أرأيت ليلة القدر، أفي كلِّ رمضان هي؟ قال: إي والله

---

(١) كذا أخرجه الطبري ٢١/ ١٠ مرسلاً، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣٨٣٩) من قول عثمان بن المغيرة. وعثمان هذا هو ابن محمد بن المغيرة الأخنس منسوب إلى جده، قال ابن حجر في التقريب: صدوق له أوهام.

(٢) في (ظ) و(ق): يومها.

(٣) أخرجه ابن ماجه (١٣٨٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٨٢٢) وفيه ابن أبي سَبْرَة، واسمه أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن أبي سبرة. قال في الزوائد: إسناده ضعيف؛ لضعف ابن أبي سبرة. . . قال فيه أحمد بن حنبل وابن مَعين: يضع الحديث.

(٤) سنن الترمذي (٧٣٩) والكلام بعده منه، وأخرجه أيضاً أحمد (٢٦٠١٨)، وابن ماجه (١٣٨٩).

الذي لا إله إلا هو، إنها لفي[١] كلِّ رمضان، إنها الليلةُ التي يُفرَق فيها كلُّ أمر حكيم، فيها يَقضي الله كلَّ خلق وأجلٍ ورزقٍ وعمل إلى مثلها[٢].

وقال ابن عباس: يُكتب من أمِّ الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من موت وحياة ورزق ومطر حتى الحجّ، يقال: يحجُّ فلان ويحجُّ فلان[٣]. وقال في هذه الآية: إنك لترى الرجل يمشي في الأسواق وقد وقع اسمه في الموتى[٤]. وهذه الإبانة لأحكام السَّنة إنما هي للملائكة الموكَّلين بأسباب الخلق. وقد ذكرنا هذا المعنى آنفاً.

وقال القاضي أبو بكر بنُ العربي[٥]: وجمهورُ العلماء على أنها ليلةُ القدر. ومنهم مَن قال: إنها ليلةُ النصف من شعبان، وهو باطلٌ؛ لأن الله تعالى قال في كتابه الصادق القاطع: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فنصَّ على أن ميقات نزوله رمضان، ثم عيَّن من زمانه الليلَ ها هنا بقوله: ﴿فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾، فمن زعم أنه في غيره فقد أعظم الفِرْية على الله، وليس في ليلة النصف من شعبان حديثٌ يُعوَّل عليه لا في فضلها ولا في نسخ الآجال فيها، فلا تلتفتوا إليها[٦].

الزمخشريُّ[٧]: وقيل: يُبدَأ في استنساخ ذلك من اللَّوح المحفوظ في ليلة البراءة، ويقع الفراغ في ليلة القدر، فتُدفَع نسخة الأرزاق إلى ميكائيل، ونسخةُ الحروب إلى جبريل، وكذلك الزلازل والصواعق والخسف، ونسخةُ الأعمال إلى

---

(١) في (د) و(م): في.

(٢) الاستذكار ١٠/ ٣٣٨، وأخرجه الطبري ٢١/ ٧ من طريق يزيد وابن عُليَّة عن ربيعة بن كلثوم.

(٣) أورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٥ وعزاه لمحمد بن نصر وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه الطبري ٢١/ ١٠، والحاكم ٢/ ٤٤٨ - ٤٤٩.

(٥) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٧٨.

(٦) غير أن فضلها ورد بمجموع أحاديث، وهي ـ وإن كان في إسناد كلٍّ منها مقال ـ تتقوى ببعضها. تنظر أحاديث الباب في حاشية المسند (٦٦٤٢).

(٧) في الكشاف ٣/ ٥٠٠، وإلى آخر تفسير الآية منه.

إسماعيلَ صاحبِ سماء الدنيا، وهو مَلَك عظيم، ونسخةُ المصائب إلى مَلَك الموت. وعن بعضهم: يُعطى كلُّ عامل بركاتِ أعماله، فيُلقى على ألسنة الخلق مدحُه، وعلى قلوبهم هيبتُه.

وقُرِئ: «يُفَرِّق»[1] بالتشديد، و«يَفْرُق»[2] كلٌّ على بنائه للفاعل ونصبِ «كلّ»، والفارقُ الله عزّ وجلّ. وقرأ زيد بن عليٍّ ﷺ: «نفرُق» بالنون.

﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾: كلُّ شأنٍ ذي حكمة، أي: مفعول على ما تقتضيه الحكمة.

قوله تعالى: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾ قال النقّاش: الأمرُ هو القرآنُ؛ أنزله الله من عنده. وقال ابن عيسى: هو ما قضاه الله في اللَّيلة المباركة من أحوال عباده[3].

وهو مصدرٌ في موضع الحال. وكذلك ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ وهما عند الأخفش[4] حالان، تقديرهما: أنزلناه آمرين به وراحمين. المبرِّد: «أمرًا» في موضع المصدر، والتقدير: أنزلناه إنزالاً[5]. الفرَّاء والزجَّاج: «أمرًا» نصب بـ«يُفْرَق»، مثلُ قولك: يُفْرَق فرقًا، فأمر بمعنى فَرْق فهو مصدر، مثلُ قولك: يضرب ضرباً[6]. وقيل: «يُفْرَق» يدلُّ على يؤمر، فهو مصدرٌ عمل فيه ما قبله[7].

﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ . رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ قال الفراء[8]: «رَحْمَةً» مفعول بـ«مرسِلين».

---

(١) في (م): نفرق. وقراءة: يُفَرِّق؛ بالتشديد، ذكرها الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٠٠ .

(٢) قرأ «يَفرُق» بفتح الياء وضم الراء الحسن والأعرج والأعمش، وقرأها بفتح الياء وكسر الراء أبو المتوكل وأبو نهيك ومعاذ القارئ. ينظر القراءات الشاذة ص١٣٧ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٦٩ ، وزاد المسير ٧/ ٣٣٧ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٤٦ .

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٦٩١ .

(٥) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٥٤ .

(٦) معاني القرآن للفراء ٣/ ٣٩ ، ومعاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٢٤ .

(٧) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٥٤ .

(٨) في معاني القرآن ٣/ ٣٩ .

والرحمةُ النبيُّ ﷺ. وقال الزجَّاج: «رَحْمَةً» مفعولٌ من أجله، أي: أرسلناه للرحمة[١]. وقيل: هي بدل من قوله: «أمْراً». وقيل: هي مصدر[٢]. الزمخشريُّ: «أمْراً» نصب على الاختصاص، جعل كلَّ أمر جَزْلاً فَخْماً بأن وصفه بالحكيم، ثم زاده جَزالة وكسبه فخامة بأن قال: أعني بهذا الأمر أمراً حاصلاً من عندنا، كائناً من لَدُنَّا، وكما اقتضاه علمنا وتدبيرنا.

وفي قراءة زيد بن عليٍّ: «أمْرٌ مِنْ عِنْدِنَا» على: هو أمرٌ، وهي تَنْصُر انتصابه على الاختصاص. وقرأ الحسن: «رحمةٌ» على تلك هي رحمةٌ، وهي تنصر انتصابها بأن مفعول له[٣].

قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قرأ الكوفيون: «رَبِّ» بالجرّ. الباقون بالرفع[٤]؛ رَدًّا على قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾. وإن شئت على الابتداء، والخبرُ: لا إله إلا هو. أو يكون خبر ابتداء محذوف، تقديره: هو ربُّ السماوات والأرض. والجرُّ على البدل من «رَبِّكَ»، وكذلك: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ بالجرِّ فيهما، رواه الشَّيْزَريّ[٥] عن الكسائي. الباقون بالرفع على الاستئناف.

ثم يحتمل أن يكون هذا الخطاب مع المعترفِ بأن الله خلق السماواتِ

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٢٤ .

(٢) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٥٥ .

(٣) الكشاف ٣/ ٥٠٠ - ٥٠١ .

(٤) السبعة ص ٥٩٢ ، والتيسير ص ١٩٨ .

(٥) هو عيسى بن سليمان أبو موسى الحجازي المعروف بالشيزري الحنفي، مقرىء عالم نحوي، كان حجازياً، ثم انتقل إلى شيزر، وأقام بها إلى أن مات، فنسب إليها، أخذ القراءة عرضاً وسماعاً عن الكسائي، وله عنه انفرادات. طبقات القراء ١/ ٦٠٨ ، وقراءته في القراءات الشاذة ص١٣٧ .

والأرض، أي: إن كنتم موقنين به؛ فاعلموا أنَّ له أن يُرسل الرسل، ويُنَزِّلَ الكتب. ويجوز أن يكون الخطاب مع مَن لا يعترف أنه الخالق، أي: ينبغي أن يعرفوا أنه الخالق، وأنه الذي يحيي ويميت. وقيل: الموقنُ ها هنا هو الذي يريد اليقين ويطلبه، كما تقول: فلان يُنْجِد، أي: يريد نَجْداً. ويُتهِم، أي: يريد تِهامة[١].

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾ أي: هو خالقُ العالم، فلا يجوز أن يُشرَك به غيره ممَّن لا يقدر على خلق شيء. و«هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ» أي: يحيي الأموات ويميت الأحياء. ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: مالِكُكُم ومالكُ مَن تقدَّم منكم. واتَّقُوا تكذيب محمد لئلا يَنْزِل بكم العذاب.

﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ أي: ليسوا على يقين فيما يُظهرونه من الإيمان والإقرار في قولهم: إن الله خالقُهم، وإنما يقولونه لتقليد آبائهم من غير علم، فهم في شكّ. وإن توهَّموا أنهم مؤمنون، فهم يلعبون في دينهم بما يعُنُّ من غير حجة. وقيل: «يَلْعَبُونَ»: يضيفون إلى النبيِّ ﷺ الافتراءَ استهزاءً. ويقال لمن أعرض عن المواعظ[٢]: لاعب، وهو كالصبيِّ الذي يلعب فيفعل ما لا يدري عاقبته.

قوله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ ارتقب معناه: انتظر، أي: انتظر يا محمدُ بهؤلاء[٣] الكفار يوم تأتي السماء بدخان مبين. قاله قتادة[٤]. وقيل: معناه: احفظ قولهم هذا لتشهد عليهم يوم تأتي السماء بدخان مبين، ولذلك سُمِّيَ الحافظُ رقيباً[٥].

---

(١) ينظر هذا القول في تفسير الرازي ٢٧/ ٢٤١ .

(٢) في (ظ): الذكر.

(٣) في (ظ): هؤلاء، وقوله: أي انتظر، من (ظ).

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٤٦ ، وأخرجه الطبري ٢١/ ١٣ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٤٧ .

وفي الدُّخان أقوال ثلاثة:

الأول: أنه من أشراط الساعة لم يَجِئ بعدُ، وأنه يمكث في الأرض أربعين يوماً يملأ ما بين السماء والأرض، فأما المؤمنُ فيصيبه مثل الزُّكام، وأما الكافرُ والفاجر فيدخل في أنوفهم فيَنْقُبُ مسامِعَهم، ويُضَيِّقُ أنفاسهم، وهو من آثار جهنَم يوم القيامة. وممَّن قال إن الدخان لم يأتِ بعدُ: عليٌّ، وابن عباس، وابنُ عمر، وأبو هريرة، وزيدُ ابن عليٍّ، والحسنُ، وابنُ أبي مُلَيكَة، وغيرُهم[١]. وروى أبو سعيدٍ الخُدْريُّ مرفوعاً أنه دخانٌ يَهيجُ بالناس يوم القيامة، يأخذ المؤمنَ منه كالزَّكْمة، وينفخُ الكافرَ حتى يخرج من كلِّ مسمع منه. ذكره الماوردي[٢].

وفي صحيح مسلم عن أبي الطُّفَيل، عن حُذيفةَ بنِ أَسِيدٍ الغِفاريِّ قال: اطَّلع النبيُّ ﷺ علينا ونحن نتذاكر فقال: «ما تذكرون»؟ قالوا: نذكر الساعة، قال: «إنها لن تقوم حتى تَرَوْا قبلها عَشْرَ آيات ـ فذكر ـ الدُّخانَ، والدَّجَّالَ، والدَّابَّةَ، وطلوعَ الشمس من مغربها، ونزولَ عيسى ابنِ مريم، وخروجَ يأجوجَ ومأجوجَ، وثلاثةَ خُسُوف: خَسْفٌ بالمَشْرِق، وخَسْفٌ بالمغرب، وخَسْفٌ بجزيرة العرب، وآخِرُ ذلك نارٌ تخرج من اليَمَن تَطْرُد الناس إلى مَحْشَرهم»[٣].

وفي رواية عن حُذيفة: «إن الساعة لا تكون حتى تكون عَشْرُ آيات: خَسْفٌ بالمشرق، وخَسْفٌ بالمغرب، وخَسْفٌ في جزيرة العرب، والدُّخانُ، والدَّجَّالُ، ودابَّةُ الأرض، ويأجوجُ ومأجوجُ، وطلوعُ الشمس من مغربها، ونارٌ تخرج من قَعْر عَدَن تُرَحِّلُ الناس»[٤].

---

(١) قول علي في تفسير عبد الرزاق ٢/ ٢٠٦، وتفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٨٨ (١٨٥٣٤)، وقول ابن عباس وابن عمر والحسن في تفسير الطبري ٢١/ ١٨ - ١٩. وقول أبي هريرة في زاد المسير ٧/ ٣٣٩، وقول زيد بن علي في المحرر الوجيز ٥/ ٦٩، وقول ابن أبي مليكة في المفهم ٧/ ٢٣٩.

(٢) في النكت والعيون ٥/ ٢٤٧، وأخرجه الطبري ٢١/ ١٩، وابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٨٧ (١٨٥٣٣).

(٣) صحيح مسلم (٢٩٠١): (٣٩)، وهو عند أحمد (١٦١٤١).

(٤) صحيح مسلم (٢٩٠١): (٤٠).

وخرَّجه الثعلبيُّ أيضاً عن حُذيفةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «أوَّلُ الآيات خروجاً: الدَّجَّالُ، والدخان[١]، ونزولُ عيسى ابنِ مريم، ونارٌ تخرج من قَعْر عَدَن أبْيَنَ تسوق الناس إلى المحشر، تَبيت معهم حيث باتوا، وتَقِيل معهم إذا قالوا، وتُصبح معهم إذا أصبحوا، وتُمْسي معهم إذا أمسَوا». قلت: يا نبيَّ الله، وما الدُّخان؟ قال: «هذه الآية: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾ يملأ ما بين المشرق والمغرب، يمكث أربعين يوماً وليلة، أمَّا المؤمنُ فيصيبه منه شبهُ الزُّكام، وأما الكافرُ فيكون بمنزلة السَّكران يخرج الدخان من فمه ومَنْخَره وعينيه وأُذُنيه ودبره»[٢].فهذا قول.

القول الثاني: أن الدخان هو ما أصاب قريشاً من الجوع بدعاء النبيِّ ﷺ، حتى كان الرجل يرى بين السماء والأرض دخاناً. قاله ابن مسعود[٣]. قال: وقد كشفه الله عنهم، ولو كان يوم القيامة لم يكشفه عنهم.

والحديثُ عنه بهذا في صحيح البخاريِّ ومسلم والترمذيِّ. قال البخاريُّ: حدثني يحيى قال: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن مسلم، عن مَسْرُوق قال: قال عبد الله: إنما كان هذا لأن قريشاً لمَّا استعصت على النبيِّ ﷺ، دعا عليهم بسنينَ كَسِني يوسف، فأصابهم قَحْطٌ وجَهْد حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدُّخان من الجَهْد، فأنزل الله تعالى: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ۝ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾. قال: فأُتيَ رسول الله ﷺ فقيل: يا رسول الله، استسق الله لِمُضَر فإنها قد هلكت. قال: «لِمُضَر! إنك لَجَريء». فاستسقى فسُقُوا، فنزلت: ﴿إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ﴾ [الآية: ١٥]. فلمَّا أصابتهم الرفاهية، عادوا إلى حالهم حين أصابتهم الرفاهية، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾. قال: يعني يومَ بدر[٤].

---

(١) قوله: والدخان، من (ظ).

(٢) أخرجه الطبري ٢١/١٩ - ٢٠ .

(٣) ينظر النكت والعيون ٥/ ٢٤٧ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٦٩ ، وزاد المسير ٧/ ٣٤٠ .

(٤) صحيح البخاري (٤٨٢١)، وصحيح مسلم (٢٧٩٨): (٤٠)، وسنن الترمذي (٣٢٥٤)، وهو عند أحمد (٣٦١٣).

قال أبو عبيدة[(١)]: والدُّخَان الجَدْب. القُتَبيُّ[(٢)]: سُمِّيَ دخاناً ليُبس الأرض منه حين يرتفع منها كالدخان.

القول الثالث: إنه يوم فتح مكة لمَّا حجبت السماءَ الغبرةُ. قاله عبد الرحمن الأعرج[(٣)].

﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾ في موضع الصفة للدُّخان، فإن كان قد مضى على ما قال ابن مسعود، فهو خاصٌّ بالمشركين من أهل مكة، وإن كان من أشراط الساعة فهو عامٌّ على ما تقدم. ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: يقول الله لهم: «هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ». فمن قال: إن الدخان قد مضى، فقولُه: «هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ» حكايةُ حالٍ ماضية، ومَن جعله مستقبلاً، فهو حكايةُ حالٍ آتية. وقيل: «هَذَا» بمعنى ذلك. وقيل: أي: يقول الناس لذلك الدخان: «هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ»[(٤)]. وقيل: هو إخبارٌ عن دُنُوِّ الأمر، كما تقول: هذا الشتاء فأعِدَّ له.

قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾

أي: يقولون ذلك: اكشف عنا العذاب، فـ«إِنَّا مُؤْمِنُونَ»، أي: نؤمن بك إن كشفته عنا. قيل: إن قريشًا أتَوُا النبيَّ ﷺ وقالوا: إن كشف الله عنا هذا العذابَ، أسلمنا، ثم نقضوا هذا القول[(٥)]. قال قتادة: «العَذَابَ» هنا الدخان. وقيل: الجوع. حكاه النقَّاش[(٦)].

قلت: ولا تناقض، فإن الدُّخان لم يكن إلا من الجوع الذي أصابهم، على ما

(١) في مجاز القرآن ٢/ ٢٠٨ ، ونقله المصنف بواسطة الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٤٧ .

(٢) في تفسير غريب القرآن ص ٤٠٢ ، ونقله المصنف بواسطة الماوردي في النكت والعيون.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٨٧ (١٨٥٣٢).

(٤) هذا القول في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٢٥ ، وزاد المسير ٧/ ٣٤١ .

(٥) سلف هذا القول في الآية السابقة في الحديث الذي أخرجه البخاري عن ابن مسعود ﷺ.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٤٧ .

تقدَّم. وقد يقال للجوع والقحط: الدخان؛ ليُبس الأرض في سنة الجَدْب، وارتفاع الغبار بسبب قلَّة الأمطار، ولهذا يقال لسنة الجَدْب: الغَبْراء[(١)]. وقيل: إن العذاب هنا الثلج. قال الماورديُّ[(٢)]: وهذا لا وجه له؛ لأن هذا إنما يكون في الآخرة، أو في أهل مكة، ولم تكن مكةُ من بلاد الثلج، غير أنه مقولٌ فحكيناه.

قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أي: من أين يكون لهم التذكُّر والاتعاظ عند حلول العذاب. ﴿وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾: يبيِّن لهم الحقَّ، والذِّكرى والذِّكْرُ واحد. قاله البخاريُّ[(٣)]. ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ﴾ أي: أعرضوا. قال ابن عباس: أي: متى يتَّعظون واللهُ أبعدهم من الاتعاظ والتذكُّر بعد تولِّيهم عن محمد ﷺ وتكذيبِهم إيَّاه؟! وقيل: أي: أنَّى ينفعهم قولُهم: «إِنَّا مُؤْمِنُونَ» بعد ظهور العذاب غدً أو بعد ظهور أعلام الساعة! فقد صارت المعارف ضرورية. وهذا إذا جعلتَ الدخان آية مرتقبة. ﴿وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ أي: عَلَّمه بَشَرٌ، أو علَّمه الكَهَنة والشياطين، ثم هو مجنونٌ وليس برسول.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ﴾ أي: وقتاً قليلاً، وعَدَ أن يكشف عنهم ذلك العذابَ قليلاً، أي: في زمانٍ قليلٍ ليعلم أنهم لا يَفُون بقولهم، بل يعودون إلى الكفر بعد كشفه. قاله ابن مسعود. فلمَّا كُشِف ذلك عنهم باستسقاء النبيِّ ﷺ لهم، عادوا إلى تكذيبه[(٤)]. ومَن قال: إن الدخان منتظَرٌ قال: أشار بهذا إلى ما يكون من الفُرْجة بين

---

(١) تفسير غريب القرآن ص ٤٠٢ .

(٢) في النكت والعيون ٥/ ٢٤٧ وما قبله منه.

(٣) في صحيحه قبل حديث (٤٨٢٣).

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٤٧ .

آية وآية من آيات قيام الساعة. ثم مَن قضى عليه بالكفر يستمرُّ على كفره، ومَن قال هذا في القيامة قال: أي لو كشفنا عنكم العذابَ، لعدتم إلى الكفر. وقيل: معنى ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ إلينا، أي: مبعوثون بعد الموت. وقيل: المعنى: «إِنَّكُمْ عَائِدُونَ» إلى نار جهنم إن لم تؤمنوا[1].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ﴾ محمولٌ على ما دلَّ عليه ﴿مُنتَقِمُونَ﴾، أي: ننتقم منهم يوم نبطِش. وأبعده بعض النَّحْويين بسبب أنَّ ما بعد «إنَّ» لا يفسِّر ما قبلها. وقيل: إن العامل فيه «مُنْتَقِمُونَ». وهو بعيدٌ أيضاً؛ لأن ما بعد «إن» لا يعمل فيما قبلها. ولا يحسن تعلُّقهُ بقوله: «عَائِدُونَ»، ولا بقوله: «إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ»؛ إذ ليس المعنى عليه. ويجوز نصبُه بإضمار فعل، كأنه قال: ذكِّرهم، أو: اذكر. ويجوز أن يكون المعنى: إنكم عائدون، فإذا عُدتُم أنتَقِمُ منكم يومَ نبطِش البطشة الكبرى. ولهذا وصل هذا بقصة فرعون، فإنهم وعدوا موسى الإيمانَ إن كشف عنهم العذاب، ثم لم يؤمنوا حتى غرِقوا. وقيل: «إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عائِدُونَ» كلامٌ تامٌّ. ثم ابتدأ: «يَوْمَ نَبْطِشُ البَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ» أي: ننتقم من جميع الكفار. وقيل: المعنى وارتقب الدُّخان وارتقب يَوْمَ نَبْطِش، فحذف واو العطف، كما تقول: اتق النار اتق العذاب.

و﴿ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ في قول ابن مسعود: يوم بدر. وهو قولُ ابنِ عباس وأُبَيِّ بن كعب ومجاهدٍ والضحاك[2]. وقيل: عذابُ جهنمَ يوم القيامة. قاله الحسن وعكرمة وابن عباس أيضاً[3]، واختاره الزَّجّاج. وقيل: دخانٌ يقع في الدنيا، أو جوعٌ أو قحطٌ

---

(١) النكت والعيون ٥/٢٤٧.

(٢) أخرج قولهم الطبري ٢١/٢٥ - ٢٧.

(٣) النكت والعيون ٥/٢٤٨، وأخرج قولهم الطبري ٢١/٢٧.

يقع قبل يوم القيامة. الماورديُّ[١]: ويحتمل أنها قيام الساعة؛ لأنها خاتمةُ بطشاته في الدنيا. ويقال: انتقم الله منه، أي: عاقبه. والاسم منه النَّقْمة، والجمعُ النَّقِمات[٢]. وقيل بالفرق بين النَّقْمة والعقوبة، فالعقوبة بعد المعصية لأنها من العاقبة. والنَّقْمة قد تكون قبلها. قاله ابن عباس[٣]. وقيل: العقوبةُ ما تقدَّرت، والانتقامُ غير مقدَّر.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾﴾

أي: ابتليناهم، ومعنى هذه الفتنةِ والابتلاءِ الأمرُ بالطاعة. والمعنى: عاملناهم معاملة المختبر ببعثة موسى إليهم، فكذَّبوا فأُهلِكوا، فهكذا أَفعلُ بأعدائك يا محمدُ إن لم يؤمنوا. وقيل: فتنَّاهم: عذَّبناهم بالغرق. وفي الكلام تقديمٌ وتأخير، والتقدير: ولقد جاء آلَ فرعون رسولٌ كريمٌ وفتنَّاهم، أي: أغرقناهم؛ لأن الفتنة كانت بعد مجيء الرسل. والواو لا تُرتِّب.

ومعنى ﴿كَرِيمٌ﴾ أي: كريمٌ في قومه. وقيل: كريمُ الأخلاق بالتجاوز والصفح[٤]. وقال الفرَّاء[٥]: كريمٌ على ربِّه إذِ اختصه بالنبوَّة وإسماع الكلام.

قوله تعالى: ﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ قال ابن عباس: المعنى: جاءهم فقال: اتبعوني[٦]. فـ«عِبَادَ اللَّهِ» منادى. وقال مجاهد: المعنى: أَرسِلوا معي عبادَ الله

---

(١) في النكت والعيون ٥/ ٢٤٨ .

(٢) الصحاح (نقم) .

(٣) في النكت والعيون ٥/ ٢٤٨ والكلام وما سيرد منه: قاله ابن عيسى .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٤٩ .

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٤٠ .

(٦) أخرجه الطبري ٢١/ ٢٩ .

وأطلقوهم من العذاب[١]. فـ«عِبَادَ اللَّهِ» على هذا مفعول. وقيل: المعنى: أدُّوا إليَّ عبادَ الله ما وجبَ عليكم من حقوق الله. وقيل: أي[٢]: أدُّوا إليَّ سمعَكم حتى أبلِّغكم رسالةَ ربي.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي: أمينٌ على الوحي فاقبلوا نُصحي. وقيل: أمينٌ على ما أستأديه منكم، فلا أَخونُ فيه[٣].

﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: لا تتكبروا عليه ولا ترتفعوا عن طاعته. وقال قتادة: لا تبغُوا على الله. ابن عباس: لا تفتروا على الله[٤]. والفرقُ بين البغي والافتراء: أن البغي بالفعل والافتراء بالقول. وقال ابن جُريج: لا تَعْظُمُوا على الله. يحيى بن سلام: لا تستكبروا على عبادة[٥] الله. والفرقُ بين التعظيم والاستكبار: أن التعظيم تطاولُ المقتدِر، والاستكبارَ تَرفُّعُ المحتقِر. ذكره الماوردي[٦].

﴿إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ قال قتادة: بعذر بيِّن. وقال يحيى بن سلام: بحجة بيِّنة. والمعنى واحد، أي: برهان بيِّن.

قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾﴾

كأنهم توعَّدوه بالقتل فاستجار بالله. قال قتادة: «تَرْجُمُونِ» بالحجارة[٧]. وقال ابن عباس: تشتمونِ، فتقولوا: ساحرٌ كذَّاب[٨]. وأظهر الذَّال من «عُذْتُ» نافعٌ وابنُ

(١) تفسير مجاهد ٢/ ٥٨٨ بنحوه.

(٢) من قوله: أدُّوا إليَّ، إلى هذا الموضع من (ظ).

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٤٩.

(٤) أخرج قول قتادة وابن عباس الطبري ٢١/ ٣١.

(٥) في (د) والنكت والعيون ٥/ ٢٤٩: عباد.

(٦) في النكت والعيون ٥/ ٢٤٩ وما سيرد منه.

(٧) أخرجه الطبري ٢١/ ٣٢.

(٨) أخرجه الطبري ٢١/ ٣٢ بنحوه.

كثير وابن عامر وعاصمٌ ويعقوب، وأدغم الباقون[١]. والإدغامُ طلباً للتخفيف، والإظهار على الأصل. ثم قيل: إني عذت بالله فيما مضى؛ لأن الله وعده فقال: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ [القصص: ٣٥]. وقيل: إني أعوذ، كما تقول: نشدتك بالله، وأقسمت عليك بالله، أي: أُقسِم.

قوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي﴾ أي: إن لم تصدِّقوني ولم تؤمنوا بالله لأجل برهاني. فاللام في «لي» لامُ أَجْل[٢]. وقيل: أي: وإن لم تؤمنوا بي[٣]، كقوله: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ [العنكبوت: ٢٦] أي: به. ﴿فَاعْتَزِلُونِ﴾ أي: دعُوني كَفافاً لا ليَ ولا عَلَيَّ[٤]. قاله مقاتل. وقيل: أي: كونوا بمعزل مني[٥] وأنا بمعزِل منكم إلى أن يحكم الله بيننا. وقيل: فخلُّوا سبيلي وكُفُّوا عن أذاي[٦]. والمعنى متقارب، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ﴾ فيه حذفٌ، أي: فكفروا فدعا ربه. ﴿أَنَّ هَؤُلَاءِ﴾ بفتح «أَنَّ» أي: بأنَّ هؤلاء[٧]. ﴿قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ أي: مشركون[٨]، قد امتنعوا من إطلاق بني إسرائيلَ ومن الإيمان.

---

(١) التيسير ص٤٢، والنشر ٢/ ١٦.

(٢) تفسير الرازي ٢٧/ ٢٤٥.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٧١.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٠٢، والكشاف ٣/ ٥٠٣. وفي القاموس: دعني كَفافِ، كقطامِ: كُفَّ عني وأكُفُّ عنك. قال الزَّبيدي في شرحه: ويجيء معرباً، ومنه قول عمر ﷺ: وددتُ أني سلمت من الخلافة كفافاً، لا عليَّ ولا لي.

(٥) في (د) و(ظ): عني.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٥٠.

(٧) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٢٦، والوسيط ٤/ ٨٨، والكشاف ٣/ ٥٠٣.

(٨) زاد المسير ٧/ ٣٤٣.

قوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا﴾ أي: فأجبنا دعاءه وأوحينا إليه أنْ أسرِ بعبادي، أي: بمن آمن بالله من بني إسرائيل. ﴿لَيْلًا﴾ أي: قبل الصباح. ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ وقرأ أهل الحجاز «فاسْرِ» بوصل الألف. وكذلك ابنُ كثير، مِن سَرَى. الباقون: «فَأَسْرِ» بالقطع، مِن أَسْرى[١]. وقد تقدَّم[٢]. وتقدَّم خروجُ فرعونَ وراء موسى في «البقرة والأعراف وطه والشعراء ويونس»[٣] وإغراقُه وإنجاءُ موسى، فلا معنى للإعادة.

الثانية: أُمِر موسى عليه السلام بالخروج ليلاً. وسَيْرُ الليل في الغالب إنما يكون عن خَوْف، والخوفُ يكون بوجهين: إمَّا من العدوِّ فيتخذ الليل سِتراً مُسْدِلاً، فهو من أستار الله تعالى. وإمَّا مِن خوْفِ المشقة على الدَّواب والأبدان بِحَرٍّ أو جَدْب، فيتخذ السُّرَى مصلحةً من ذلك. وكان النبيُّ ﷺ يَسْرِي ويُدْلج[٤] ويترفَّق ويستعجل، بحسب الحاجة وما تقتضيه المصلحة[٥]. وفي الصحيح عن النبيِّ ﷺ: «إذا سافرتم في الخِصْب، فأعطوا الإبل حَظَّها من الأرض، وإذا سافرتم في السَّنَة، فبادروا بها نِقْيَها»[٦]. وقد مضى في أول «النحل»، والحمد لله.

---

(١) التيسير ص ١٢٥، والنشر ٢/ ٢٩٠.

(٢) ١١/ ١٨٢.

(٣) ٢/ ٩٢ - ٩٣، و١١/ ٤٥، و١٤/ ١١١، ١٦/ ٣١ وما بعدها.

(٤) قوله: ويدلج من الدُّلْجة، وهو السير من أول الليل. القاموس (دلج).

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٧٩.

(٦) أخرجه مسلم (١٩٢٦) من حديث أبي هريرة ﷺ، وسلف ١٢/ ٢٧٧. والمراد بالسَّنة القحط، ونقيها - بكسر النون وإسكان القاف - وهو المخّ، أي: إن سافرتم في القحط فعجّلوا السير لتصلوا المقصد وفيها بقية من قوتها. شرح صحيح مسلم للنووي ١٣/ ٦٩.

قوله تعالى: ﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ ۝٢٤﴾

قال ابن عباس: ﴿رَهۡوًاۖ﴾ أي: طريقاً. وقاله كعب والحسن. وعن ابن عباس أيضاً: سَمْتاً. الضحَّاك والربيع: سهلاً. عكرمة: يَبَسًا[١]، لقوله: ﴿فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا﴾ [طه:٧٧] .وقيل: مفترِقاً. مجاهد: منفرِجًا[٢]. وعنه: يابسًا[٣]. وعنه: ساكنًا[٤]. وهو المعروف في اللغة. وقاله قتادة[٥] والهرويُّ. وقال غيرهما: منفرِجًا. وقال ابن عرفة: وهما يرجعان إلى معنى واحد وإن اختلف لفظاهما، لأنه إذا سكن جَرْيُه انفرج. وكذلك كان البحر يسكن جريه وانفرج لموسى عليه السلام. والرَّهْوُ عند العرب: الساكن، يقال: جاءت الخيل رَهْوًا، أي: ساكنة. قال:

والخيل تَمْزَعُ رَهْوًا في أعنَّتها ... كالطير تنجو من الشُّؤْبُوبِ ذي البرَدِ[٦]

الجوهري[٧]: ويقال: افعل ذلك رَهْوًا، أي: ساكناً على هِينَتِك. وعيشٌ راهٍ، أي: ساكنٌ رافِهٌ. وخِمْسٌ[٨] راهٍ: إذا كان سهلاً. ورها البحر، أي: سَكَن. وقال أبو عبيدة[٩]: رَهَا بين رجليه يَرْهُو رَهْوًا، أي: فتح، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ

(١) أخرج هذه الأقوال دون قول ابن عباس الأول وقول الحسن الطبريُّ ٢١/ ٣٥-٣٧ ، أما قول ابن عباس الأول فقد أورده الواحدي في الوسيط ٤/ ٨٩ ، وقول الحسن أخرجه ابن الأنباري في الأضداد ص١٥١ .

(٢) أورد هذا القول أبو الليث في تفسيره ٣/ ٢١٨ ، والماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٥٠ ، والسيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٠ وعزاه لعبد بن حميد.

(٣) تفسير مجاهد ٢/ ٥٨٩ ، وعلقه عنه البخاري قبل الحديث (٤٨٢٠) .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٠٣ ، والوسيط ٤/ ٨٨ ، وعلقه البخاري قبل حديث (٤٨٢٠) .

(٥) أخرجه ابن الأنباري في الأضداد ص ١٥١ .

(٦) قائله النابغة الذبياني وهو في ديوانه ص ٣٤ ، وفيه : غَرْباً ، بدل : رهواً . والغَرْب الفرس الكثير الجري . وتمزع، أي: تسرع . والشؤبوب: الدُّفعة من المطر . القاموس (غرب) و(مزع) و(شأب) .

(٧) في الصحاح (رها) .

(٨) الخِمس: من أظمأ الإبل ، وهي أن ترعى ثلاثة أيام ، وترد اليوم الرابع ، وقد أخمس الرجل ، أي : وردت إبله خِمساً . الصحاح (خمس) .

(٩) في (م) : أبو عبيد .

رَهْوًا﴾. والرَّهْوُ: السيرُ السَّهْل، يقال: جاءت الخيل رَهْوًا. قال ابن الأعرابي: رَهَا يَرْهُو في السير، أي: رَفَق. قال القَطامي في نعت الرِّكَاب:

يَـمْشِيـنَ رَهْـوًا فـلا الأعـجـازُ خـاذِلـةٌ ولا الـصـدورُ عـلـى الأعـجـاز تَـتَّـكِـلُ[1]

والرَّهْوُ والرَّهْوَة: المكان المرتفع، والمنخفض أيضاً يجتمع فيه الماء، وهو من الأضداد. وقال أبو عبيد: الرَّهْو: الجَوْبةُ تكون في[2] مَحَلَّة القوم يسيل فيها ماء المطر وغيره[3]. وفي الحديث أنه قضى أن «لا شُفعةَ في فِناء ولا طريقٍ ولا مَنْقَبةٍ ولارُكْحٍ ولا رَهْوٍ»[4]. والجمع رِهَاء. والرَّهْوُ: المرأةُ الواسعة الهَنِ، حكاه النَّضْر بن شُمَيلٍ. والرَّهْو: ضربٌ من الطير، ويقال: هو الكُرْكِيُّ.

قال الهَرَويُّ: ويجوز أن يكون «رَهْوًا» من نعت موسى ـ وقاله القشيريّ ـ أي: سِرْ ساكنًا على هِينَتِك، فالرَّهوُ من نعت موسى وقومِه لا من نعت البحر. وعلى الأوّل هو من نعت البحر، أي: اتركه ساكنًا كما هو قد انفرق، فلا تأمره بالانضمام حتى يدخل فرعون وقومه[5].

قال قتادة: أراد موسى أن يضرب البحر لمَّا قطعه بعصاه حتى يلتئم، وخاف أن يتبعه فرعون، فقيل له هذا[6].

وقيل: ليس الرَّهْو من السكون، بل هو الفُرجة بين الشيئين، يقال: رَهَا ما بين الرِّجلين، أي: فرج. فقوله: «رَهْوًا» أي: منفرِجًا. وقال الليث: الرَّهْو مَشْيٌ في

(١) ديوان القطامي ص ٢٦.

(٢) بعدها في (د) و(ظ): فناء. اهـ. والجَوْبة: الحفرة المستديرة الواسعة. المعجم الوسيط.

(٣) غريب الحديث ٣/ ١٢٢.

(٤) أورده أبو عبيد في غريب الحديث ٣/ ١٢١، وابن الأثير في النهاية ٢/ ٢٨٥. قال أبو عبيد: المَنْقَبة هي الطريق الضيق يكون بين الدارين لا يمكن أن يسلكه أحد. والرُّكح: ناحية البيت من ورائه، وربما كان فضاء لا بناء فيه.

(٥) بنحوه في تهذيب اللغة ٦/ ٤٠٤.

(٦) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٢٠٨، والطبري ٢١/ ٣٥.

سكون[١]، يقال: رها يرهو رَهْوًا فهو راهٍ. وعيشٌ راهٍ: وادعٌ خافض. وافعل ذلك سَهْوًا رَهْوًا، أي: ساكنًا بغير شدَّة. وقد ذكرناه آنفاً.

﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: إن فرعون وقومه ﴿جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ أخبر موسى بذلك ليسكن قلبه.

قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ ﴿كَمْ﴾ للتكثير. وقد مضى الكلام في معنى هذه الآية في «الشعراء» مستوفًى[٢]. ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ النَّعْمة ـ بالفتح ـ: التنعيم، يقال: نعَّمه الله وناعَمَه فتَنعَّم، وامرأةٌ مُنَعَّمةٌ ومُناعَمَةٌ، بمعنًى. والنِّعمة ـ بالكسر ـ: اليد والصنيعة والمِنَّة وما أُنعِم به عليك. وكذلك النُّعْمى. فإن فتحتَ النون مددتَ وقلتَ: النَّعماء. والنعيم مثله. وفلانٌ واسعُ النعمة، أي: واسعُ المال، جميعه عن الجوهريّ[٣]. وقال ابن عمر: المراد بالنَّعمة نيلُ مصر. ابن لهيعة: الفَيُّوم[٤]. ابن زياد: أرضُ مصرَ لكثرة خيرها. وقيل: ما كانوا فيه من السَّعة والدَّعَة. وقد يقال: نَعْمَة ونِعْمَة؛ بفتح النون وكسرها، حكاه الماورديّ[٥]. قال: وفي الفرق بينهما وجهان:

أحدهما: أنها بكسر النون في المِلْك، وبفتحها في البَدَن والدِّين. قاله النَّضْر بن شُمَيل.

الثاني: أنها بالكسر من المِنَّة؛ وهو الإفضال والعطيَّة، وبالفتح من التنعيم؛ وهو

---

(١) ذكر قول الليث الأزهري في تهذيب اللغة ٦/ ٤٠٣ .

(٢) ١٣/ ١٠٢ وما بعدها .

(٣) في الصحاح (نعم).

(٤) الفيوم: موضع بمصر، بينها وبين الفسطاط أربعة أيام ، بينهما مفازة لا ماء بها ولا مرعى . معجم البلدان ٤/ ٢٨٦ .

(٥) في النكت والعيون ٥/ ٢٥١ - ٢٥٢ .

سَعةُ العيش والراحة. قاله ابن زياد.

قلت: هذا الفرق هو الذي وقع في الصحاح وقد ذكرناه.

وقرأ أبو رجاء والحسن وأبو الأشهب والأعرج وأبو جعفر وشيبة: «فَكِهِينَ» بغير ألف[١]، ومعناه: أشِرين بَطِرين[٢]. قال الجوهري: فَكِهَ الرجل ـ بالكسر ـ فهو فَكِهٌ: إذا كان طيِّب النفس مَزَّاحاً. والفَكِه أيضاً الأشِر البَطِر. وقرئ: «وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَكِهِينَ»، أي: أَشِرين بَطِرين. و«فَاكِهِينَ» أي: ناعمين[٣]. القشيري: «فَاكِهِينَ»: لاهين مازحين، يقال: إنه لفاكه، أي مَزَّاح. وفيه فكاهة، أي: مَزِح. الثعلبيّ: وهما لغتان كالحاذر والحَذِر، والفارِه والفَرِه. وقيل: إن الفاكه هو المستمتع بأنواع اللذة؛ كما يتمتع الآكل بأنواع الفاكهة[٤]. والفاكهة: فضلٌ عن القوت الذي لا بدّ منه.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾

قال الزَّجّاج: أي الأمر كذلك؛ فيوقف على «كَذَٰلِكَ»[٥]. وقيل: إن الكاف في موضع نصب، على تقدير: نفعل فعلاً كذلك بمن نريد إهلاكه[٦]. وقال الكلبي: «كَذَٰلِكَ» أفعل بمن عصاني[٧]. وقيل: «كَذَٰلِكَ» كان أمرهم فأُهلكوا. ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ يعني بني إسرائيل، ملّكهم الله تعالى أرض مصر بعد أن كانوا فيها مستعبَدين، فصاروا لها وارثين؛ لوصول ذلك إليهم كوصول الميراث[٨]. ونظيره:

---

(١) قراءة أبي رجاء والحسن في تفسير الطبري ٢١/ ٣٩ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٧٣، وقراءة أبي جعفر في النشر ٢/ ٣٥٤ ، وهو من العشرة.

(٢) تفسير الطبري ٢١/ ٣٩ .

(٣) الصحاح للجوهري (فكه) .

(٤) أورد هذا القول الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٥٢ ، ونسبه لابن عيسى .

(٥) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٢٦ .

(٦) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٥٦ .

(٧) الوسيط ٤/ ٨٩ ، وتفسير البغوي ٤/ ١٥٢ .

(٨) النكت والعيون ٥/ ٢٥٢ .

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا﴾ الآية [الأعراف: ١٣٧].

قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أي: لكفرهم. ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ أي: مؤخَّرين بالغرق[1]. وكانت العرب تقول عند موت السيد منهم: بكت له السماء والأرض، أي: عمَّت مصيبته الأشياءَ حتى بكته السماءُ والأرضُ والريح والبرق، وبكته الليالي الشاتيات. قال الشاعر:

الـريـحُ تـبـكـي شَـجْـوَهُ والـبـرقُ يـلـمـع فـي غـمـامـه[2]

وقال آخر:

والشمسُ طالعةٌ ليست بكاسفة تبكي عليك نجومَ اللَّيل والقمرا[3]

وقالت الخارجية:

أيا شجرَ الخابور مَالَكَ مُورِقًا كأنك لم تجزع على ابن طَرِيفِ[4]

وذلك على سبيل التمثيل والتخييل مبالغةً في وجوب الجَزَع والبكاءِ عليه[5].

والمعنى: أنهم هلكوا فلم تعظُم مصيبتهم، ولم يوجد لهم فَقْد.

وقيل: في الكلام إضمار، أي: ما بكى عليهم أهل السماء والأرض من

---

(١) ذكر هذا الكلام الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٥٣ ونسبه للكلبي.

(٢) البيت ليزيد بن المفرِّغ الحميري، وهو في ديوانه ص ١٤٣ براوية: فالريح تبكي شجوها... والبرق يضحك في الغمامة.

(٣) قائله جرير، وهو في ديوانه ٢/ ٧٣٦ وجاء الشطر الأول فيه: فالشمس كاسفة ليست بطالعة. وهو برواية المصنف في الكامل ٢/ ٨٣٣، والعقد الفريد ١/ ٩٦، والمحرر الوجيز ٥/ ٧٤ وغيرهم وقوله: «نجومَ» بالفتح، نصبت بـ «كاسفة» يعني أنها تكسف النجومَ والقمر بإفراط ضيائها. ينظر الكامل للمبرد.

(٤) أورده ابن عبد ربه في العقد الفريد ٣/ ٢٦٩، والزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٠٤.

(٥) الكشاف ٣/ ٥٠٤.

الملائكة، كقوله تعالى: ﴿وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] بل سُرُّوا بهلاكهم. قاله الحسن(١).

وروى يزيد الرَّقاشي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مؤمن إلا وله في السماء بابان: بابٌ ينزل منه رزقه، وباب يدخل منه كلامه وعمله. فإذا مات، فقداه فبكيا عليه، ثم تلا: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾»(٢).

يعني أنهم لم يعملوا على الأرض عملاً صالحاً تبكي عليهم لأجله، ولا صعِد لهم إلى السماء عملٌ صالح فتبكي فَقْدَ ذلك.

وقال مجاهد: إن السماء والأرض يبكيان على المؤمن أربعين صباحاً(٣). قال أبو يحيى: فعجبت من قوله، فقال: أتعجب! وما للأرض لا تبكي على عبد [كان] يَعْمُرها بالركوع والسجود! وما للسماء لا تبكي على عبد كان لتسبيحه وتكبيره فيها دَوِيٌّ كدوِيِّ النحل!(٤).

وقال عليٌّ وابن عباس رضي الله عنهما: إنه يبكي عليه مُصَلَّاه من الأرض، ومصعدُ عمله من السماء. وتقدير الآية على هذا: فما بكت عليهم مصاعدُ عملهم من السماء، ولا مواضعُ عبادتهم من الأرض. وهو معنى قول سعيد بن جُبير(٥).

وفي بكاء السماء والأرض ثلاثةُ أوجه: أحدُها أنه كالمعروف من بكاء الحيوان. ويشبه أن يكون قولَ مجاهد(٦). وقال شُريحٌ الحضرمي: قال النبيُّ ﷺ: «إن الإسلام

---

(١) ينظر النكت والعيون ٥/ ٢٥٢ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٥٢ - ٢٥٣ ، وأخرجه الترمذي (٣٢٥٥) وقال: هذا حديث لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه، وموسى بن عبيدة ويزيد بن أبان يضعفان في الحديث.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٥٧٠ ، والطبري ٢١/ ٤٢ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٥٢ ، وما بين حاصرتين منه ، وأخرجه أبو الشيخ في العظمة (١١٨٩) وأبو يحيى: هو القتَّات، وهو لين الحديث كما في التقريب .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٥٢ وأخرج قول علي ابن المبارك في الزهد (٣٣٦)، وقول ابن عباس الطبري ٢١/ ٤٢ ، والبيهقي في الشعب (٣٢٨٨) بنحوه مطولاً ، وقول سعيد بن جبير الطبري ٢١/ ٤٣ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٥٣ .

بدأ غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء يوم القيامة. قيل: مَن هم يا رسول الله؟ قال: هم الذين إذا فسد الناس صَلَحُوا». ثم قال: «ألا لا غُرْبةَ على مؤمن، وما مات مؤمن في غُربة غائبًا عنه بواكيه إلَّا بكت عليه السماء والأرض». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ ثم قال: «ألا إنهما لا يبكيان على الكافر»[١].

قلت: وذكر أبو نعيم [حدثنا] محمد بن مَعْمر قال: حدثنا أبو شعيب الحرَّاني قال: حدثنا يحيى بن عبد الله قال: حدثنا الأوزاعيُّ قال: حدثني عطاءٌ الخراساني قال: ما من عبد يسجد لله سجدة في بُقعة من بقاع الأرض إلَّا شهدت له يوم القيامة، وبكت عليه يوم يموت[٢].

وقيل: بكاؤهما: حمرةُ أطرافهما. قاله عليُّ بن أبي طالب ﷺ وعطاءٌ[٣] والسدِّيُّ والترمذيُّ محمد بنُ عليٍّ وحكاه عن الحسن. قال السدِّي: لمَّا قُتِل الحسينُ بنُ عليٍّ رضي الله عنهما، بكت عليه السماء، وبكاؤها حمرتُها[٤]. وحكى جرير عن يزيد بن أبي زياد قال: لمَّا قُتِل الحسينُ بن علي بنِ أبي طالب رضي الله عنهما، احمرَّ له آفاقُ السماء أربعةَ أشهر. قال يزيد: واحمرارُها بكاؤها[٥]. وقال محمد بن سيرين: أخبرونا أن الحمرة التي تكون مع الشَّفَق لم تكن حتى قُتِل الحسينُ بن عليٍّ رضي الله عنهما[٦]. وقال سليمان القاضي: مُطِرْنا دماً يوم قُتِل الحسين.

(١) أخرجه الطبري ٢١/ ٤٣ مختصراً، وهو مرسل، والصحيح منه قوله: «بدأ الإسلام غريباً، وسيعود كما بدأ، فطوبى للغرباء»، وسلف ٥/ ٢٦٣.

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم ٥/ ١٩٧ وما بين حاصرتين منه، وأخرجه أيضاً ابن المبارك في الزهد (٣٤٠) عن الأوزاعي عن عطاء.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٥٣، وقول عطاء أخرجه الطبري ٢١/ ٤١.

(٤) أخرجه الطبري ٢١/ ٤١، والسُّدي - وهو محمد بن مروان - متَّهم بالكذب كما في التقريب.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٥٣، ويزيد بن أبي زياد ضعفه ابن حجر في التقريب، وقال: كَبِر فتغير وصار يتلقَّن وكان شيعياً.

(٦) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٤/ ٢٢٨.

قلت: روى الدَّارَقُطْنيُّ من حديث مالك بن أنس، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال النبيُّ ﷺ: «الشفق الحمرة»[١].

وعن عُبادةَ بنِ الصامت وشدَّاد بن أوس قالا: الشفق شفقان: الحمرة والبياض، فإذا غابت الحمرة حَلَّت الصلاة. وعن أبي هريرة قال: الشفق الحمرة[٢]. وهذا يردُّ ما حكاه ابن سيرين.

وقد تقدَّم في «سبحان»[٣] عن قرَّةَ بن خالد قال: ما بكت السماء على أحد إلا على يحيى بنِ زكريا والحسينِ بن عليٍّ، وحمرتُها بكاؤها.

وقال محمد بن عليٍّ الترمذيّ: البكاءُ إدرار الشيء، فإذا أدرَّتِ العين بمائها، قيل: بكت، وإذا أدرَّت السماء بحمرتها، قيل: بكت، وإذا أدرَّت الأرض بغبرتها، قيل: بكت؛ لأن المؤمن نورٌ ومعه نورُ الله، فالأرض مضيئةٌ بنوره وإن غاب عن عينيك، فإن فقدتْ نورَ المؤمن اغبرَّت فدرَّت باغبرارها؛ لأنها كانت غبراءَ بخطايا أهل الشرك، وإنما صارت مضيئة بنور المؤمن؛ فإذا قُبِض المؤمنُ منها دَرَّت بغبرتها.

وقال أنس: لمَّا كان اليوم الذي دخل فيه النبيُّ ﷺ المدينة، أضاء كلُّ شيء، فلمَّا كان اليوم الذي قُبِض فيه، أظلم كلُّ شيء، وإنا لفي دفنه ما نفضنا الأيديَ منه حتى أنكرنا قلوبنا.[٤]

وأمَّا بكاءُ السماء فحمرتُها كما قال الحسن. وقال نصر بن عاصم: إن أول الآيات حُمْرَةٌ تظهر، وإنما ذلك لدنوِّ الساعة، فتدُرُّ بالبكاء لخلائها من أنوار المؤمنين.

---

(١) سنن الدارقطني (١٠٥٦). قال البيهقي في السنن الكبرى ١/ ٣٧٣: الصحيح موقوف.

(٢) سنن الدارقطني (١٠٥٤) (١٠٥٥). قال البيهقي في معرفة السنن والآثار ٢/ ٢٠٥: لا يصح فيه شيء وعن النبي ﷺ...

(٣) ١٣/ ٢٧.

(٤) سلف ٥/ ٣٤٦.

وقيل: بكاؤها: أمارةٌ تظهر منها تدلُّ على أسف وحزن[١].

قلت: والقولُ الأوَّل أظهر؛ إذ لا استحالة في ذلك. وإذا كانت السماوات والأرض تُسبِّحُ وتسمع وتتكلم كما بيَّنّاه في «سبحان ومريم وحم فصلت»[٢]، فكذلك تبكي، مع ما جاء من الخبر في ذلك، والله أعلم بصواب هذه الأقوال.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾

يعني ما كانت القبط تفعل بهم بأمر فرعون، من قتل الأبناء واستخدام النساء، واستعبادهم إياهم، وتُكلِّفُهم الأعمالَ الشاقَّة. ﴿مِن فِرْعَوْنَ﴾ بدلٌ من «الْعَذَابِ الْمُهِينِ»[٣]، فلا تتعلق «مِنْ» بقوله: «مِنَ الْعَذَاب» لأنه قد وصِف، وهو لا يعمل بعد الوصف عمل الفعل. وقيل: أي: أنجيناهم من العذاب ومن فرعون. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: جبَّارًا من المشركين. وليس هذا عُلوَّ مَدْح، بل هو عُلُوٌّ في الإسراف، كقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤] وقيل: هذا العلوُّ هو الترفُّعُ عن عبادة الله.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ﴾ يعني بني إسرائيل. ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: على علم مِنَّا بهم لكثرة الأنبياء منهم. ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: عالَمي زمانهم، بدليل قوله لهذه الأمة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. وهذا قولُ قتادةَ وغيره[٤]. وقيل: على كلِّ العالمين بما جعل فيهم من الأنبياء. وهذا خاصَّةٌ لهم وليس لغيرهم. حكاه

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٥٣.

(٢) ٨٩/١٣ وما بعدها، و١٣/ ٥٢١ - ٥٢٢، وعند تفسير الآية (١١) من سورة فصلت.

(٣) الكشاف ٣/ ٥٠٤، والمحرر الوجيز ٥/ ٧٤.

(٤) أخرجه الطبري ٢١/ ٤٦ بنحوه.

ابن عيسى[١] والزَّمَخشريُّ[٢] وغيرهما. ويكون قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ أي: بعد بني إسرائيل. والله أعلم. وقيل: يرجع هذا الاختيار إلى تخليصهم من الغرق، وإيراثهم الأرضَ بعد فرعون.

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: من معجزات موسى[٣] ﴿مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾ قال قتادة: الآياتُ: إنجاؤهم من فرعون، وفَلْقُ البحر لهم، وتظليلُ الغمام عليهم، وإنزالُ المَنِّ والسَّلْوَى[٤]. ويكون هذا الخطابُ متوجِّهًا إلى بني إسرائيل. وقيل: إنها العصا واليد. ويشبه أن يكون قولَ الفرَّاء[٥]. ويكون الخطابُ متوجِّهًا إلى قوم فرعون. وقول ثالث: إنه الشرُّ الذي كَفَّهم عنه والخيرُ الذي أمرهم به. قاله عبد الرحمن بن زيد. ويكون الخطاب متوجِّهًا إلى الفريقين معًا من قوم فرعونَ وبني إسرائيل[٦].

وفي قوله: «بَلَاءٌ مُبِينٌ» أربعة أوجه:

أحدها: نعمة ظاهرة. قاله الحسن وقتادة. كما قال الله تعالى: ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ [الأنفال: ١٧]. وقال زهير:

فأبلاهما خيرَ البلاءِ الذي يَبْلُو[٧]

الثاني: عذاب شديد. قاله الفرَّاء[٨].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٥٤.

(٢) في الكشاف ٣/ ٥٠٤.

(٣) في (م): من المعجزات لموسى.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٥٤، وأخرجه الطبري ٢١/ ٤٧.

(٥) قول الفراء في معاني القرآن له ٣/ ٤٢ بنحو قول قتادة السالف ولم يقل: إنها العصا واليد.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٥٤.

(٧) عجز بيت له وصدره: رأى الله بالإحسان ما فعلا بكم، وهو في ديوانه ص١٠٩. وسلف ١٨/ ٧٢.

(٨) في معاني القرآن ٣/ ٤٢.

الثالث: اختبار يتميَّز به المؤمن من الكافر. قاله عبد الرحمن بنُ زيد[١]. وعنه أيضاً: ابتلاؤهم بالرَّخاء والشدة[٢]، ثم قرأ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ﴾ يعني كفارَ قريش[٣] ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ ابتداء وخبر، مثل: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٢٩]

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ أي: بمبعوثين. ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنشرَ الله الموتى فنُشِروا. وقد تقدَّم[٤]. والمنشورون: المبعوثون. قيل: إنَّ قائل هذا من كفار قريش أبو جهل، قال: يا محمد، إن كنتَ صادقاً في قولك، فابعث لنا رجلين من آبائنا: أحدُهما: قصيُّ بنُ كِلاب، فإنه كان رجلاً صادقاً، لنسأله عمَّا يكون بعد الموت. وهذا القولُ من أبي جهل مِن أضعفِ الشبهات؛ لأن الإعادة إنما هي للجزاء لا للتكليف، فكأنه قال: إن كنتَ صادقاً في إعادتهم للجزاء، فأعِدْهم للتكليف. وهو كقول قائل لو قال: إن كان ينشأ بعدنا قومٌ من الأبناء، فلم لا يرجع من مضى من الآباء. حكاه الماوردي[٥].

ثم قيل: «فَأْتُوا بِآبَائِنَا» مخاطبةٌ للنبيِّ ﷺ وحده، كقوله: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩] قاله الفرَّاء[٦]. وقيل: مخاطبةٌ له ولأتباعه.

---

(١) أورد هذه الأوجه الثلاثة الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٥٤.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٥٢.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٥٥.

(٤) ٤/ ٣٠٦.

(٥) في النكت والعيون ٥/ ٢٥٥.

(٦) في معاني القرآن ٣/ ٤٢.

قوله تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ هذا استفهامُ إنكار، أي: إنهم مستحقُّون في هذا القول العذابَ؛ إذ ليسوا خيراً من قوم تُبَّع والأمم المهلَكة، وإذا أهلكنا أولئك فكذا هؤلاء. وقيل: المعنى: أهم أظهرُ نعمةً وأكثرُ أموالاً أم قومُ تُبَّع؟ وقيل: أهم أعزُّ وأشدُّ وأمنع أم قومُ تُبَّع؟[١].

وليس المراد بتُبَّع رجلاً واحداً، بل المرادُ به ملوكُ اليمن، فكانوا يسمُّون ملوكهم التبابعة. فتُبَّع لقبٌ للملك منهم، كالخليفة للمسلمين، وكسرى للفُرْس، وقَيْصر للروم. وقال أبو عبيدة[٢]: سُمِّيَ كلُّ واحد منهم تُبَّعًا لأنه يَتْبَع صاحبه. قال الجوهري[٣]: والتبابعةُ ملوك اليمن، واحدهم تُبَّع، والتُّبَّع أيضاً الظِّلُّ، وقال:

يَـردُ الـمـيـاهَ حـضِـيـرةً ونَـفِـيـضَـةً ... وِرْدَ الـقـطَـاةِ إذا اسْـمَـألَّ الـتُّـبَّـعُ[٤]

والتُّبَّعُ أيضاً ضربٌ من الطير.

وقال السهيلي[٥]: تُبَّع اسمٌ لكل مَلِك مَلَكَ اليمن والشِّحْر[٦] وحضرموت. وإنْ مَلَكَ اليمن وحدها لم يُقَل له تُبَّع. قاله المسعودي. فمن التبابعة: الحارث الرائش،

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٥٥ .

(٢) في مجاز القرآن ٢/ ٢٠٩ .

(٣) في الصحاح (تبع) .

(٤) أورده الأصمعي في الأصمعيات ص ١٠٣ ، وابن السكيت في إصلاح المنطق ص ٣٩٢ ، وابن دريد في الاشتقاق ١/ ٢٠٧ ونسبوه لسعدى بنت الشمردل الجهنية، والحضيرة : النفر يُغزى بهم ، ومقدمة الجيش . القاموس (حضر) . والنفيضة : القوم الذين يَنفُضون ، يتقدمون الجيش . واسمأل : ضَمَر . ينظر الاشتقاق .

(٥) في التعريف والإعلام ص ١٥٣ – ١٥٥ .

(٦) الشِّحْر : هو صقع على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن . معجم البلدان ٣/ ٣٢٧ .

وهو ابن همال ذي شدد[١]. وأبرهةُ ذو المنار. وعمرو ذو الأذعار. وشمر بن مالك، الذي تنسب إليه سَمَرْقَنْد. وأفريقيس[٢] بن قيس، الذي ساق البربر إلى أفريقيَّةَ من أرض كنعان، وبه سُمِّيت إفريقية.

والظاهر من الآيات: أن الله سبحانه إنما أراد واحداً من هؤلاء، وكانت العرب تعرفه بهذا الاسم أشدَّ من معرفة غيره، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «ولا أدري أَتُبَّعٌ لَعِينٌ أم لا»[٣]. ثم قد رُويَ عنه أنه قال: «لا تَسُبُّوا تُبَّعًا فإنه كان مؤمناً»[٤]. فهذا يدلُّك على أنه كان واحداً بعينه، وهو ـ والله أعلم ـ أبو كَرِب الذي كسا البيت بعد ما أراد غزوه، وبعد ما غزا المدينة وأراد خرابها، ثم انصرف عنها لمَّا أُخبِر أنها مُهَاجَر نبيٍّ اسمه أحمد. وقال شعراً أودعه عند أهلها، فكانوا يتوارثونه كابراً عن كابر إلى أن هاجر النبيُّ ﷺ، فأدَّوْهُ إليه. ويقال: كان الكتاب والشعر عند أبي أيوب خالدِ ابن زيد. وفيه:

شهدتُ على أحمدِ أنهُ ... رسولٌ من الله باري النَّسَمْ
فلو مُدَّ عُمْري إلى عُمْرِهِ ... لكنتُ وزيراً له وابنَ عَمْ[٥]

(١) في (م): ذي سدد، وفي الروض الأنف ١/ ٣٤: وهو ابن همال بن ذي شدد.

(٢) في التعريف والإعلام: وإفريقش.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٦٧٤) من طريق ابن أبي ذئب، عن سعيد بن أبي سعيد، عن أبي هريرة مرفوعاً. وأخرجه البخاري في التاريخ الكبير ١/ ١٥٣ عن الزهري مرسلاً، وقال: وهو أصح.

(٤) أخرجه أحمد (٢٢٨٨٠)، والطبراني في الكبير (٦٠١٣)، وابن شاهين في ناسخ الحديث ومنسوخه (٦٦٠) من طريق ابن لهيعة، عن عمرو بن جابر، عن سهل بن سعد ﷺ. قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٤٨: فيه ابن لهيعة عن عمرو بن جابر وهما ضعيفان.

وأخرجه الطبراني في الكبير (١١٧٩٠)، وفي الأوسط (١٤٤١)، والخطيب في تاريخ بغداد ٣/ ٢٠٥ عن ابن عباس رضي الله عنهما. وإسناده ضعيف، فيه مؤمَّل بن إسماعيل وهو صدوق سيِّئ الحفظ، وفيه سماك بن حرب عن عكرمة، وروايته عن عكرمة خاصة مضطربة، وقد تغير بأَخَرة، فكان ربما تَلَقَّن. قاله ابن حجر في التقريب.

(٥) أورد هذين البيتين غير السهيلي ابنُ رشيق في العمدة في محاسن الشعر وآدابه ٢/ ٢٢٦.

وذكر الزجَّاج[١] وابن أبي الدنيا والزمخشري[٢] وغيرُهم أنه حُفِر قبر له بصنعاء ـ ويقال: بناحية حمير ـ في الإسلام، فوجد فيه امرأتان صحيحتان، وعند رؤوسهما لوحٌ من فضةٍ مكتوبٌ فيه بالذهب: هذا قبر حُبَّى ولَميس. ويُروى أيضًا: حُبَّى وتماضر. ويُروى أيضًا: هذا قبر رضوى وقبرُ حُبَّى ابنتا تُبَّع، ماتتا وهما يشهدان أن لا إله إلا الله ولا يشركان به شيئًا، وعلى ذلك مات الصالحون قبلهما.

قلت: وروى ابن إسحاق وغيرُه أنه كان في الكتاب الذي كتبه: «أما بعد، فإني آمنت بك وبكتابك الذي أُنزِل عليك، وأنا على دينك وسنتك، وآمنتُ بربِّك وربِّ كلِّ شيء، وآمنت بكلِّ ما جاء من ربِّك من شرائع الإسلام، فإن أدركتُك فبِها ونِعمت، وإن لم أُدْرِكْك فاشفع لي ولا تَنسني يوم القيامة، فإني من أمتك الأوّلين وبايعتُك قبل مجيئك، وأنا على ملَّتك وملَّةِ أبيك إبراهيم عليه السلام». ثم ختم الكتاب ونقش عليه: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ﴾ [الروم: ٤]. وكتب على عنوانه: «إلى محمد بن عبد الله نبيِّ الله ورسوله، خاتمِ النبيِّين ورسولِ ربِّ العالمين ﷺ. من تُبَّع الأوّل». وقد ذكرنا بقيَّة خبره وأوَّله في «اللُّمع اللؤلؤية في[٣] شرح العشر بينات النبوية» للفارابي رحمه الله. وكان من اليوم الذي مات فيه تُبَّع إلى اليوم الذي بُعِث فيه النبيُّ ﷺ ألفُ سنة لا يزيد ولا ينقص.

واختلف هل كان نبِيًّا أو مَلِكًا؟ فقال ابن عباس: كان تُبَّع نبيًّا[٤]. وقال كعب: كان تُبَّع ملِكًا من الملوك، وكان قومه كُهَّانًا، وكان معهم قوم من أهل الكتاب، فأَمَر الفريقين أن يقرِّب كلُّ فريق منهم قُرْبَاناً ففعلوا، فَتُقُبِّل قربان أهل الكتاب فأسلم[٥].

---

(١) في معاني القرآن ٤/ ٤٢٧.

(٢) في الكشاف ٣/ ٥٠٥.

(٣) لفظة: في، ليست في (م).

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٧٥.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٠٩.

وقالت عائشة رضي الله عنها: لا تسبُّوا تُبَّعاً فإنه كان رجلاً صالحاً[١]. وحكى قتادة أن تُبّعًا كان رجلاً من حِمير، سار بالجيوش[٢] حتى عبر الحِيرة وأتى سَمَرْقَنْدَ فهدَمها. حكاه الماوردي[٣]. وحكى الثعلبيُّ عن قتادةَ أنه تُبَّعٌ الحِميري، وكان سار بالجيوش[٤] حتى عبر الحِيرة. وبنى سَمَرْقَنْدَ[٥] وقتل وهدم البلاد.

وقال الكلبي: تُبَّع هو أبو كَرِب أسعدُ بن مَلْكيكرِب[٦]، وإنما سُمِّيَ تُبَّعاً لأنه تَبع مَن قبله. وقال سعيد بن جُبَير: هو الذي كسا البيت الحِبَرات[٧]. وقال كعب: ذمَّ الله قومه ولم يذمَّه، وضرب بهم لقريش مثلاً لقربهم من دارهم وعِظمهم في نفوسهم، فلمَّا أهلكهم الله تعالى ومَن قبلهم ـ لأنهم كانوا مجرمين ـ كان مَن أجرمَ مع ضعف اليد وقلَّةِ العدد أحرى بالهلاك[٨]. وافتخر أهل اليمن بهذه الآية، إذ جعل الله قوم تُبَّع خيراً من قريش.

وقيل: سُمِّيَ أوّلُهم تُبَّعاً لأنه اتبع قرن الشمس، وسافر في الشرق[٩] مع العساكر.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡۚ﴾ «الَّذين» في موضع رفع عطفٌ على «قَوْمُ تُبَّعٍ»[١٠]. «أَهْلَكْنَاهُمْ» صلته. ويكون «مِنْ قَبْلِهِمْ» متعلِّقاً به.

(١) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٠، وابن شاهين في ناسخ الحديث ومنسوخه (٦٦٣).

(٢) في (د) و(م): بالجنود.

(٣) في النكت والعيون ٥/ ٢٥٥، وأخرجه الطبري ٢١/ ٤٩، والحاكم في المستدرك ٢/ ٤٥٠.

(٤) في (د) و(م): بالجنود.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٥٢.

(٦) تفسير الرازي ٢٧/ ٢٤٩، ووقع في النسخ الخطية: ملكيكوب، وجاء في السيرة النبوية ١/ ٣٤: كُلِي كَرِب. وفي البداية والنهاية ٣/ ١٢٢: كُلْكيكرِب.

(٧) تفسير البغوي ٤/ ١٥٣، والحِبَرات جمع حِبَرة، وهي ضرب من برود اليمن. القاموس (حبر).

(٨) النكت والعيون ٥/ ٢٥٦، وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٢٠٨، والطبري ٢١/ ٥٠ منه قوله: ذم الله قومه ولم يذمَّه.

(٩) في (د) و(ظ): المشرق.

(١٠) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٣٣.

ويجوز أن يكون «مِنْ قَبْلِهِمْ» صلةَ «الَّذين»، ويكونَ في الظرف عائدٌ إلى الموصول. وإذا كان كذلك؛ كان «أَهْلَكْنَاهُمْ» على أحد أمرين: إمَّا أن يقدَّر معه «قد»، فيكون في موضع الحال. أو يقدَّر حذف موصوف، كأنه قال: قومٌ أهلكناهم. والتقدير: أفلا تعتبرون أنَّا إذا قَدَرْنا على إهلاك هؤلاء المذكورين؛ قَدَرنا على إهلاك المشركين.

ويجوز أن يكون «وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» ابتداء، خبرُه: «أَهْلَكْنَاهُمْ».

ويجوز أن يكون «الَّذين» في موضع جَرٍّ عطفاً على «تُبَّعٍ» كأنه قال: قومُ تُبَّع المهلَكين من قبلهم.

ويجوز أن يكون «الَّذين» في موضع نصب بإضمار فعل دلَّ عليه «أَهْلَكْنَاهُمْ»[١]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ أي: غافلين؛ قاله مقاتل. وقيل: لاهين؛ وهو قول الكلبي[٢]. ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: إلا بالأمر الحقّ؛ قاله مقاتل. وقيل: إلا للحقّ؛ قاله الكلبي[٣] والحسن. وقيل: إلا لإقامة الحقّ وإظهارِه من توحيد الله والتزام طاعته[٤]. وقد مضى هذا المعنى في «الأنبياء»[٥]. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ يعني أكثرَ الناس ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾﴾

﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ هو يومُ القيامة، وسُمِّيَ بذلك لأن الله تعالى يَفْصِل فيه بين خلقه. دليلُه قولُه تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ٣].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) النكت والعيون ٥/٢٥٦.

(٣) النكت والعيون ٥/٢٥٦.

(٤) الوجيز بهامش مراح لبيد ٢/٢٨٤.

(٥) ١٤/١٨٤.

ونظيره قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم: ١٤]. فـ «يَوْم الفَصْل» ميقاتُ الكلِّ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾ [النبأ: ١٧] أي: الوقتُ المجعول لتمييز المُسيء من المحسن والفصلِ بينهما؛ فريق في الجنة وفريق في السعير. وهذا غايةٌ في التحذير والوعيد.

ولا خلاف بين القرَّاء في رفع «مِيقَاتُهُمْ» على أنه خبر «إنَّ»، واسمُها «يَوْمَ الفَصْلِ». وأجاز الكسائي والفرَّاء[١] نصبَ «مِيقَاتهم». بـ «إنَّ»، و«يوم الفصل» ظرفٌ في موضع خبر «إن»، أي: إن ميقاتَهم يومَ الفصل.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا﴾ «يَوْمَ» بدلٌ من «يوم» الأوّل[٢]. والمَوْلَى: الوَليُّ، وهو ابن العمِّ والناصر، أي: لا يدفع ابن عمٍّ عن ابن عمِّه، ولا قريبٌ عن قريبه، ولا صديقٌ عن صديقه. ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: لا ينصر المؤمنُ الكافرَ لقرابته. ونظيرُ هذه الآية: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة: ٤٨] الآية.

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ﴾ «مَنْ» رفع على البدل من المضمر في «يُنْصَرُونَ»[٣]، كأنك قلت: لا يقوم أحدٌ إلا فلان. أو على الابتداء، والخبرُ مضمر، كأنه قال: إلا مَن رحم الله فمغفورٌ له[٤]، أو: فيُغني عنه ويُشفَّع ويُنصَر. أو على البدل من «مَوْلًى» الأول، كأنه قال: لا يغني إلا مَن رحم الله[٥]. وهو عند الكسائي والفرَّاء[٦] نصب

(١) في معاني القرآن ٣/ ٤٢، ونقله المصنف بواسطة مكي في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٥٧.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٣٣.

(٣) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٥٧.

(٤) في (ظ): فإنه مغفور له.

(٥) ذكر هذا الوجه مكي في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٥٧.

(٦) في معاني القرآن ٣/ ٤٢.

على الاستثناء المنقطع[١]، أي: لكنْ مَن رحم الله لا ينالهم ما يحتاجون فيه إلى مَن يغنيهم من المخلوقين. ويجوز أن يكون استثناءً متصلاً، أي: لا يغني قريب عن قريب إلا المؤمنين، فإنه يُؤذَن لهم في شفاعة بعضهم لبعض.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: المنتقمُ من أعدائه، الرحيمُ بأوليائه، كما قال: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ [غافر: ٣]، فقرن الوعد بالوعيد.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ﴾ كلُّ ما في كتاب الله تعالى من ذكر الشجرة فالوقف عليه بالهاء، إلا حرفاً واحداً في سورة الدخان: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ . طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ . قاله ابن الأنباري[٢].

و﴿ٱلْأَثِيمِ﴾: الفاجر؛ قاله أبو الدرداء[٣]. وكذلك قرأ هو وابن مسعود. وقال همَّام بن الحارث: كان أبو الدرداء يُقرِئ رجلاً: «إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّوم طَعَامُ الْأَثِيم» والرجلُ يقول: طعام اليتيم، فلمَّا لم يفهم قال له: «طعام الفاجر»[٤]. قال أبو بكر الأنباريُّ: حدَّثني أبي قال: حدَّثنا نصر قال: حدَّثنا أبو عبيد قال: حدَّثنا نُعيم بن حماد، عن عبد العزيز بن محمد، عن ابن عجلان، عن عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود قال: عَلَّم عبد الله بن مسعود رجلاً: «إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْأَثِيم» فقال الرجل: طعام اليتيم، فأعاد عليه عبد الله الصواب، وأعاد الرجل الخطأ، فلمَّا رأى عبد الله أن لسان الرجل لا يستقيم على الصواب قال له: أَمَا تُحسِنُ أن تقول: طعام الفاجر؟ قال: بلى، قال: فافعل[٥]. ولا حجةَ في هذا للجُهَّال من أهل الزَّيغ أنه يجوز

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٣٤، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٥٧.

(٢) في إيضاح الوقف والابتداء ١/ ٢٨٧.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤١٢، والكشاف ٣/ ٥٠٦.

(٤) أخرجه عبد الرزاق (٥٩٨٦)، والطبري ٢١/ ٥٤ بنحوه.

(٥) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص ١٨٣ بنحوه.

إبدال الحرف من القرآن بغيره، لأن ذلك إنما كان من عبد الله تقريباً للمتعلِّم، وتوطئةً منه له للرجوع إلى الصواب، واستعمالِ الحقِّ والتكلُّم بالحرف على إنزال الله وحكايةِ رسول الله ﷺ.

وقال الزَّمَخْشريّ[١]: وبهذا يُستدل على أن إبدال كلمة مكان كلمة جائزٌ إذا كانت مؤدِّيةً معناها. ومنه أجاز أبو حنيفة القراءة بالفارسية على شريطة، وهي أن يؤدِّيَ القارئ المعانيَ على كمالها من غير أن يَخْرِم منها شيئاً. قالوا: وهذه الشريطة تشهد أنها إجازة كَلَا إجازة؛ لأن في كلام العرب ـ خصوصاً في القرآن الذي هو معجزٌ بفصاحته وغرابةِ نظمه وأساليبه ـ من لطائف المعاني والأغراض ما لا يستقلُّ بأدائه لسانٌ من فارسية وغيرها، وما كان أبو حنيفة رحمه الله يُحسِن الفارسية، فلم يكن ذلك منه عن تحقُّق وتبصُّر. وروى عليُّ بن الجعد، عن أبي يوسف، عن أبي حنيفة مثلَ قول صاحبيه في إنكار القراءة بالفارسية.

وشجرة الزَّقُّوم: الشجرة التي خلقها الله في جهنم، وسمَّاها الشجرةَ الملعونة، فإذا جاع أهل النار التجؤوا إليها فأكلوا منها، فغليت في بطونهم كما يغلي الماء الحارّ. وشُبِّه ما يصير منها إلى بطونهم بالمُهْل، وهو النُّحاس المذاب.

وقراءة العامة: «تَغْلي» بالتاء حملاً على الشجرة. وقرأ ابن كَثير وحفص وابن مُحَيْصِن ورُوَيْس عن يعقوب: «يغلي» بالياء حملاً على الطعام[٢]، وهو في معنى الشجرة. ولا يُحمل على المُهْل لأنه ذُكِر للتشبيه[٣]. و«الأثيم»: الآثم، مِن أَثِم يأثَم إثْمًا؛ قاله القشيريُّ وابن عيسى[٤]. وقيل: هو المشرك المكتسبُ للإثم؛ قاله يحيى بن سلام[٥]. وفي الصحاح: وقد أثِم الرجل ـ بالكسر ـ إثماً ومأثماً: إذا وقع في الإثم،

---

(١) في الكشاف ٣/ ٥٠٦.

(٢) السبعة ص ٥٩٢، والتيسير ص ١٩٨، والنشر ٢/ ٣٧١.

(٣) ينظر الحجة ٦/ ١٦٦، وزاد المسير ٧/ ٣٤٩.

(٤) نقله عن ابن عيسى الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٥٧.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٥٧.

فهو آثم وأثيمٌ وأثوم أيضاً[١]. فمعنى «طَعَامُ الْأَثِيمِ» أي: ذي الإثم الفاجر، وهو أبو جهل[٢]. وذلك أنه قال: يَعِدُنا محمدٌ أن في جهنم الزَّقوم، وإنما هو الثريد بالزُّبد والتمر، فبيَّن الله خلاف ما قاله. وحكى النقَّاش عن مجاهد أن شجرة الزَّقُّوم أبو جهل[٣].

قلت: وهذا لا يصحُّ عن مجاهد. وهو مردودٌ بما ذكرناه في هذه الشجرة في سورة «والصافَّات وسبحان»[٤] أيضاً.

قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ﴾ أي: يقال للزَّبانية: خذوه، يعني الأثيم[٥]. ﴿فَٱعْتِلُوهُ﴾ أي: جُرُّوه وسُوقُوه. والعَتْل: أن تأخذ بتلابيب الرجل فتعتِلَه، أي: تجرّه إليك لِتَذهب به إلى حبس أو بليَّة[٦]. عَتَلت الرجل أعتِله وأعتُله عَتْلًا: إذا جذبتَه[٧] جَذْباً عنيفاً. ورجل مِعْتَل ـ بالكسر ـ. وقال يصف فرساً:

نَفْرَعُه فَرْعًا ولسنا نَعْتِلُه[٨]

وفيه لغتان، عَتَلَهُ وعَتَنَه، باللام والنون جميعاً. قاله ابن السِّكِّيت[٩]. وقرأ

---

(١) الصحاح (أثم).

(٢) الوسيط ٤/ ٩١ ، وتفسير البغوي ٤/ ١٥٤ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٥٧ .

(٤) ١٣/ ١١١ - ١١٢ ، و١٨/ ٤١ .

(٥) الوسيط ٤/ ٩٢ ، وتفسير البغوي ٤/ ١٥٥ .

(٦) تهذيب اللغة ٢/ ٢٧٠ .

(٧) بعدها في (د) و(ظ) : إليك .

(٨) أورده ابن قتيبة في المعاني الكبير ١/ ٧٧ ونسبة لأبي النجم ، وأبو علي القالي في أماليه ١/ ٥٧ دون نسبة .

(٩) الصحاح (عتل).

الكوفيون وأبو عمرو: «فَاعْتِلُوه» بالكسر. وضم الباقون[١]. ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾: وسط الجحيم[٢]. ﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾. قال مقاتل: يضرب مالك خازنُ النار ضربة على رأس أبي جهل بِمِقْمَع من حديد، فيتفتَّتُ رأسه عن دماغه، فيجري دماغه على جسده، ثم يصبُّ المَلكُ فيه ماء حميماً قد انتهى حرُّه، فيقعُ في بطنه، فيقول المَلَك: ذُقِ العذاب[٣]. ونظيره: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ [الحج: ١٩].

قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ۝٤٩ إِنَّ هَـٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ۝٥٠﴾

قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ قال ابن الأنباريّ[٤]: اجتمعت[٥] العوامُّ على كسر «إنّ». وروي عن الحسن بن[٦] عليٍّ رحمه الله: «ذُق أَنَّكَ» بفتح «أنَّ»، وبها قرأ الكسائيُّ[٧]. فمن كسر «إنَّ» وقف على «ذُقْ». ومَن فتحها لم يقف على «ذُقْ»؛ لأن المعنى: ذق لأنك وبأنك أنت العزيز الكريم.

قال قتادة: نزلت في أبي جهل وكان قد قال: ما فيها أعزُّ منّي ولا أكرم، فلذلك قيل له: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾[٨]. وقال عكرمة: التقى النبيُّ ﷺ وأبو جهل، فقال النبيُّ ﷺ: «إن الله أمرني أن أقول لك: أَوْلَى لك فأولى» فقال: بأيِّ شيء

(١) السبعة ص ٥٩٣، والتيسير ص ١٩٨.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٥٧.

(٣) زاد المسير ٧/ ٣٥٠، وأورده مختصراً الواحدي في الوسيط ٤/ ٩٢، والبغوي في تفسيره ٤/ ١٥٥.

(٤) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٨٩.

(٥) في (ز) و (ق): أجمعت.

(٦) في النسخ: عن، والمثبت من إيضاح الوقف والابتداء، ومعاني القرآن للنحاس ٦/ ٤١٤، والكشاف ٣/ ٥٠٧، والمحرر الوجيز ٨/ ٤٠.

(٧) السبعة ص ٥٩٣، والتيسير ص ١٩٨.

(٨) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٢٠٩، والطبري ٢١/ ٦١ بنحوه.

تهدِّدني! والله ما تستطيع أنت ولا ربُّك أن تفعلا بي شيئًا، إني لَمِن أعزِّ هذا الوادي وأكرمِه على قومه. فقتله الله يوم بدر وأذلَّه، ونزلت هذه الآية(١). أي يقول له الملَك: ذُق إنك أنت العزيز الكريم بزعمك. وقيل: هو على معنى الاستخفاف والتوبيخ والاستهزاء والإهانة والتنقيص، أي قال له: إنك أنت الذليل المهان. وهو كما قال قوم شُعيب لشعيب: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧] يعنُون السفيهَ الجاهلَ في أحد التأويلات على ما تقدَّم(٢). وهذا قول سعيد بن جبير(٣).

﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ﴾ أي تقول لهم الملائكة: إنَّ هذا ما كنتم تشكُّون فيه في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ ٥١ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ٥٢ يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ٥٣﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ﴾ لمَّا ذكر مستقرَّ الكافرين وعذابَهم، ذكر نُزُل المؤمنين ونعيمَهم. وقرأ نافع وابن عامر: «في مُقَامٍ» بضم الميم، الباقون بالفتح(٤). قال الكسائي: المُقام المكان، والمُقام الإقامة، كما قال:

عفَتِ الديارُ مَحلُّها فَمُقامُها(٥)

قال الجوهريُّ: وأمَّا المَقام والمُقام فقد يكون كلٌّ واحد منهما بمعنى الإقامة، وقد يكون بمعنى موضع القيام؛ لأنك إذا جعلته مِن قام يقوم؛ فمفتوح، وإن جعلته

(١) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص ٣٩٨ مختصراً. وأورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٣ بنحوه وعزاه للأموي.

(٢) ١١/ ١٩٤.

(٣) أورده بنحوه الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٥٨، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣٥٠.

(٤) السبعة ص ٥٩٣، والتيسير ص ١٩٨.

(٥) صدر بيت للبيد، وهو في ديوانه ص ٢٩٧، وعجزه: بمنًى تأبَّد غولُها فرجامُها، والكلام في معاني القرآن للنحاس ١/ ٤١٥. وقوله: عفت، أي: دَرَسَت. والمحلُّ والمُقام، قال شارح الديوان: هما مكان الحلول ومكان الإقامة.

من أقام يقيم؛ فمضموم، لأن الفعل إذا جاوز الثلاثة فالموضع مضموم الميم، لأنه مشبَّه ببنات الأربعة، نحو: دحرج وهذا مُدَحْرجُنا[١]. وقيل: المَقام؛ بالفتح: المشهد والمجلس، وبالضم يمكن أن يراد به المكان، ويمكن أن يكون مصدراً ويقدَّر فيه المضاف، أي: في موضع إقامة[٢].

﴿أَمِينٍ﴾: يُؤمَن[٣] فيه من الآفات ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ بدل من «مَقَامٍ أَمِينٍ». ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ لا يرى بعضهم قفا بعض، متواجهين يدور بهم مجلسهم حيث داروا. والسُّنْدُس: ما رَقَّ من الدِّيباج. والإستبرق: ما غَلُظَ منه. وقد مضى في «الكهف»[٤].

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: الأمرُ كذلك الذي ذكرناه[٥]. فيوقف على «كَذَلِكَ». وقيل: أي: كما أدخلناهم الجنة وفعلنا بهم ما تقدَّم ذكره، كذلك أكرمناهم بأن زوَّجناهم حُوراً عِيناً. وقد مضى الكلام في العِين في «والصَّافَّاتِ»[٦]. والحُوْر: البِيض؛ في قول قتادَة والعامةِ، جمعُ حَوْراء. والحَوْراء: البيضاء التي يُرى ساقها من وراء ثيابها، ويَرى الناظر وجهه في كعبها، كالمِرآة من رِقَّة[٧] الجلد وبضاضة البشرة وصفاء اللون. ودليلُ هذا التأويل أنها في حرف ابن مسعود: «بِعِيس عِين»[٨]. وذكر أبو بكر الأنباريُّ: أخبرنا أحمد بن الحسين قال: حدَّثنا حسين قال: حدَّثنا عمار بن

(١) الصحاح (قوم).
(٢) ينظر مجمع البيان ٢٥/١١٩.
(٣) في (د) و(ظ): يأمن.
(٤) ١٣/٢٦٦ - ٢٦٧.
(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/١٣٧، ومشكل إعراب القرآن ٢/٦٥٨.
(٦) ١٨/٣٤.
(٧) في (م): دقة.
(٨) القراءات الشاذة ص١٣٧، والمحتسب ٢/٢٦١.

محمد قال: صلَّيت خلف منصور بن المعتمر، فقرأ في «حم» الدُّخان: «بِعِيس عِين. لا يذوقون طعم الموتِ إلا الموتة الأولى». والعِيس: البِيض؛ ومنه قيل للإبل البِيض: عيس، واحدُها بعيرٌ أَعْيَس، وناقة عَيْساء. قال امرؤ القيس:

يَـرُعْـنَ إلـى صـوتـي إذا مـا سـمـعـنَـه   كما تَرْعَوي عِيطٌ إلى صوتِ أَعْيَسا[1]

فمعنى الحُوْر هنا: الحسان الثاقبات البياض بحسن.

وذكر ابن المبارك: أخبرنا معمر، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون الأودي، عن ابن مسعود قال: إن المرأة من الحُور العِين ليُرى مُخُّ ساقها من وراء اللَّحم والعظم، ومن تحت سبعين حُلَّةً، كما يُرى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء[2]. وقال مجاهد: إنما سمِّيت الحُور حوراً لأنهنَّ يَحارُ الطَّرْف في حسنهنَّ وبياضهنَّ وصفاء لونهنَّ[3].

وقيل: إنما قيل لهنَّ حُوْر لِحَوَر أعينهنَّ. والحَوَر: شدَّةُ بياض العين في شدَّة سوادها. [يقال]: امرأة حَوْراء بيِّنةُ الحَوَر. [و] يقال: احورَّت عينه احوراراً، واحورَّ الشيء: ابيضَّ. قال الأصمعي: ما أدري ما الحَوَر في العَيْن؟ وقال أبو عمرو: الحَوَر أن تسودَّ العين كلُّها مثل أعين الظِّباء والبقر. قال: وليس في بني آدم حَوَر، وإنما قيل للنساء: حُورُ العِين لأنهنَّ يشبَّهن بالظِّباء والبقر. وقال العجَّاج:

بــأعْـيــنٍ مُـحَـوَّراتٍ بِـيــض[4]

يعني الأعينَ النقيات البياض، الشديداتِ سواد الحَدَق[5]. والعِين جمعُ عَيْناء،

---

(١) ديوان امرئ القيس ص ١٠٦، والعِيط: خيار الإبل وأفتاؤها. القاموس (عيط).

(٢) الزهد لابن المبارك (٢٦٠ - زوائد نعيم بن حماد)، وأخرجه أيضاً عبد الرزاق (٢٠٨٦٧)، والطبراني في الكبير (٨٨٦٤).

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٦٥ بنحوه.

(٤) ديوان العجَّاج ص ٢٢٨، وفيه: حور، بدل: بيض، وقبله: إذ ترتمي من خَلَل الخُدُور.

(٥) الصحاح (حور) وما بين حاصرتين منه، وفيه: حور، بدل: بيض.

وهي الواسعةُ العظيمةُ العينين[١]. وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «مهور الحُور العِين قبضاتُ التمر وفِلَق الخبز»[٢]. وعن أبي قِرصافةَ: سمعت النبيَّ ﷺ يقول: «إخراج القُمَامة من المسجد مهورُ الحُور العِين»[٣]. وعن أنس أن النبيَّ ﷺ قال: «كنس المساجد مهورُ الحُور العِين»[٤] ذكره الثعلبي رحمه الله. وقد أفردنا لهذا المعنى باباً مفرداً في كتاب «التذكرة»[٥] والحمد لله.

واختلف أيُّما أفضلُ في الجنة؛ نساءُ الآدميات أم الحور؟ فذكر ابن المبارك قال: وأخبرنا رِشْدِين، عن ابن أنْعُم، عن حِبَّان بن أبي جَبَلة قال: إن نساء الآدميات مَن دخل منهنَّ الجنة، فُضِّلن على الحُور العِين بما عملن في الدنيا[٦]. ورُوِيَ مرفوعاً: «إن الآدميات أفضلُ من الحُور العِين بسبعين ألفَ ضعف»[٧]. وقيل: إن الحُور العِين

(١) الطبري ٢١/ ٦٦ ، والوسيط ٥/ ٩٣ ، وتفسير البغوي ٤/ ١٥٥ .

(٢) أخرجه ابن عدي في الكامل ٥/ ١٦٨٤ وفيه عمر بن صبح بن عمران التميمي، قال الذهبي في الميزان ٣/ ٢٠٦ - ٢٠٧ : ليس بثقة ولا مأمون . قال ابن حبان : كان يضع الحديث . وقال الدارقطني : متروك.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٥٢١) مطولاً . قال الهيثمي في المجمع ٢/ ٩ : في إسناده مجاهيل . اهـ . وأبو قرصافة اسمه جندرة بن خيشنة ، له صحبة ، سكن فلسطين ، وقيل : كان يسكن أرض تهامة . الاستيعاب بهامش الإصابة ١٢/ ٩٣ - ٩٤ .

(٤) أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات ٢/ ٤٢٥ وقال : هذا حديث لا يصح من جميع جهاته . وحديث أنس فيه مجاهيل ، وعبد الواحد ليس بثقة ، قاله يحيى . وقال البخاري والفلّاس والنسائي . متروك الحديث . اهـ . وسلف ١٥/ ٢٨٥ بلفظ : ... وإن كنس غبار المسجد نقد الحور العين .

(٥) ص ٤٧٨ - ٤٨٠ .

(٦) الزهد (٢٥٥ - زوائد نعيم بن حماد) ، ورشدين، وهو ابن سعد المَهْري المصري ، قال الذهبي في الميزان ٢/ ٤٩ : كان صالحاً عابداً سيِّئ الحفظ غير معتمد. وقال ابن معين : ليس بشيء . وقال أبو زرعة : ضعيف . وقال النسائي : متروك . اهـ وابن أنعُم وهو عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقي ضعيف، الميزان ٢/ ٥٦٢ .

(٧) أورده المصنف في كتابه التذكرة ص ٤٧٧ ، ولم نقف عليه .

أفضلُ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام في دعائه: «وأبدِله زوجاً خيراً من زوجه»[١]. والله أعلم.

وقرأ عكرمة: «بِحُورِ عِينٍ» مضاف[٢]. والإضافة والتنوين في «بحور عين» سواء.

قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾

قال قتادة: «آمنين» من الموت والوَصَب والشيطان[٣]. وقيل: آمنين من انقطاع ما هم فيه من النعيم، أو من أن ينالهم من أكلها أذًى أو مكروه[٤].

قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: لا يذوقون فيها الموت البتة لأنهم خالدون فيها[٥]. ثم قال: ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ على الاستثناء المنقطع[٦]، أي: لكنْ الموتةُ الأولى قد ذاقوها في الدنيا. وأنشد سيبويه:

مَن كان أسرع في تَفرُّق فالجٍ ... فَلَبونُه جَرِبت معًا وأغدَّتِ

ثم استثنى بما ليس من الأول فقال:

إلا كناشِرَةَ الذي ضيَّعْتُمُ ... كالغصنِ في غُلَوائه المتنبِّتِ[٧]

---

(١) هو قطعة من حديث أخرجه أحمد (٢٣٩٧٥)، ومسلم (٩٦٣) عن عوف بن مالك الأشجعي ﷺ.

(٢) المحتسب ٢/ ٢٦١.

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٦٧.

(٤) ينظر معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤١٧.

(٥) المصدر السابق.

(٦) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٥٨.

(٧) الكتاب لسيبويه ٢/ ٣٢٨ ونسبه لعنز بن دجاجة المازني، وكذا نسبه لعنز أبو عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٦١، والأعلم الشنتمري في تحصيل عين الذهب ص ٣٦٤. وسماه السيرافي في شرح أبيات سيبويه ٢/ ١٧١ - ١٧٢ عتر بن دجاجة؛ قال: ويروى لمعاوية بن كاسر، اهـ. ونسب البيت لغيره، ينظر الخزانة ٦/ ٣٦٢، والمقتضب ٤/ ٤١٦، وسر صناعة الإعراب ١/ ٣٠٢. قوله: أغدَّت؛ أي: أصابتها الغدّة.

وقيل: إن «إلَّا» بمعنى بَعْد، كقولك: ما كلَّمت رجلاً اليوم إلا رجلاً عندك، أي: بعد رجل عندك. وقيل: «إلَّا» بمعنى سوى، أي: سوى الموتةِ التي ماتوها في الدنيا، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾(١) [النساء:٢٢]. أي: سوى ما قد سلف(٢). وهو كما تقول: ما ذقت اليوم طعاماً سوى ما أكلت أمس.

وقال القتبيُّ: «إلَّا الْمَوْتَةَ الأُولَى» معناه أن المؤمن إذا أشرف على الموت استقبلته ملائكة الرحمة ويَلْقى الرَّوْح والرَّيحان، وكان موته في الجنة لاتصافه بأسبابها، فهو استثناء صحيح(٣). والموتُ عَرضٌ لا يذاق، ولكن جُعِل كالطعام الذي يُكره ذوقه، فاستُعير فيه لفظُ الذوق.

﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ . فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: فعل ذلك بهم تفضُّلًا منه عليهم.(٤) فـ «فَضْلًا» مصدر عمل فيه «يَدْعُونَ». وقيل: العامل فيه «وَوَقَاهُمْ»(٥). وقيل: فعل مضمر. وقيل: معنى الكلام الذي قبله، لأنه تفضُّلٌ منه عليهم، إذ وفَّقهم في الدنيا إلى أعمال يدخلون بها الجنة.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي: السعادةُ والربح العظيم والنجاة العظيمة. وقيل: هو من قولك: فاز بكذا، أي: ناله وظَفِر به.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ يعني القرآن، أي: سهَّلناه بلغتك عليك

---

(١) ذكر هذا القول الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٤٢٨، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣٥١ - ٣٥٢.
(٢) قوله: أي ما قد سلف، من (ظ) و(ق).
(٣) ينظر تأويل مشكل القرآن ص ٥٥ - ٥٦.
(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٥٦.
(٥) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٥٨.

وعلى مَن يقرؤه ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: يتَّعظون وينزجرون. ونظيرُه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧]. فختم السورة بالحثِّ على اتِّباع القرآن وإن لم يكن مذكوراً، كما قال في مفتتح السورة: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾، ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] على ما تقدَّم.

﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ أي: انتظر ما وعدتك من النصر عليهم، إنهم منتظرون لك الموت. حكاه النقاش[١].

وقيل: انتظر الفتح من ربك، إنهم منتظرون بزعمهم قهرَك[٢].

وقيل: انتظر أن يَحكُم الله بينك وبينهم، فإنهم ينتظرون بك رَيْب الحَدَثان. والمعنى متقارب.

وقيل ارتقب ما وعدتك من الثواب، فإنهم كالمنتظرين لِمَا وعدتهم من العقاب.

وقيل: ارتقب يوم القيامة فإنه يوم الفصل، وإن لم يعتقدوا وقوع القيامة، جُعِلوا كالمرتقِبين لأن عاقبتهم ذلك. والله تعالى أعلم.

---

(١) النكت والعيون ٥/٢٥٩.

(٢) الوجيز بهامش مراح لبيد ٢/٢٨٦.

تفسير سورة الدّخـان

وهى مكية.

قال الترمذى: حدثنا سفيان بن وَكيع، حدثنا زيد بن الحباب، عن عُمَر بن أبى خَثْعَم، عن يحيى بن أبى كثير، عن أبى سلمة[١]، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ (حم الدخان) فى ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك».

ثم قال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، و عمَر[٢] بن أبى خثعم يضعف. قال البخارى: منكر الحديث[٣].

ثم قال: حدثنا نصر بن عبد الرحمن الكوفى، حدثنا زيد بن الحباب، عن هشام أبى المقدام، عن الحسن[٤]، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ (حم الدخان) فى ليلة الجمعة، غفر له».

ثم قال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وهشام[٥] أبو المقدام يضعف، والحسن لم يسمع من أبى هريرة. كذا قال أيوب، ويونس بن عبيد، وعلى بن زيد[٦].

وفى مسند البزار من رواية أبى الطفيل عامر بن واثلة، عن زيد بن حارثة؛ أن رسول الله ﷺ قال لابن صيَّاد: «إنى قد خبأت خبأ فما هو؟» وخبأ له رسول الله ﷺ سورة الدخان، فقال: هو الدُّخ. فقال: «اخسأ ما شاء الله كان». ثم انصرف[٧].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤) أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٥) رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦) رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٧) لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٨)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن القرآن العظيم: إنه أنزله فى ليلة مباركة، وهى ليلة القدر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] وكان ذلك فى شهر رمضان، كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ

---

(١) فى ت: «روى الترمذى بإسناده».
(٢) فى ت: «الوجه، وفى إسناده عمر».
(٣) سنن الترمذى برقم (٢٨٨٨).
(٤) فى ت: «وروى الترمذى بإسناده».
(٥) فى ت: «الوجه، وفى إسناده هشام».
(٦) سنن الترمذى برقم (٢٨٨٩).
(٧) مسند البزار برقم (٣٣٩٩) «كشف الأستار» ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٥/ ٨٨) من طريق زياد بن الفرات عن أبى الطفيل به. قال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٤): «فيه زياد بن الحسن بن فرات، ضعفه أبو حاتم ووثقه ابن حبان».

رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة:١٨٥]، وقد ذكرنا الأحاديث [١] الواردة فى ذلك فى «سورة البقرة» بما أغنى عن إعادته.

ومن قال: إنها ليلة النصف من شعبان ـ كما روى عن عكرمة ـ فقد أبعد النُّجْعَة، فإن نص القرآن أنها فى رمضان. والحديث الذى رواه عبد الله بن صالح، عن الليث، عن عقيل، عن الزهرى: أخبرنى عثمان بن محمد بن المغيرة بن الأخنس أن رسول الله ﷺ قال: «تقطع الآجال من شعبان إلى شعبان، حتى إن الرجل لينكح ويولد له، وقد أخرج اسمه فى الموتى»[٢] فهو حديث مرسل، ومثله لا يعارض به النصوص.

وقوله: ﴿ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ أى: معلمين الناس ما ينفعهم ويضرهم شرعاً، لتقوم حجة الله على عباده.

وقوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ أى: فى ليلة القدر يفصل من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السنة، وما يكون فيها من الآجال والأرزاق، وما يكون فيها إلى آخرها. وهكذا روى عن ابن عمر، وأبى مالك، ومجاهد، والضحاك، وغير واحد من السلف.

وقوله: ﴿حَكِيمٍ﴾ أى: محكم، لا يبدل ولايغير؛ ولهذا قال: ﴿ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا ﴾ أى: جميع ما يكون ويقدره الله تعالى وما يوحيه [٣] فبأمره وإذنه وعلمه، ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أى: إلى الناس رسولاً يتلو عليهم آيات الله مبينات، فإن الحاجة كانت ماسة إليه؛ ولهذا قال: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أى: الذى أنزل هذا القرآن هو رب السموات والأرض وخالقهما ومالكهما وما فيهما، ﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أى: إن كنتم متحققين.

ثم قال: ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ ﴾، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ [فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ][٤]﴾ الآية[الأعراف:١٥٨].

﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ (٩) فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ (١٠) يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (١٢) أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ (١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ (١٤) إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ(١٥) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ (١٦) ﴾.

يقول تعالى: بل هؤلاء المشركون فى شك يلعبون، أى: قد جاءهم اليقين[٥]، وهم يشكون فيه ويمترون، ولا يصدقون به، ثم قال متوعدا لهم ومتهدداً: ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾.

قال سليمان بن مِهْرَان الأعمش، عن أبى الضُّحَى مسلم بن صُبَيْح[٦]، عن مسروق قال: دخلنا

(١) فى ت: «الآثار».
(٢) رواه الطبرى فى تفسيره (٢٥/ ٦٥) والبيهقى فى شعب الإيمان برقم (٣٨٣٩) من طريق الليث عن عقيل به.
(٣) فى أ: «يوجبه». (٤) زيادة من ت، أ. (٥) فى ت: «المبين». (٦) فى ت: «روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما».

المسجد ـ يعنى مسجد الكوفة ـ عند أبواب كندة، فإذا رجل يقص على أصحابه: ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾، تدرون ما ذلك الدخان؟ ذلك دخان يأتى يوم القيامة، فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم، ويأخذ المؤمنين منه شبه الزكام. قال: فأتينا ابن مسعود فذكرنا ذلك له، وكان مضطجعًا ففزع فقعد، وقال(١): إن الله عز وجل قال لنبيكم ﷺ: ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [ص:٨٦]، إن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم: «الله أعلم»، سأحدثكم عن ذلك، إن قريشا لما أبطأت عن الإسلام واستعصت(٢) على رسول الله ﷺ، دعا عليهم بسنين كسنى يوسف، فأصابهم من الجهد والجوع حتى أكلوا العظام والميتة، وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلا الدخان ـ وفى رواية: فجعل الرجل ينظر إلى السماء، فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد ـ [قال](٣) قال الله تعالى: ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ . يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فأتى رسول الله ﷺ فقيل: يارسول الله، استسق الله لمضر، فإنها قد هلكت. فاستسقى لهم فَسُقُوا، فأنزل الله: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ قال ابن مسعود: فيكشف العذاب عنهم يوم القيامة، فلما أصابهم الرفاهية عادوا إلى حالهم، فأنزل الله: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾، قال: يعنى يوم بدر.

قال ابن مسعود: فقد مضى خمسة: الدخان، والروم، والقمر، والبطشة، واللِّزام. وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين(٤). ورواه الإمام أحمد فى مسنده، وهو عند الترمذى والنسائى فى تفسيرهما(٥)، وعند ابن جرير وابن أبى حاتم من طرق متعددة، عن الأعمش، به(٦). وقد وافق ابن مسعود على تفسير الآية بهذا، وأن الدخان مضى، جماعة من السلف كمجاهد، وأبى العالية، وإبراهيم النخعى، والضحاك، وعطية العوفى، وهو اختيار ابن جرير.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا جعفر بن مسافر، حدثنا يحيى بن حسان، حدثنا ابن لَهيعة، حدثنا(٧) عبد الرحمن الأعرج فى قوله: ﴿ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ قال: كان يوم فتح مكة.

وهذا القول غريب جداً، بل منكر.

وقال آخرون: لم يمض الدخان بعد، بل هو من أمارات(٨) الساعة، كما تقدم من حديث أبى سَرِيحة(٩) حذيفة بن أسيد الغفارى، رضى الله عنه، قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ونحن نتذاكر الساعة، فقال: «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج عيسى ابن مريم، والدجال، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس ـ

---

(١) فى ت، م: «فقال». (٢) فى أ: «واستصعبت». (٣) زيادة من أ.

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٨٢٠) وصحيح مسلم برقم (٢٧٩٨).

(٥) فى م: «تفسيريهما».

(٦) المسند (١/ ٣٨٠، ٤٣١) وسنن الترمذى برقم (٣٢٥٤) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٤٨١) وتفسير الطبرى (٢٥/ ٦٦).

(٧) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بإسناده عن». (٨) فى ت: «آيات». (٩) فى ت: «أبى سريحة فى».

أو: تحشر الناس ـ: تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا». تفرد بإخراجه مسلم فى صحيحه[(١)].

وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لابن الصياد: «إنى خبأت لك خَبْأ»، قال: هو الدُّخ. فقال له: «اخسأ فلن تعدو قدرك». قال: وخبأ له رسول الله ﷺ: **﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾**[(٢)].

وهذا فيه إشعار بأنه من المنتظر المرتقب، وابن صياد كاشف على طريقة الكهان بلسان الجان، وهم يُقَرطمون العبارة؛ ولهذا قال: «هو الدُّخ»، يعنى: الدخان. فعندها عرف رسول الله ﷺ مادته وأنها شيطانية، فقاله له: «اخسأ فلن تعدو قدرك».

ثم قال ابن جرير: وحدثنى عصام بن رَوَّاد بن الجراح، حدثنا أبى، حدثنا سفيان بن سعيد الثورى، حدثنا منصور بن المعتمر، عن رِبْعِى بن حِرَاش قال: سمعت حذيفة بن اليمان يقول[(٣)]: قال رسول الله ﷺ: «إن أول الآيات الدجال، ونزول عيسى ابن مريم، ونار تخرج من قعر عدن أبين، تسوق الناس إلى المحشر، تقيل معهم إذا قالوا، والدخان ـ قال حذيفة: يا رسول الله، وما الدخان؟ فتلا رسول الله ﷺ هذه الآية: **﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ . يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** ـ يملأ ما بين المشرق والمغرب، يمكث أربعين يوماً وليلة، أما المؤمن فيصيبه منه كهيئة الزكمة[(٤)]، وأما الكافر فيكون بمنزلة السكران، يخرج من منخريه وأذنيه ودبره»[(٥)].

قال ابن جرير: لو صح هذا الحديث لكان فاصلاً، وإنما لم أشهد له بالصحة؛ لأن محمد بن خلف العسقلانى حدثنى أنه سأل روادا عن هذا الحديث: هل سمعه من سفيان؟ فقال له: لا. قال: فقلت: أقرأته عليه؟ قال: لا. قال: فقلت له: فقرئ عليه وأنت حاضر فأقر به؟ فقال: لا. فقلت له: فمن أين جئت به؟ فقال: جاءنى به قوم فعرضوه على، وقالوا لى: اسمعه منا. فقرؤوه علىّ ثم ذهبوا به، فحدثوا به عنى، أو كما قال[(٦)].

وقد أجاد ابن جرير فى هذا الحديث ههنا، فإنه موضوع بهذا السند، وقد أكثر ابن جرير من سياقه فى أماكن من هذا التفسير، وفيه منكرات كثيرة جداً، ولا سيما فى أول سورة «بنى إسرائيل» فى ذكر المسجد الأقصى، والله أعلم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثنا خليل، عن الحسن، عن أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «يهيج الدخان بالناس، فأما المؤمن فيأخذه كالزكمة، وأما الكافر فينفخه حتى يخرج من كل مسمع منه».

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٩٠١).

(٢) صحيح البخارى برقم (٣٠٥٥) وصحيح مسلم برقم (٢٩٣٠) من حديث عبد الله بن عمر، رضى الله عنهما.

(٣) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم عن حذيفة قال». (٤) فى ت، م: «الزكام».

(٥) تفسير الطبرى (٢٥/٦٨) ومن طريقه رواه الثعلبى فى تفسيره كما فى تخريج أحاديث الكشاف للزيلعى (١١٧٤) والبغوى فى معالم التنزيل (٧/ ٢٣٠).

(٦) تفسير الطبرى (٢٥/٦٨).

ورواه سعيد بن أبى عَرُوبة، عن قتادة، عن الحسن، عن أبى سعيد الخدرى موقوفاً. ورواه عوف، عن الحسن قوله.

وقال ابن جرير أيضًا: حدثنى محمد بن عوف، حدثنا محمد بن إسماعيل بن عياش، حدثنى أبى، حدثنى ضَمْضَم بن زُرعَة، عن شُريح بن عبيد، عن أبى مالك الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن ربكم أنذركم ثلاثا: الدخان يأخذ المؤمن كالزكمة، ويأخذ الكافر فينتفخ حتى يخرج من كل مسمع منه، والثانية الدابة، والثالثة الدجال».

ورواه الطبرانى عن هاشم بن يزيد، عن محمد بن إسماعيل بن عياش، به[1]. وهذا إسناد جيد.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عبد الله بن صالح بن مسلم، حدثنا إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن الحارث، عن على، رضى الله عنه، قال: لم تمض آية الدخان بعد، يأخذ المؤمن كهيئة الزكام، وتنفخ الكافر حتى ينفد.

وروى ابن جرير من حديث الوليد بن جميع، عن عبد الملك بن المغيرة، عن عبد الرحمن بن البيلمانى، عن ابن عمر قال: يخرج الدخان فيأخذ المؤمن كهيئة الزكام، ويدخل فى مسامع الكافر والمنافق حتى يكون كالرأس الحنيذ، أى: المشوى على الرَّضف.

ثم قال ابن جرير: حدثنى يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّة، عن ابن جريج[2]، عن عبد الله بن أبى مليكة قال: غدوت على ابن عباس، رضى الله عنهما، ذات يوم فقال: ما نمت الليلة حتى أصبحت. قلت: لم؟ قال: قالوا: طلع الكوكب ذو الذنب، فخشيت أن يكون الدخان قد طرق، فما نمت حتى أصبحت[3]. وهكذا رواه ابن أبى حاتم[4]، عن أبيه، عن ابن أبى عمر، عن سفيان، عن عبد الله بن أبى يزيد، عن عبد الله بن أبى مليكة، عن ابن عباس فذكره. وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن. وهكذا قول من وافقه من الصحابة والتابعين أجمعين، مع الأحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان وغيرهما، التى أوردناها مما فيه مقنع ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة، مع أنه ظاهر القرآن.

قال الله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ أى: بين واضح يراه كل أحد. وعلى ما فسر به ابن مسعود، رضى الله عنه: إنما هو خيال رأوه فى أعينهم من شدة الجوع والجهد. وهكذا قوله: ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾ أى: يتغشاهم ويعمهم[5]، ولو كان أمرا خيالياً يخص أهل مكة المشركين لما

---

(١) تفسير الطبرى (٢٥/٦٨) والمعجم الكبير (٣/٢٩٢) وقول الحافظ ابن كثير هنا: «هذا إسناد جيد» متعقب، فإن لهذه النسخة ثلاث علل:

الأولى: محمد بن إسماعيل بن عياش، قال أبو حاتم: «لم يسمع من أبيه شيئاً، حملوه على أن يحدث فحدث».

الثانية: ضَمضَم بن زرعة، ضعفه أبو حاتم ووثقه ابن معين، ومحمد بن إسماعيل بن عياش، قال أبو داود: «لم يكن بذاك».

الثالثة: شُريح بن عبيد، قد كلم فى سماعه من أبى مالك الأشعرى، قال أبو حاتم: «شريح بن عبيد، عن أبى مالك الأشعرى، مرسل».

(٢) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بإسناده».

(٣) تفسير الطبرى (٢٥/٦٨).

(٤) فى ت: «ورواه ابن جرير هكذا»، وفى أ: «وهكذا رواه ابن جرير».

(٥) فى أ: «ويغمهم».

قيل فيه: ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾.

وقوله: ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا . هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور: ١٣، ١٤]، أو يقول بعضهم لبعض ذلك.

وقوله: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ أي: يقول الكافرون إذا عاينوا عذاب الله وعقابه سائلين رفعه وكشفه عنهم، كقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧]. وكذا قوله: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤]، وهكذا قال هاهنا: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ . ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾.

يقول: كيف لهم بالتذكر، وقد أرسلنا إليهم رسولاً بين الرسالة والنذارة، ومع هذا تولوا عنه وما وافقوه، بل كذبوه وقالوا: معلم مجنون. وهذا كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ . يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٣، ٢٤]، وقوله[١] تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ . وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ . وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ . وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ [سبأ: ٥١ ـ ٥٤].

وقوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُو[٢] الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾، يحتمل معنيين:

أحدهما: أنه يقوله[٣] تعالى: ولو كشفنا عنكم العذاب ورجعناكم إلى الدار الدنيا، لعدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والتكذيب، كقوله: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٥]، وكقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

والثاني: أن يكون المراد: إنا مؤخرو العذاب عنكم قليلا بعد انعقاد أسبابه[٤] ووصوله إليكم، وأنتم مستمرون فيما أنتم فيه من الطغيان والضلال، ولا يلزم من الكشف عنهم أن يكون باشرهم، كقوله تعالى: ﴿إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨]، ولم يكن العذاب باشرهم واتصل بهم، بل كان قد انعقد سببه [ووصوله][٥] عليهم، ولا يلزم أيضًا أن يكونوا قد أقلعوا عن كفرهم ثم عادوا إليه، قال الله تعالى إخبارًا عن شعيب أنه قال لقومه حين قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ . قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ٨٨، ٨٩]، وشعيب [عليه السلام][٦] لم يكن قط على ملتهم وطريقتهم.

وقال قتادة: ﴿إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾: إلى عذاب الله.

---

(١) في ت، م: «وكقوله». (٢) في ت: «كاشف». (٣) في أ: «يقول».
(٤) في ت، م، أ: «سببه». (٥) زيادة من ت، أ. (٦) زيادة من ت، م، أ.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾: فسر ذلك ابن مسعود بيوم بدر. وهذا قول جماعة ممن وافق ابن مسعود على تفسيره الدخان بما تقدم، وروى أيضاً عن ابن عباس [وجماعة](١) من رواية العوفى، عنه. وعن أبى بن كعب وجماعة، وهو محتمل.

والظاهر أن ذلك يوم القيامة، وإن كان يوم بدر يوم بطشة أيضاً.

قال(٢) ابن جرير: حدثنى يعقوب، حدثنا ابن علية، حدثنا خالد الحذاء، عن عكرمة قال: قال ابن عباس: قال ابن مسعود: البطشة الكبرى: يوم بدر، وأنا أقول: هى يوم القيامة(٣).

وهذا إسناد صحيح عنه، وبه يقول الحسن البصرى، وعكرمة فى أصح الروايتين(٤)، عنه.

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٨) وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٩) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ (٢٠) وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ (٢١) فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ (٢٢) فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٢٣) وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ (٢٤) كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ (٢٩) وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (٣٠) مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ (٣١) وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٢) وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ (٣٣) ﴾.

يقول تعالى: ولقد اختبرنا قبل هؤلاء المشركين قوم فرعون، وهم قبط مصر، ﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ يعني: موسى كليمه، عليه السلام، ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾، كقوله: ﴿ فَأَرْسِلْ(٥) مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ [طه: ٤٧].

وقوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أى: مأمون على ما أبلغكموه.

وقوله: ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ أى: لا تستكبروا على اتباع آياته، والانقياد لحججه والإيمان ببراهينه(٦)، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

﴿إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ [مُّبِينٍ](٧)﴾ أى: بحجة ظاهرة واضحة، وهى ما أرسله الله به من الآيات البينات والأدلة القاطعة(٨).

---

(١) زيادة من ت. (٢) فى ت: «وروى».
(٣) تفسير الطبرى (٢٥/ ٧٠).
(٤) فى ت: «القولين». (٥) فى ت، م، أ: «وأن أرسل» وهو خطأ. (٦) فى أ: «بالوهيته».
(٧) زيادة من ت، م، أ. (٨) فى ت، م، أ: «القاطعات».

﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ قال ابن عباس، وأبو صالح: هو الرجم باللسان وهو الشتم.

وقال قتادة: [هو][1] الرجم بالحجارة.

أى[2]: أعوذ بالله الذى خلقنى وخلقكم [من][3] أن تصلوا إلىَّ بسوء من قول أو فعل.

﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ أى: فلا تتعرضوا[4] إلىَّ، ودعوا الأمر بينى وبينكم مسالمة إلى أن يقضى الله بيننا. فلما طال مقامه بين أظهرهم، وأقام حجج الله عليهم، كل ذلك وما زادهم ذلك إلا كفراً وعناداً، دعا ربه عليهم دعوة نفذت فيهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ .قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا﴾ [يونس: ٨٨، ٨٩]. وهكذا قال هاهنا: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾، فعند ذلك أمره الله تعالى أن يخرج ببنى إسرائيل من بين أظهرهم من غير أمر فرعون ومشاورته واستئذانه؛ ولهذا قال: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾، كما قال: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه: ٧٧].

وقوله هاهنا: ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ وذلك أن موسى، عليه السلام، لما جاوز هو وبنو إسرائيل البحر، أراد موسى أن يضربه بعصاه حتى يعود كما كان، ليصير حائلاً بينهم وبين فرعون، فلا يصل إليهم. فأمره الله[5] أن يتركه على حاله ساكناً، وبشره بأنهم جند مغرقون فيه[6]، وأنه لا يخاف دركاً ولا يخشى.

قال ابن عباس: ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾ كهيئته وامضه. وقال مجاهد﴿رَهْوًا﴾: طريقاً يبساً كهيئته، يقول: لا تأمره يرجع، اتركه حتى يرجع آخرهم. وكذا قال عكرمة، والربيع بن أنس، والضحاك، وقتادة، وابن زيد، وكعب الأحبار، وسماك بن حرب، وغير واحد[7].

ثم قال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ﴾ وهى البساتين ﴿وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ﴾ والمراد بها الأنهار والآبار، ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ وهى المساكن الكريمة الأنيقة والأماكن الحسنة.

وقال مجاهد، وسعيد بن جبير: ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾: المنابر.

وقال ابن لَهِيعة، عن وهب[8] بن عبد الله المعافرى، عن عبد الله بن عمرو قال: نيل مصر سيد الأنهار، سخر الله له كل نهر بين المشرق والمغرب، وذلله له، فإذا أراد الله أن يجرى نيل مصر أمر كل نهر أن يمده، فأمدته الأنهار بمائها، وفجر الله له الأرض عيوناً، فإذا انتهى جريه إلى ما أراد الله، أوحى الله إلى كل ماء أن يرجع إلى عنصره.

---

(١) زيادة من ت. (٢) فى أ: «إنى». (٣) زيادة من ت، م.
(٤) فى أ: «تعترضوا». (٥) فى م: «تعالى». (٦) فى ت: «أى فى البحر»، وفى أ: «أى فيه».
(٧) فى ت: «وغيرهما». (٨) فى م: «ولهب».

وقال فى قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا[١] مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ . وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾، قال: كانت الجنان بحافتى هذا النيل من أوله إلى آخره فى الشقين جميعاً، ما بين أسوان إلى رشيد، وكان له تسعة[٢] خلج: خليج الإسكندرية، وخليج دمياط، وخليج سردوس، وخليج منف، وخليج الفيوم، وخليج المنهى، متصلة لا ينقطع منها شىء عن شىء، وزروع ما بين الجبلين كله من أول مصر إلى آخر ما يبلغه الماء، وكانت جميع أرض مصر تروى من ستة عشر ذراعاً، لما قدروا ودبروا من قناطرها وجسورها وخلجها.

﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ أى: عيشة كانوا يتفكهون فيها فيأكلون ما شاؤوا ويلبسون ما أحبوا مع الأموال والجاهات والحكم فى البلاد، فسلبوا ذلك جميعه فى صبيحة واحدة، وفارقوا الدنيا وصاروا إلى جهنم وبئس المصير، واستولى على البلاد المصرية وتلك الحواصل الفرعونية والممالك القبطية بنو إسرائيل، كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩] وقال فى موضع آخر[٣]: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧]. وقال هاهنا: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ وهم بنو إسرائيل، كما تقدم.

وقوله: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ﴾ أى: لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد فى أبواب السماء فتبكى على فقدهم، ولا لهم فى الأرض بقاع عبدوا الله فيها فقدتهم؛ فلهذا استحقوا ألا ينظروا ولا يؤخروا لكفرهم وإجرامهم، وعتوهم وعنادهم.

قال الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده: حدثنا أحمد بن إسحاق البصرى، حدثنا مكى بن إبراهيم، حدثنا موسى بن عبيدة، حدثنى يزيد الرقاشى، حدثنى أنس بن مالك[٤]، عن النبى ﷺ قال: «ما من عبد إلا وله فى السماء بابان: باب يخرج منه رزقه، وباب يدخل منه[٥] عمله وكلامه، فإذا مات فقداه وبكيا عليه»، وتلا هذه الآية: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ﴾ وذُكر أنهم لم يكونوا عملوا[٦] على الأرض عملاً صالحا يبكى عليهم. ولم يصعد لهم إلى السماء من كلامهم ولا من عملهم كلام طيب، ولا عمل صالح فتفقدهم فتبكى عليهم[٧].

ورواه ابن أبى حاتم من حديث موسى بن عبيدة وهو الربذى.

وقال ابن جرير: حدثنى يحيى بن طلحة، حدثنا عيسى بن يونس، عن صفوان بن عمرو، عن شريح بن عبيد الحضرمى قال: قال رسول الله ﷺ[٨]: «إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً. ألا لا غربة على مؤمن، ما مات مؤمن فى غربة غابت عنه فيها بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض». ثم

(١) فى ت، م: «فأخرجناهم» وهو خطأ، ولعل الناسخ أراد الآية: ٥٧ من سورة الشعراء. (٢) فى ت، م: «تسع».
(٣) فى ت، م، أ: «الآية». (٤) فى ت: «وروى الحافظ أبو يعلى الموصلى بإسناده عن أنس بن مالك رضى الله عنه».
(٥) فى ت، أ: «فيه». (٦) فى ت، م: «يعملون».
(٧) مسند أبى يعلى (٧/ ١٦٠) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٣٢٥٥) من طريق موسى بن عبيدة به مختصراً، وقال الترمذى: «هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه، وموسى بن عبيدة ويزيد بن أبان الرقاشى يضعفان فى الحديث».
(٨) فى ت: «وروى ابن جرير أن رسول الله ﷺ قال».

قرأ رسول الله ﷺ: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ ثم قال: «إنهما لا يبكيان على الكافر»[١].

وقال[٢] ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن عصام، حدثنا أبو أحمد ـ يعنى الزبيرى ـ حدثنا العلاء ابن صالح، عن المنهال بن عمرو، عن عباد بن عبد الله قال: سأل رجل علياً، رضى الله عنه: هل تبكى السماء والأرض على أحد؟ فقال له: لقد سألتنى عن شىء ما سألنى عنه أحد قبلك، إنه ليس [من][٣] عبد إلا له مصلى فى الأرض، ومصعد عمله من السماء. وإن آل فرعون لم يكن لهم عمل صالح فى الأرض، ولا عمل يصعد فى السماء، ثم قرأ على، رضى الله عنه: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا طلق بن غَنَّام، عن زائدة، عن منصور، عن منهال، عن سعيد بن جبير قال: أتى ابنَ عباس رجلٌ فقال: يا أبا عباس، أرأيت قول الله: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾، فهل تبكى السماء والأرض على أحد؟ قال: نعم، إنه ليس أحد من الخلائق إلا وله باب فى السماء منه ينزل رزقه، وفيه يصعد عمله، فإذا مات المؤمن فأغلق بابه من السماء الذى كان يصعد فيه عمله وينزل منه رزقه بكى عليه، وإذا فقد مصلاه من الأرض التى كان يصلى فيها ويذكر الله فيها بكت عليه، وإن قوم فرعون لم تكن لهم فى الأرض آثار صالحة، ولم يكن يصعد إلى الله منهم خير، فلم تبك عليهم السماء والأرض[٤].

وروى العوفى، عن ابن عباس، نحو هذا.

وقال سفيان الثورى، عن أبى يحيى القَتَّات، عن مجاهد، عن[٥] ابن عباس [رضى الله عنهما][٦] قال: كان يقال: تبكى الأرض على المؤمن أربعين صباحاً. وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وغير واحد.

وقال مجاهد أيضاً: ما مات مؤمن إلا بكت عليه السماء والأرض أربعين صباحاً، قال: فقلت له: أتبكى الأرض؟ فقال: أتعجب؟ وما للأرض لا تبكى على عبد، كان يعمرها بالركوع والسجود؟ وما للسماء لا تبكى على عبد كان لتكبيره وتسبيحه فيها دوى كدوى النحل؟

وقال قتادة: كانوا أهون على الله من أن تبكى عليهم السماء والأرض.

وقال ابن حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا عبد السلام بن عاصم، حدثنا إسحاق بن إسماعيل، حدثنا المستورد بن سابق، عن عبيد المكتب، عن إبراهيم قال: ما بكت السماء منذ كانت الدنيا إلا على اثنين. قلت لعبيد: أليس السماء والأرض تبكى على المؤمن؟ قال: ذاك مقامه حيث يصعد عمله. قال: وتدرى ما بكاء السماء؟ قلت[٧]: لا. قال: تحمر وتصير وردة كالدهان، إن يحيى

---

(١) تفسير الطبرى (٢٥/ ٧٥) ورواه ابن أبى الدنيا فى ذكر الموت كما فى الدر المنثور (٧/ ٤١٢) وهو مرسل.
(٢) فى ت: «وروى». (٣) زيادة من ت، أ.
(٤) تفسير الطبرى (٢٥/ ٧٤).
(٥) فى ت: «وعن». (٦) زيادة من ت. (٧) فى أ: «قال».

ابن زكريا لما قتل احمرت السماء وقطرت دماً. وإن حسين بن على لما قتل احمرت السماء.

وحدثنا على بن الحسن، حدثنا أبو غسان محمد بن عمرو ـ زُنَيج ـ حدثنا جرير، عن يزيد بن أبى زياد قال: لما قتل حسين(١) بن على، رضى الله عنهما، احمرت آفاق السماء أربعة أشهر. قال يزيد: واحمرارها بكاؤها. وهكذا قال السدى الكبير.

وقال عطاء الخراسانى: بكاؤها: أن تحمر أطرافها.

وذكروا(٢) أيضًا فى مقتل الحسين أنه ما قلب حجر يومئذ إلا وجد تحته دم عَبِيط، وأنه كسفت الشمس، واحمر الأفق، وسقطت حجارة. وفى كل ذلك نظر، والظاهر أنه من سُخْف الشيعة وكذبهم، ليعظموا الأمر ـ ولا شك أنه عظيم ـ ولكن لم يقع هذا الذى اختلقوه وكذبوه، وقد وقع ما هو أعظم من [ذلك] (٣) ـ قتل الحسين، رضى الله عنه ـ ولم يقع شىء مما ذكروه، فإنه قد قتل أبوه على بن أبى طالب، وهو أفضل منه بالإجماع ولم يقع(٤) [شىء من](٥) ذلك، وعثمان بن عفان قتل محصوراً مظلوماً، ولم يكن شىء من ذلك. وعمر بن الخطاب، رضى الله عنه، قتل فى المحراب فى صلاة الصبح، وكأن المسلمين لم تطرقهم مصيبة قبل ذلك، ولم يكن شىء من ذلك. وهذا رسول الله ﷺ وهو سيد البشر فى الدنيا والآخرة يوم مات لم يكن شىء مما ذكروه. ويوم مات إبراهيم ابن النبى ﷺ خسفت الشمس، فقال الناس: [الشمس](٦) خسفت لموت إبراهيم، فصلى بهم رسول الله ﷺ صلاة الكسوف، وخطبهم وبين لهم أن الشمس والقمر لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته(٧).

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ . مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ﴾: يمتن عليهم تعالى بذلك، حيث أنقذهم مما كانوا فيه من إهانة فرعون وإذلاله لهم، وتسخيره إياهم فى(٨) الأعمال المهينة الشاقة.

وقوله: ﴿مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا [مِّنَ الْمُسْرِفِينَ](٩)﴾ أى: مستكبراً جباراً عنيداً، كقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ [وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا](١٠)﴾ [القصص: ٤].

وقوله: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴾ [المؤمنون: ٤٦]، [وقوله: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِى الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴾] (١١) [العنكبوت: ٣٩]، [فكان فرعون](١٢) سرِفاً (١٣) فى أمره، سخيف الرأى على نفسه.

وقوله: ﴿ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ ـ قال مجاهد: ﴿ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾: على من هم بين ظهريه. وقال قتادة: اختيروا على أهل زمانهم ذلك. وكان يقال: إن

(١) فى ت، م: «الحسين». (٢) فى ت: «وذكر».
(٣) زيادة من أ. (٤) فى ت، أ: «يكن». (٥) زيادة من ت، أ.
(٦) زيادة من ت، وفى أ: «انخسفت الشمس».
(٧) رواه البخارى فى صحيحه برقم (١٠٤٣) ومسلم فى صحيحه برقم (٩١٥).
(٨) فى أ: «من». (٩، ١٠) زيادة من أ.
(١١) زيادة من أ. (١٢) زيادة من ت، أ. (١٣) فى ت، أ: «مسرفا».

لكل زمان عالما. وهذه(١) كقوله تعالى: ﴿ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ ﴾ [الأعراف: ١٤٤] أى: أهل زمانه، وكقوله لمريم: ﴿ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٢] أى: فى زمانها؛ فإن خديجة أفضل منها، وكذا آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، أو مساوية لها فى الفضل، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام.

وقوله: ﴿ وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الآيَاتِ ﴾ أى: [من](٢) الحجج والبراهين وخوارق العادات ﴿ مَا فِيهِ بَلاءٌ مُّبِينٌ ﴾ أى: اختبار ظاهر جلى لمن اهتدى به.

﴿ إِنَّ هَؤُلاءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ (٣٥) فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٦) أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٣٧) ﴾.

يقول تعالى منكرًا على المشركين فى إنكارهم البعث والمعاد، وأنه ما ثم إلا هذه الحياة الدنيا، ولا حياة بعد الممات، ولا بعث ولا نشور. ويحتجون بآبائهم الماضين الذين ذهبوا فلم يرجعوا، فإن كان البعث حقاً ﴿ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾. وهذه حجة باطلة وشبهة فاسدة، فإن المعاد إنما هو يوم القيامة لا فى هذه الدار، [بل](٣) بعد انقضائها وذهابها وفراغها يعيد الله العالمين خلقاً جديداً، ويجعل الظالمين لنار جهنم وقوداً، يوم تكون(٤) شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً.

ثم قال تعالى متهدداً لهم، ومتوعداً ومنذراً لهم بأسه الذى لا يرد، كما حل بأشباههم(٥) ونظرائهم من المشركين والمنكرين للبعث وكقوم تبع ـ وهم سبأ ـ حيث أهلكهم الله وخرَّب بلادهم، وشردهم فى البلاد، وفرقهم شذر مذر، كما تقدم ذلك فى سورة سبأ، وهى مُصَدَّرة بإنكار المشركين للمعاد. وكذلك هاهنا شبههم بأولئك، وقد كانوا عرباً من قحطان كما أن هؤلاء عرب من عدنان، وقد كانت حمير ـ وهم سبأ ـ كلما ملك فيهم رجل سموه تُبَّعاً، كما يقال: كسرى لمن ملك الفرس، وقيصر لمن ملك الروم، وفرعون لمن ملك مصر كافراً، والنجاشى لمن ملك الحبشة، وغير ذلك من أعلام الأجناس. ولكن اتفق أن بعض تبابعتهم خرج من اليمن وسار فى البلاد حتى وصل إلى سمرقند، واشتد(٦) ملكه وعظم سلطانه وجيشه، واتسعت مملكته وبلاده، وكثرت رعاياه وهو الذى مَصَّر الحيرة فاتفق أنه مَرَّ بالمدينة النبوية وذلك فى أيام الجاهلية، فأراد قتال أهلها فمانعوه وقاتلوه بالنهار، وجعلوا يَقْرونه بالليل، فاستحيا منهم وكف عنهم، واستصحب معه حبرين من أحبار يهود كانا قد نصحاه وأخبراه أنه لا سبيل له على هذه البلدة؛ فإنها مُهَاجَرُ نبى يكون فى آخر الزمان، فرجع عنها وأخذهما معه إلى بلاد اليمن، فلما اجتاز بمكة أراد هدم الكعبة فنهياه [عن ذلك](٧) أيضاً، وأخبراه بعظمة هذا البيت، وأنه من بناية إبراهيم الخليل وأنه سيكون له شأن عظيم على يدى

---

(١) فى م: «وهذا».
(٢) زيادة من ت.
(٣) زيادة من ت، أ.
(٤) فى ت: «تكونوا»، وفى م: «تكونون».
(٥) فى ت: «بأشياعهم».
(٦) فى أ: «واستمد».
(٧) زيادة من أ.

ذلك النبى المبعوث فى آخر الزمان، فعظمها وطاف بها[١]، وكساها الملاء والوصائل والحبير. ثم كر راجعاً إلى اليمن ودعا أهلها إلى التهود معه، وكان إذ ذاك دين موسى، عليه السلام، فيه من يكون على الهداية قبل بعثة المسيح، عليه السلام، فتهود معه عامة أهل اليمن. وقد ذكر القصة بطولها الإمام محمد بن إسحاق فى كتابه السيرة[٢]. وقد ترجمه الحافظ ابن عساكر فى تاريخه ترجمة حافلة، أورد فيها أشياء كثيرة مما ذكرنا وما لم نذكر[٣]. وذكر أنه ملك دمشق، وأنه كان إذا استعرض الخيل صُفَّت له من دمشق إلى اليمن، ثم ساق من طريق عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن ابن أبى ذئب[٤]، عن المقبرى، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «ما أدرى الحدود طهارة لأهلها أم لا؟ ولا أدرى تبع لعيناً[٥] كان أم لا؟ ولا أدرى ذو القرنين نبياً كان أم ملكا؟» وقال غيره: «أعزيراً كان نبياً أم لا». وكذا رواه ابن أبى حاتم، عن محمد بن حماد الظهرانى[٦]، عن عبد الرزاق[٧].

قال الدارقطنى: تفرد به عبد الرزاق[٨]، ثم روى ابن عساكر من طريق محمد بن كُرَيْب، عن أبيه، عن ابن عباس، رضى الله عنهما، مرفوعا: «عُزيرُ لا أدرى أنبياً كان أم لا؟ ولا أدرى ألعين تُبَّع أم لا؟»[٩].

ثم أورد ما جاء فى النهى عن سبه ولعنته، كما سيأتى. وكأنه ـ والله أعلم ـ كان كافراً ثم أسلم، وتابع دين الكليم[١٠] على يدى من كان من أحبار اليهود فى ذلك الزمان على الحق قبل بعثة المسيح، عليه السلام، وحج البيت فى زمن الجُرهُميين، وكساه الملاء والوصائل من الحرير والحبر ونحر عنده ستة آلاف بدنة وعظمه وأكرمه. ثم عاد إلى اليمن. وقد ساق قصته بطولها الحافظ ابن عساكر، من طرق متعددة مطولة[١١] مبسوطة، عن أبى بن كعب، وعبد الله بن سلام، وعبد الله بن عباس وكعب الأحبار. وإليه المرجع فى ذلك كله، وإلى عبد الله بن سلام أيضاً، وهو أثبت وأكبر وأعلم. وكذا روى قصته وهب بن مُنَبِّه، ومحمد بن إسحاق فى السيرة كما هو مشهور فيها. وقد اختلط على الحافظ ابن عساكر فى بعض السياقات ترجمة تُبَّع هذا بترجمة آخر متأخر عنه بدهر طويل، فإن تُبَّعاً هذا المشار إليه فى القرآن أسلم قومه على يديه، ثم لما مات[١٢] عادوا بعده إلى عبادة الأصنام والنيران، فعاقبهم الله تعالى كما ذكره فى سورة سبأ، وقد بسطنا قصتهم هنالك، ولله الحمد والمنة.

وقال سعيد بن جبير: كسا تبع الكعبة، وكان سعيد ينهى عن سبه.

---

(١) فى ت: «فعظم الكعبة فطاف بها».

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ١٩).

(٣) تاريخ دمشق (٣/ ٥٠٠ «القسم المخطوط»).

(٤) فى ت، أ: «ذؤيب». (٥) فى ت: «أمينا».

(٦) فى م: «الطبرانى».

(٧) ورواه الحاكم فى المستدرك (١/ ٣٦) من طريق عبد الرزاق به، ورواه أبو داود فى سننه برقم (٤٦٧٤) من طريق عبد الرزاق به إلا أنه قال: «عزيز» بدل: «ذو القرنين».

(٨) قال الحافظ ابن عبد البر فى جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٥٠): «وحديث عبادة بن الصامت: «إن الحدود كفارة لأهلها» أصح وأثبت سندا» ثم ساقه من طريق البخارى بسنده إلى عبادة بن الصامت.

(٩) تاريخ دمشق (٣/ ٥٠١ «القسم المخطوط»).

(١٠) فى ت، م، أ: «الخليل». (١١) فى م: «طويلة». (١٢) فى ت، م، أ: «توفى».

وتُبَّع هذا هو تُبَّع الأوسط، واسمه أسعد أبو[(١)] كُرَيْب بن مَلْكيكرب[(٢)] اليمانى، ذكروا أنه ملك على قومه ثلاثمائة سنة وستاً[(٣)] وعشرين سنة، ولم يكن فى حمير أطول مدة منه، وتوفى قبل مبعث رسول الله ﷺ بنحو من سبعمائة عام. وذكروا أنه لما ذكر له الحبران من يهود المدينة أن هذه البلدة مُهَاجَرُ نبى آخر فى الزمان[(٤)]، اسمه أحمد، قال فى ذلك شعرا واستودعه عند أهل المدينة. وكانوا يتوارثونه ويروونه خلفاً عن سلف. وكان ممن يحفظه أبو أيوب خالد بن زيد الذى نزل رسول الله ﷺ فى داره، وهو:

شَهِدْتُ عَلَى أَحْمَدَ أَنَّه ... رَسُولٌ مِنَ اللهِ بَارى النَّسَمْ
فَلَو مُدَّ عُمْرى إلى عُمْرِه ... لَكُنْت وَزيرا له وابن عَمْ
وَجَاهَدْتُ بالسَّيفِ أعْدَاءَهُ ... وفَرَّجتُ عَنْ صَدْرِه كُلَّ غَمْ

وذكر ابن أبى الدنيا أنه حُفِر قبر بصنعاء فى الإسلام، فوجدوا فيه امرأتين صحيحتين، وعند رؤوسهما لوح من فضة مكتوب فيه بالذهب: «هذا قبر حبى ولميس ـ وروى: حبى وتماضر ـ ابنتى تُبَّع، ماتتا وهما تشهدان أن لا إله إلا الله ولا تشركان به شيئاً، وعلى ذلك مات الصالحون قبلهما.

وقد ذكرنا فى «سورة سبأ» شعر سبأ فى ذلك أيضاً.

قال قتادة: ذكر لنا أن كعبًا كان يقول فى تبع: نُعت نَعْت الرجل الصالح، ذم الله تعالى قومه ولم يذمه، قال: وكانت عائشة تقول: لا تسبوا تُبَّعاً؛ فإنه قد كان رجلا صالحاً.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثنا عبد الله بن لَهِيعَة، عن أبى زُرْعَة ـ يعنى عمرو بن جابر الحضرمى ـ قال: سمعت سهل بن سعد الساعدى يقول: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا تُبَّعاً؛ فإنه قد كان أسلم».

ورواه الإمام أحمد فى مسنده عن حسن بن موسى، عن ابن لَهِيعة، به[(٥)].

وقال الطبرانى: حدثنا أحمد بن على الأبار، حدثنا أحمد بن محمد بن أبى بَزَّة، حدثنا مؤمل ابن إسماعيل، حدثنا سفيان، عن سِمَاك بن حرب، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس، عن النبى ﷺ قال: «لا تسبوا تبعا؛ فإنه قد أسلم»[(٦)].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن ابن أبى ذئب، عن المَقْبُرى، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أدرى، تُبَّع نبياً كان أم غير نبى»[(٧)].

---

(١) فى ت: «بن». (٢) فى م: «مليكرب». (٣) فى ت، م، أ: «وستة».
(٤) فى ت، م، أ: «نبى فى آخر الزمان».
(٥) المسند (٥/ ٣٤٠) قال الحافظ ابن حجر فى تخريج الكشاف: «فيه ابن لهيعة، وعمرو بن جابر، وهما ضعيفان».
(٦) المعجم الكبير (١١/ ٢٩٦) وقال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٧٦): « فيه أحمد بن أبى بزة المكى، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات».
(٧) ورواه الثعلبى فى تفسيره كما فى تخريج الكشاف للزيلعى (٣/ ٢٧٠) من طريق عبد الرزاق بهذا اللفظ.

وتقدم بهذا السند من رواية ابن أبى حاتم كما أورده ابن عساكر: «لا أدرى، تُبَّع كان لعيناً[(١)] أم لا؟». **فالله أعلم**.

ورواه ابن عساكر من طريق زكريا بن يحيى البدى[(٢)]، عن عكرمة، عن ابن عباس موقوفاً.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا عمران أبو الهذيل، أخبرنى تميم بن عبد الرحمن قال: قال عطاء بن أبى رباح: لا تسبوا تُبَّعاً؛ فإن رسول الله ﷺ نهى[(٣)] عن سبه[(٤)].

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٩) إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٠) يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤١) إِلاَّ مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٤٢)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن عدله وتنزيهه نفسه عن اللعب والعبث والباطل، كقوله: **﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾** [ص: ٢٧]، وقال: **﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ . فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾** [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

ثم قال: **﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾** وهو يوم القيامة، يفصل الله فيه بين الخلائق، فيعذب الكافرين ويثيب المؤمنين.

وقوله: **﴿مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾** أى: يجمعهم كلهم أولهم وآخرهم، **﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا﴾** أى: لا ينفع قريب قريباً، كقوله: **﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾** [المؤمنون: ١٠١]، وكقوله: **﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا . يُبَصَّرُونَهُمْ﴾** [المعارج: ١٠، ١١] أى: لا يسأل أخاً له عن حاله وهو يراه عياناً.

وقوله: **﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾** أى: لا ينصر القريب قريبه، ولا يأتيه نصره من خارج.

ثم قال: **﴿إِلاَّ مَن رَّحِمَ اللَّهُ﴾** أى: لا ينفع يومئذ إلا من رحمه الله، عز وجل، لخلقه[(٥)] **﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾** أى: هو عزيز ذو رحمة واسعة.

﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الْأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (٤٦) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٤٧) ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ (٤٨) ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ (٥٠)﴾.

يقول تعالى مخبراً عما يعذب به [عباده][(٦)] الكافرين الجاحدين للقائه: **﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ .**

---

(١) فى أ: «نبيا». (٢) فى أ: «المدنى». (٣) فى ت، أ: «قد نهى».
(٤) تفسير عبد الرزاق (٢/ ١٧١).
(٥) فى أ: «إلا رحمة الله بخلقه». (٦) زيادة من ت، أ.

طَعَامُ الأَثِيمِ﴾ والأثيم: أى فى قوله وفعله، وهو الكافر. وذكر غير واحد أنه أبو جهل، ولا شك فى دخوله فى هذه الآية، ولكن ليست خاصة به.

قال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم[١]، عن همام بن الحارث؛ أن أبا الدرداء كان يقرئ رجلاً: **﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ . طَعَامُ الأَثِيمِ﴾**، فقال: طعام اليتيم. فقال أبو الدرداء قل: إن شجرة الزقوم طعام الفاجر. أى: ليس له طعام غيرها.

قال مجاهد: ولو وقعت منها قطرة فى[٢] الأرض لأفسدت على أهل الأرض معايشهم. وقد تقدم نحوه مرفوعاً.

وقوله: **﴿ كَالْمُهْلِ ﴾** قالوا: كعكر الزيت **﴿ تَغْلِي[٣] فِي الْبُطُونِ . كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾** أى: من حرارتها ورداءتها. وقوله: **﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ﴾** أى: [خذوا][٤] الكافر، وقد ورد أنه تعالى إذا قال للزبانية: **﴿خُذُوهُ ﴾** ابتدره سبعون ألفاً منهم.

﴿فَاعْتِلُوهُ﴾ أى: سوقوه سحبا ودفعا فى ظهره.

قال مجاهد: **﴿ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ﴾** أى: خذوه فادفعوه.

وقال الفرزدق:

لَيسَ الكِرَامُ بِنَاحِلِيكَ أَبَاهُمُ ... حَتىَّ تُرَدَّ إلى عَطِيَّة تُعْتَلُ[٥] [٦]

﴿ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ أى: وسطها، **﴿ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾**، كقوله: **﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ . يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴾** [الحج: ١٩، ٢٠].

وقد تقدم أن الملك يضربه بمقمعة من حديد، تفتح[٧] دماغه، ثم يصب الحميم على رأسه فينزل فى بدنه، فيسلت ما فى بطنه من أمعائه، حتى تمرق[٨] من كعبيه ـ أعاذنا الله تعالى من ذلك.

وقوله: **﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾** أى: قولوا له ذلك على وجه التهكم والتوبيخ.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: أى لست بعزيز ولا كريم.

وقد قال[٩] الأموى فى مغازيه: حدثنا أسباط، حدثنا أبو بكر الهذلى، عن عكرمة قال: لقى رسول الله ﷺ أبا جهل ـ لعنه الله ـ فقال: «إن الله تعالى أمرنى أن أقول لك: **﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ . ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴾**» [القيامة: ٣٤، ٣٥] قال: فنزع ثوبه من يده[١٠] وقال: ما تستطيع لى أنت ولا صاحبك من شىء. ولقد علمت أنى أمنع[١١] أهل البطحاء، وأنا العزيز الكريم. قال: فقتله الله تعالى يوم بدر وأذله وعيره بكلمته، وأنزل: **﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾**[١٢].

وقوله: **﴿ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾**، كقوله: **﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا . هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي**

---

(١) فى ت: «وروى ابن جرير بإسناده». (٢) فى ت: «على». (٣) فى ت: «يغلى».
(٤) زيادة من ت. (٥) فى أ: «مقتل».
(٦) البيت فى تفسير الطبرى (٢٥/ ٨٠).
(٧) فى أ: «فيفتح». (٨) فى أ: «يمزق». (٩) فى ت: «روى».
(١٠) فى ت، أ: «بدنه». (١١) فى ت: «أنى من أمنع».
(١٢) ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٧/ ٤١٨) وهو مرسل.

كُنتم بِهَا تُكَذِّبُون أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٣ ـ ١٥]، ولهذا قال هاهنا: ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ(٥٣) كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (٥٥) لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٦) فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٥٧) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥٨) فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ (٥٩)﴾.

لما ذكر تعالى حال الأشقياء عطف بذكر [حال][1] السعداء ـ ولهذا سُمّى القرآن مثانى ـ فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ أى: لله فى الدنيا ﴿فِى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ أى: فى الآخرة وهو الجنة، قد أمنوا فيها من الموت والخروج، ومن كل هم وحزن وجزع[2] وتعب ونصب، ومن الشيطان وكيده، وسائر الآفات والمصائب ﴿فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾. وهذا فى مقابلة ما أولئك فيه من شجر [3] الزقوم، وشرب الحميم.

وقوله تعالى: ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ وهو: رفيع الحرير، كالقمصان ونحوها[4]، ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾، وهو ما فيه بريق ولمعان وذلك كالرياش، وما يلبس على أعالى القماش، ﴿مُّتَقَابِلِينَ﴾ أى: على السرر، لايجلس أحد منهم وظهره إلى غيره.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ أى: هذا العطاء مع ما قد منحناهم من الزوجات الحور العين الحسان اللاتى ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٥٦، ٧٤]، ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٥٨]، ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

قال [5] ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا نوح بن حبيب، حدثنا نصر بن مزاحم العطار، حدثنا عمر بن سعد، عن رجل، عن أنس ـ رفعه نوح ـ قال: لو أن حوراء بَزَقَت فى بحر لُجِّىٍّ، لعَذُبَ ذلك الماء لعذوبة ريقها[6].

وقوله: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ أى: مهما طلبوا من أنواع الثمار أحضر لهم، وهم آمنون من انقطاعه وامتناعه، بل يحضر إليهم [7] كلما أرادوا.

وقوله: ﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَى﴾: هذا الاستثناء يؤكد النفى، فإنه استثناء منقطع، ومعناه: أنهم لا يذوقون فيها الموت أبداً، كما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «يؤتى بالموت فى صورة كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار ثم يذبح، ثم يقال: يا أهل الجنة، خلود فلا [8] موت، ويا أهل النار، خلود فلا [9] موت» وقد تقدم الحديث فى سورة مريم[10].

---

(١) زيادة من ت. (٢) فى م: «وجوع». (٣) فى ت،م: «شرب».
(٤) فى ت: «وغيرها». (٥) فى ت: «وروى».
(٦) ورواه أبو نعيم فى صفة الجنة برقم (٣٨٦) من وجه آخر، فرواه من طريق محمد بن إسماعيل الحسانى، عن منصور الواسطى، عن أبى النصر الأبار، عن أنس مرفوعاً بنحوه.
(٧) فى ت، م، أ: «لهم». (٨، ٩) فى أ: «بلا».
(١٠) انظر: تخريج الحديث عند الآية: ٣٩ من سورة مريم.

وقال عبد الرزاق: حدثنا سفيان الثورى، عن أبى إسحاق، عن أبى مسلم الأغر، عن أبى سعيد وأبى هريرة، رضى الله عنهما، قالا: قال رسول الله :«يقال لأهل الجنة: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تَبْأسوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً». رواه مسلم، عن إسحاق بن راهويه وعبد بن حميد، كلاهما عن عبد الرزاق به[(١)].

هكذا يقول أبو إسحاق وأهل العراق «أبو مسلم الأغر»، وأهل المدينة يقولون:«أبو عبد الله الأغر»[(٢)].

وقال أبو بكر بن أبى داود السجستانى: حدثنا أحمد بن حفص، عن أبيه، عن إبراهيم بن طَهْمَان، عن الحجاج ـ هو ابن حجاج [(٣)] ـ عن عبادة[(٤)]، عن عبيد الله بن عمرو، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من اتقى الله دخل الجنة، ينعم فيها ولا يبأس، ويحيا فيها فلا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه»[(٥)].

وقال أبو القاسم الطبرانى: حدثنا أحمد بن يحيى، حدثنا عمرو بن محمد الناقد، حدثنا سليمان ابن عبيد الله الرقى، حدثنا مصعب بن إبراهيم، حدثنا عمران بن الربيع الكوفى، عن يحيى بن سعيد الأنصاى، عن محمد بن المُنْكَدِر، عن جابر، رضى الله عنه، قال: سُئل نبى الله ﷺ : أينام أهل الجنة؟ فقال:«النوم أخو الموت، وأهل الجنة لا ينامون»[(٦)].

وهكذا رواه أبو بكر بن مُرْدَوُيه فى تفسيره: حدثنا أحمد بن القاسم بن صدقة المصرى، حدثنا المقدام بن داود، حدثنا عبد الله بن المغيرة، حدثنا سفيان الثورى، عن محمد بن المُنْكَدِر، عن جابر ابن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «النوم أخو الموت، وأهل الجنة لا ينامون»[(٧)].

وقال أبو بكر البزار فى مسنده: حدثنا الفضل بن يعقوب، حدثنا محمد بن يوسف الفِريابى، عن سفيان، عن محمد بن المنكدر، عن جابر قال: قيل: يا رسول الله، هل ينام أهل الجنة؟ قال: «لا، النوم أخو الموت». ثم قال: «لا نعلم أحداً أسنده عن ابن المنكدر، عن جابر إلا الثورى، ولا عن الثورى، إلا الفريابى»[(٨)] هكذا قال، وقد تقدم خلاف ذلك، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أى: مع هذا النعيم العظيم المقيم قد وقاهم، وسلمهم ونجاهم وزحزحهم من [(٩)] العذاب الأليم فى دركات الجحيم، فحصل لهم المطلوب، ونجاهم من المرهوب؛

(١) صحيح مسلم برقم (٢٨٣٧).
(٢) والأول هو الصواب كما بين ذلك الإمام المزى فى تهذيب الكمال.
(٣) فى أ: «الحجاج». (٤) فى م، أ: «قتادة».
(٥) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم(٤٨٩٥) «مجمع البحرين» من طريق أحمد بن حفص به.
(٦) المعجم الأوسط برقم (٤٨٧٥) «مجمع البحرين» وفى إسناده مصعب بن إبراهيم العبسى، منكر الحديث.
(٧) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٧/ ٩٠) من طريق أحمد بن القاسم عن المقدام بن داود به، وقال: «غريب من حديث الثورى، تفرد به عبد الله».
(٨) مسند البزار برقم (٣٥١٧) «كشف الأستار» قال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٤١٥): «رجال البزار رجال الصحيح».
(٩) فى ت: «عن».

ولهذا قال: ﴿ فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ أى: إنما كان هذا [(١)] بفضله عليهم وإحسانه إليهم، كما ثبت فى الصحيح [(٢)] عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اعملوا وسددوا وقاربوا، واعلموا أن أحداً لن يُدخله عمله الجنة». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمَّدنى الله برحمة منه وفضل» [(٣)].

وقوله: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أى: إنما يسرنا هذا القرآن الذى أنزلناه سهلاً واضحاً بيناً جلياً بلسانك الذى هو أفصح اللغات وأجلاها وأحلاها وأعلاها ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أى: يتفهمون ويعملون. ثم لما كان مع هذا البيان والوضوح من الناس من كفر وخالف وعاند، قال الله تعالي لرسوله مسليا له وواعداً له بالنصر، ومتوعداً لمن كذبه بالعطب والهلاك: ﴿فَارْتَقِبْ﴾ أى: انتظر ﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴾ أى: فسيعلمون [(٤)] لمن يكون النصر والظفر وعُلُو الكلمة فى الدنيا والآخرة، فإنها لك يا محمد ولإخوانك من النبيين والمرسلين ومن اتبعكم من المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ . يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [غافر: ٥١، ٥٢].

آخر تفسير سورة الدخان، ولله الحمد والمنة، وبه التوفيق والعصمة

(١) فى ت: «ذلك».
(٢) فى أ: «الصحيحين».
(٣) صحيح البخارى برقم (٦٤٦٧) من حديث عائشة، رضى الله عنها.
(٤) فى م : «فستعلمون».

سورة الدخان

مكيّة إلّا قوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا﴾[1] الآية [الدخان، ٤٤/١٥]،
وهي[2] سبع وخمسون، أو[3] تسع وخمسون آيةً.[4]

/ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ [٧٤و]

﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾

﴿حمٓ ۝ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ الكلام فيه كالذي سلَف في السورة السابقة.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي: الكتابَ المبينَ الذي هو القرآن ﴿فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ هي ليلة القَدْر. وقيل: ليلة البَراءة. ابتُدِئ فيها إنزالُه، أو أُنزلَ فيها جملةً إلى السماء الدنيا مِن اللوح، وأملاه جبريل عليه السلام على السَّفَرة، ثمّ كان يُنزله على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم نُجومًا في ثلاث وعشرين سنةً، كما مرّ في سورة الفاتحة.

ووصفُها بالبركة لِما أنّ نزول القرآن مستتبع للمنافع الدينيّة والدنيويّة بأجمَعها، أو لِما فيها مِن تنزّل الملائكة والرحمة، وإجابةِ الدعوة، وقَسمِ النعمة، وفَصلِ الأقضية، وفَضيلةِ العبادة، وإعطاءِ تمام الشفاعة لرسول الله عليه السلام.[5] وقيل: يزيد في هذه الليلة ماءُ زمزم زيادةً ظاهرة.

﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ استئناف مبيّن لِما يقتضي الإنزال، كأنّه قيل: إنّا أنزلناه لأنّ مِن شأننا الإنذار والتحذير مِن العقاب. وقيل: جواب للقسَم، وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾... إلخ اعتراض. وقيل: جواب ثانٍ بغير عاطِف.

---

[1] س ي – قليلًا.
[2] ي – وهي
[3] س: وقيل.
[4] ي: سبع أو تسع وخمسون آيةً.
[5] س: صلّى الله عليه وسلّم.

﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ استئناف كما قبله، فإنّ كونها مَفرِق الأمور المُحكمة، أو الملتبِسة بالحكمة الموافِقة لها يستدعي أن يَنزل فيها القرآن الذي هو مِن عظائمها. وقيل: صفة أخرى لـ﴿لَيْلَةٍ﴾،[١] وما بينهما اعتراض، وهذا يدلّ على أنّها ليلة القدر.

ومعنى ﴿يُفْرَقُ﴾ أنّه يُكتب ويُفصَل كلّ أمر حكيم مِن أرزاق العباد وآجالِهم وجميع أمورهم مِن هذه الليلة إلى الأخرى مِن السنة القابلة.

وقيل: يُبدأ في استنساخ ذلك مِن اللوح في ليلة البراءة، ويقع الفراغ في ليلة القَدْر، فتُدفع نسخةُ الأرزاق إلى ميكائيل، ونسخةُ الحروب إلى جبريل، وكذا الزلازل والخَسف والصواعق، ونسخةُ الأعمال إلى إسماعيل صاحب سماء الدنيا، وهو ملَك عظيم، ونسخةُ المصائب إلى ملَك الموت عليهم السلام.[٢]

وقُرئ: "يُفَرِّقُ" بالتشديد.[٣] وقُرئ: "يَفْرُقُ"[٤] على البناء للفاعل، أي: يَفرُق الله تعالى كلَّ أمر حكيم. وقُرئ: / "نَفْرِقُ" بنون العظَمة.[٥] [٧٤ظ]

﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝﴾

﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا﴾ نصب على الاختصاص، أي: أعني بهذا الأمر أمرًا حاصلًا مِن عندنا على مقتضى حكمتنا، وهو بيان لفخامته الإضافيّة بعد بيان فخامته الذاتيّة، ويجوز كونه حالًا مِن ﴿كُلُّ أَمْرٍ﴾[٦] لتخصّصه بالوصف، أو مِن ضميره في ﴿حَكِيمٍ﴾.[٧] وقد جُوّز أن يراد به مقابل النهي، ويُجعلَ مصدرًا مؤكِّدًا لـ﴿يُفْرَقُ﴾[٨] لاتّحاد الأمر والفرقان في المعنى، أو لفعله المُضمَر لِما أنّ الفَرق به، أو حالًا مِن أحد ضميرَي ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾،[٩] أي: آمرين، أو مأمورًا.

---

١ في الآية السابقة.
٢ الكشّاف للزمخشري، ٢٧١/٤؛ اللباب لابن عادل، ٣١١/١٧.
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن والأعرج والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٠.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٠.
٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٠.
٦ في الآية السابقة.
٧ في الآية السابقة.
٨ في الآية السابقة.
٩ الدخان، ٣/٤٤.

﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ بدل مِن ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾.[١] وقيل: جواب ثالث. وقيل: مستأنَف.

وقوله تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ غاية للإرسال متأخّرة عنه، على أنّ المراد بها الرحمةُ الواصلة إلى العباد، وباعث متقدِّم عليه، على أنّ المراد مبدؤها، أي: إنّا أنزلنا القرآن لأنّ مِن عادتنا إرسال الرسل بالكتب إلى العباد لأجل إفاضة رحمتنا عليهم، أو لاقتضاء رحمتنا السابقة إرسالَهم. ووضعُ "الربّ" موضعَ الضمير للإيذان بأنّ ذلك مِن أحكام الربوبيّة ومقتضياتها، وإضافته إلى ضميره عليه السلام لتشريفه.

أو[٢] تعليلٌ لـ﴿يُفْرَقُ﴾،[٣] أو لقوله تعالى: ﴿أَمْرًا﴾،[٤] على أنّ قوله تعالى:[٥] ﴿رَحْمَةً﴾ مفعول للإرسال، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾ [فاطر، ٢/٣٥]، أي: يُفرَقُ فيها كلّ أمر، أو يُصدَر الأوامر مِن عندنا؛ لأنّ مِن عادتنا إرسالَ رحمتنا.

ولا ريبَ في أنّ كلًّا مِن قسمة الأرزاق وغيرِها والأوامرِ الصادرة عنه تعالى مِن باب الرحمة، فإنّ الغاية لتكليف العباد تعريضُهم للمنافع.

وقُرئ: "رَحْمَةٌ" بالرفع،[٦] أي: تلك رحمةٌ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ تحقيق لربوبيّته تعالى، وأنّها لا تحِقّ إلّا لمَن هذه نُعوته.

﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧﴾

﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بدل مِن ﴿رَبِّكَ﴾،[٧] أو بيان، أو نَعت. وقُرئ بالرفع[٨] على أنّه خبر آخَر، أو استئناف على إضمار مبتدأ.

---

١ الدخان، ٣/٤٤.

٢ وفي هامش م: عطفٌ على قوله: "بدل". «منه».

٣ الدخان، ٤/٤٤.

٤ في الآية السابقة.

٥ م – تعالى.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣١.

٧ في الآية السابقة.

٨ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣٧١/٢.

﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أي: إن كنتم مِن أهل الإيقان في العلوم، أو إن كنتم موقنين في إقراركم بأنّه تعالى / ربّ السماوات والأرض وما بينهما إذا سُئلتُم: [٧٥و] مَن خلقَها؟ فقلتم: اللهُ، عَلِمتم أنّ الأمر كما قلنا، أو إن كنتم مريدين اليقين فاعلموا ذلك.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ٨﴾

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ جملة مستأنَفة مقرِّرة لِما قبلها. وقيل: خبر لقوله تعالى:[١] "رَبُّ السَّمَاوَاتِ"... إلخ،[٢] وما بينهما اعتراض.

﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ مستأنَفة كما قبلها، وكذا قوله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ بإضمار مبتدأ، أو بدل مِن "رَبُّ السَّمَاوَاتِ" على قراءة الرفع، أو بيان، أو نَعت له. وقيل: فاعل لـ﴿يُمِيتُ﴾، وفي ﴿يُحْيِۦ﴾ ضمير راجع إلى ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.[٣] وقُرِئا بالجرّ[٤] بدلًا مِن ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾[٥] على قراءة الجرّ.

﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ٩ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ١٠ يَغْشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ١١ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ١٢ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ١٣﴾

﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ﴾ ممّا ذُكر مِن شئونه تعالى غيرُ موقنين في إقرارهم، ﴿يَلْعَبُونَ﴾ لا يقولون ما يقولون عن جِدٍّ وإذعان؛ بل مخلوطًا بهُزءٍ ولعِب.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ لترتيب الارتقاب أو الأمرِ به على ما قبلها، فإنّ كونهم في شكّ ممّا يوجب ذلك حتمًا، أي: فانتظر لهم ﴿يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي: يومَ شدّةٍ ومجاعةٍ، فإنّ الجائع يرى بينه وبين السماء كهيئة الدخان، إمّا لضَعف بصره، أو لأنّ في عام القحط يُظلِم الهواء لقِلّة الأمطار وكثرة الغُبار، أو لأنّ العرب تُسمّي الشرّ الغالبَ دخانًا.

---

١ م - تعالى.
٢ في الآية السابقة، على قراءة الرفع.
٣ في الآية السابقة.
٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن محيصن والشيرازي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣١.
٥ في الآية السابقة.

وذلك أنّ قريشًا لمّا استعصت على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم دعا عليهم فقال: «اللّٰهمّ اشدُد وَطأتك على مُضَر، واجعلها عليهم سنين كَسِني يوسف»، فأخذَتْهم سَنة حتّى أكلوا الجِيَف والعظامَ والعِلْهِزَ، وكان الرجل يَرى بين السماء والأرض الدخانَ، وكان يحدِّث الرجلَ ويسمع كلامه ولا يراه مِن الدخان. وذلك قوله تعالى: ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾ أي: يحيط بهم. ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: قائلين ذلك. فمَشى إليه عليه السلام أبو سفيان ونفَرٌ معه، وناشدوه اللهَ تعالى والرحِمَ، وواعدوه إن دعا لهم وكُشِف عنهم أن يؤمنوا،[١] وذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾.

وهذا قول ابن عبّاس وابن مسعود رضي الله تعالى[٢] عنهم، / وبه أخذ مجاهد ومقاتل، وهو اختيار الفرّاء والزجّاج.[٣] [٧٥ظ]

وقيل: هو دخان يأتي مِن السماء قَبل يوم القيامة، فيدخل في أسماع الكفرة حتّى يكون رأسُ الواحد كالرأس الحَنيذ،[٤] ويَعتري المؤمنَ منه كهيئة الزكام، ويكون الأرض كلّها كبيت أُوقِد فيه ليس فيه خَصاص.[٥]

وعن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أوّلُ الآيات الدخان، ونزولُ عيسى بن مريم عليه السلام،[٦] ونارٌ تخرج مِن قَعر عَدَنِ أَبْيَنَ[٧] تسوق الناس إلى المَحشر، قال حذيفة:[٨] «يا رسول الله، وما الدخان؟»، فتلا الآية، وقال: «يَملأ ما بين المَشرق والمَغرب، يمكث أربعين يومًا وليلةً، أمّا المؤمن فيصيبه كهيئة الزكمة، وأمّا الكافر فهو كالسكران يخرج مِن مَنْخِرَيهِ وأُذُنيه ودُبره».[٩]

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٢٧٣/٤. وانظر: صحيح البخاري، ١٦٠/١ (٨٠٤)؛ ٢٦/٢ (١٠٠٧)؛ وصحيح مسلم، ٤٦٦/١ (٦٧٥)؛ ٢١٥٥/٤ (٢٧٩٨).

٢ س – تعالى.

٣ وفي هامش م: كذا في اللباب. «منه». | اللباب لابن عادل، ٣١٥/١٧.

٤ الحَنِيذ: المَشوي. انظر: لسان العرب لابن منظور، «حنذ».

٥ الخَصاص: الفُرَج، مفرده: خَصاصة. انظر: لسان العرب لابن منظور، «خصص».

٦ س – عليه السلام.

٧ عَدَن أَبْيَن: بلد باليمن، نُسب الى "أَبيَن"، وهو رجل مِن حِمير أقام بها. الجبال والأمكنة والمياه للزمخشري، ٢٣٧/١.

٨ س: خذيفة.

٩ جامع البيان للطبري، ١٩/٢١؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٥١/٨.

والأوّل هو الذي يستدعيه مساق النظم الكريم قطعًا، فإنّ قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾... إلخ ردّ لكلامهم واستدعائِهم الكشفَ، وتكذيبٌ لهم في الوعد بالإيمان المنبئ عن التذكّر والاتّعاظ بما اعتراهم مِن الداهية، أي: كيف يتذكّرون. أو مِن أين يتذكّرون بذلك، ويَفُون بما وعدوه مِن الإيمان عند كشف العذاب عنهم ﴿وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ أي: والحال أنّهم شاهدوا مِن دواعي التذكّر وموجِبات الاتّعاظ ما هو أعظم منه في إيجابهما حيث جاءهم رسول عظيم الشأن، وبيّن لهم مناهج الحقّ بإظهار آيات ظاهرة ومعجزات قاهرة تَخِرّ لها صُمُّ الجبال؟

﴿ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ١٤ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ١٥﴾

﴿ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ﴾ عن ذلك الرسول وهو هو، رَيثما شاهدوا منه ما شاهدوا مِن العظائم الموجِبةِ للإقبال إليه، ولم يقتنعوا بالتولّي، ﴿وَقَالُواْ﴾ في حقّه: ﴿مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ أي: قالوا تارةً: "يُعلّمه غلام أعجمي لبعض ثقيف"، وأخرى: "مجنون"، أو يقول بعضهم كذا، وآخرون كذا، فهل يُتوقّع مِن قوم هذه صفاتهم أن يتأثّروا بالعِظة والتذكير؟ وما مَثَلُهم إلّا كمَثَل الكلب، إذا جاعَ ضَغا،[1] وإذا شَبع طَغا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ جواب مِن جهته تعالى عن قولهم: ﴿رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾[2] بطريق الالتفات لمزيد التوبيخ والتهديد، وما بينهما اعتراض، أي: إنّا نكشف العذاب المعهود عنكم كشفًا قليلًا، أو زمانًا قليلًا، إنكم تعودون إثرَ ذلك إلى ما كنتم عليه مِن العتوّ والإصرار على الكفر، وتنسون هذه الحالة.

وصيغة الفاعل في الفعلين للدلالة على تحقّقهما لا محالةَ، ولقد وقع كلاهما حيث كشفه الله تعالى بدعاء النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فما لبِثوا أن عادوا إلى ما كانوا فيه مِن العتوّ والعِناد. ومَن فسّر "الدخان" بما هو مِن الأشراط قال: إذا جاء الدخان تضوَّر المعذَّبون به مِن الكفّار والمنافقين وغوّثوا، وقالوا:

---

١ ضَغَا يَضغُو ضَغْوًا وضُغاءً: صَوّتَ وصاحَ. انظر: لسان العرب لابن منظور، «ضغا».

٢ الدخان، ١٢/٤٤.

﴿رَبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ﴾،[١] فيكشفه الله تعالى عنهم بعد أربعين يومًا، فرَيثما يكشفه عنهم يرتدّون ولا يتمهّلون.

﴿يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ١٦﴾

﴿يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ أي: يومَ القيامة. وقيل: يومَ بدر. وهو ظرف لِما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ لا لِـ﴿مُنتَقِمُونَ﴾؛ لأنّ "إنّ" مانعة عن ذلك، أي: يومئذ ننتقم، إنّا منتقمون. وقيل: هو بدل مِن ﴿يَوۡمَ تَأۡتِي﴾... إلخ.[٢]

وقُرئ: "نُبطِش"،[٣] أي: نَحمل الملائكة على أن يَبطِشوا بهم البطشةَ الكبرى؛ وهو التناول بعُنف وصَولة، أو نَجعلُ البطشةَ الكبرى باطشةً بهم. وقُرئ: "نَبطُش" بضمّ "الطاء"،[٤] وهي لغة.

﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا قَبۡلَهُمۡ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ وَجَآءَهُمۡ رَسُولٞ كَرِيمٌ ١٧﴾

﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا قَبۡلَهُمۡ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ﴾ أي: امتحنّاهم بإرسال موسى عليه السلام، أو أوقَعناهم في الفتنة بالإمهال وتوسيع الرزق عليهم. وقُرئ بالتشديد،[٥] للمبالغة، أو لكثرة القوم.

﴿وَجَآءَهُمۡ رَسُولٞ كَرِيمٌ﴾ على الله تعالى، أو على المؤمنين، أو في نفسه؛ لأنّ الله تعالى لم يبعث نبيًّا إلّا مِن سَراة قومه وكِرامهم.

﴿أَنۡ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٨﴾

﴿أَنۡ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ أي بأن أدُّوا إليّ بني إسرائيل، وأرسِلوهم معي، أو بأن أدُّوا إليّ يا عبادَ الله حقّه مِن الإيمان وقَبول الدعوة. وقيل: ﴿أَنۡ﴾ مفسِّرة؛ لأنّ مجيء الرسول لا يكون إلّا برسالة ودعوة. / وقيل: مخفّفة مِن الثقيلة، أي: [٧٦ظ]
جاءهم بأنّ الشأن أدُّوا إليّ... إلخ.

---

١ الدخان، ١٢/٤٤.

٢ الدخان، ١٠/٤٤.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن وطلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣١.

٤ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٧٤.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣١.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ تعليل للأمر، أو لوجوب المأمور به، أي: رسولٌ غيرُ ظَنِين، قد ائتمنني الله تعالى على وَحيِه وصدَّقني بالمعجزات القاهرة.

﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾﴾

﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ أي: لا تتكبّروا عليه تعالى بالاستهانة بوَحيه وبرسوله. و﴿أَن﴾ كالتي سلَفت.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي آتِيكُم﴾ أي: مِن جهته تعالى ﴿بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ تعليل للنهي، أي: آتيكم بحجّة واضحة لا سبيلَ إلى إنكارها. و﴿آتِيكُم﴾ على صيغة الفاعل أو المضارع. وفي إيراد الأداء مع الأمين والسلطانِ مع العَلاء مِن الجزالة ما لا يخفى.

﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ أي: التجأتُ إليه وتوكّلت عليه ﴿أَن تَرْجُمُونِ﴾ مِن أن ترجُموني، أي: تُؤذوني ضَربًا أو شَتمًا، أو أن تقتلوني. قيل: لمّا قال: ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾[1] توعَدوه بالقتل. وقُرئ بإدغام "الذال" في "التاء".[2]

﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ أي: وإن كابَرتم مقتضى العقل، ولم تؤمنوا لي، فخلّوني كَفافًا، لا عليّ ولا لي، ولا تتعرَّضوا لي بشرٍّ ولا أذًى، فليس ذلك جزاءَ مَن يدعوكم إلى ما فيه فَلاحكم. وحملُه على معنى: فاقطعوا أسباب الوصلة عنّي، فلا موالاةَ بيني وبين مَن لا يؤمن؛[3] يأباه المقام.

﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿فَدَعَا رَبَّهُ﴾ بعد ما تَموا على تكذيبه عليه السلام ﴿أَنَّ هَٰؤُلَاءِ﴾ أي: بأنّ هؤلاء ﴿قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ وهو تعريض بالدعاء عليهم بذِكر ما استوجبوه به،

---

١ في الآية السابقة.

٢ قرأ بها أبو عمرو وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف، وهشام بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ١٦/٢.

٣ قاله الزمخشري في الكشّاف، ٢٧٤/٤.

ولذلك سُمِّي دعاءً. وقُرئ بالكسر[1] على إضمار القول. قيل: كانَ دعاؤه: "اللّٰهمّ عجّل لهم ما يستحقّونه بإجرامهم".[2] وقيل: هو قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس، ١٠/٨٥].

﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا﴾ بإضمار القول، إمّا بعد "الفاء"، أي: فقال ربُّه: أسْرِ بعبادي، وإمّا قبلَها، كأنّه قيل: قال: إن كان الأمر كما تقول فأَسْرِ بعبادي، أي: ببني إسرائيل، فقد دبّر الله تعالى أن تتقدّموا. وقُرئ بوصل "الهمزة"،[3] مِن "سَرَى". ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ أي: يتّبعكم فرعون وجنوده بعد ما علِموا بخروجكم.

﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾ مفتوحًا، ذا فجوة واسعةٍ، أو ساكنًا على هيئته بعد ما جاوزته، / ولا تضرِبه بعصاك لينطبق، ولا تغيّره عن حاله ليدخله القِبط. ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ وقُرئ: "أَنَّهُمْ" بالفتح،[4] أي: لأنّهم. [٧٧و]

﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿كَمْ تَرَكُوا۟﴾ أي: كثيرًا تركوا بمصر ﴿مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۞ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ محافلَ مزيّنةٍ، ومنازلَ محسّنة.

﴿وَنَعْمَةٍ﴾ أي: تنعُّم ﴿كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾ متنعّمين. وقُرئ: "فَكِهِينَ".[5]

﴿كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿كَذَٰلِكَ﴾ "الكاف" في حيّز النصب، وذلك إشارة إلى مصدر فعل يدلّ عليه ﴿تَرَكُوا۟﴾،[6] أي: مثلَ ذلك السّلب سلبناهم إيّاها، ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير والحسن وابن أبي إسحاق. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣١.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٤/٢٧٥.

٣ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير. النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٠.

٤ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٤/٢٧٦.

٥ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٥٤.

٦ الدخان، ٤٤/٢٥.

وقيل: مثلَ ذلك الإخراج أخرجناهم منها. وقيل: في حيّز الرفع على الخبريّة، أي: الأمرُ كذلك، فحينئذ يكون ﴿أَوْرَثْنَـٰهَا﴾ معطوفًا على ﴿تَرَكُوا۟﴾،[١] وعلى الأوّلَين على الفعل المقدَّر.

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ مجاز عن عدم الاكتراث بهَلاكهم، والاعتدادِ بوجودهم. فيه تَهكّم بهم وبحالهم المنافيةِ لحال مَن يعظم فَقْدُه، فيُقال له: "بكَت عليه السماء والأرض"، ومنه ما رُوي: «إنّ المؤمن لَيَبكي عليه مُصَلّاه، ومحلُّ عبادته، ومصاعِدُ عمله، ومَهابطُ رزقه، وآثارُه في الأرض».[٢] وقيل: تقديره: أهلُ السماء والأرض.

﴿وَمَا كَانُوا۟﴾ لمّا جاء وقتُ هلاكهم ﴿مُنظَرِينَ﴾ مُمهَلين إلى وقتٍ آخَر، أو إلى الآخرة؛ بل عُجِّل لهم في الدنيا.

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ بما فعلنا بفرعون وقومِه ما فعلنا ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ مِن استعباد فرعون إيّاهم، وقتلِ أبنائهم، واستحياءِ نسائهم على الخَسف والضَّيم.

﴿مِن فِرْعَوْنَ﴾ بدل مِن ﴿ٱلْعَذَابِ﴾،[٣] إمّا على جعله نفسَ العذاب لإفراطه فيه، وإمّا على حذف المضاف، أي: عذابِ فرعون، أو حالٌ مِن ﴿ٱلْمُهِينِ﴾، أي: كائنًا مِن فرعون. وقُرئ: "مَن فِرْعَونُ"،[٤] على معنى: هل تعرفونه مَن هو في عُتوّه وتَفرعُنه؟

---

١ الدخان، ٢٥/٤٤.

٢ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما موقوف عليه في الكشّاف للزمخشري، ٢٧٧/٤. ونحوه في جامع البيان للطبري، ٤٢/٢١؛ وشعب الإيمان للبيهقي، ٥٥٩/٤ (٣٠١٨).

٣ في الآية السابقة.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما. البحر المحيط لأبي حيّان، ٤٠٤/٩.

وفي إبهام أمره أوّلًا وتبيينه بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ ثانيًا مِن / الإفصاح عن كُنه أمره في الشرّ والفساد ما لا مزيد عليه. [٧٧ظ]

وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ إمّا خبر ثانٍ لـ﴿كَانَ﴾، أي: كان متكبّرًا مُسرفًا، أو حال مِن الضمير في ﴿عَالِيًا﴾، أي: كان رفيع الطبقة مِن بين المسرفين، فائقًا لهم بليغًا في الإسراف.

﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾

﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ﴾ أي: بني إسرائيل ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: عالِمين بأنّهم أحِقّاء بالاختيار، أو عالِمين بأنّهم يَزيغون في بعض الأوقات، ويكثُر منهم الفرَطات، ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ جميعًا لكثرة الأنبياء فيهم، أو على عالَمي زمانهم.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ﴾ كفَلْق البحر، وتظليلِ الغَمام، وإنزالِ المَنّ والسلوى، وغيرِها مِن عظائم الآيات التي لم يُعهَد مِثلُها في غيرهم ﴿مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾ نِعمةٌ جليّة، أو اختبارٌ ظاهر؛ لننظر كيف يعملون.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني: كفّارَ قريش؛ لأنّ الكلام فيهم، وقصّةُ فرعونَ وقومِه مَسوقة للدلالة على تماثلهم في الإصرار على الضلالة، والتحذيرِ عن حُلول مثل ما حلّ بهم. ﴿لَيَقُولُونَ ۞ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: ما العاقبةُ ونهايةُ الأمر إلّا الموتةَ الأولى المزيلةَ للحياة الدنيويّة. ولا قصدَ فيه إلى إثبات موتةٍ أخرى، كما في قولك: "حَجّ زيد الحِجّة الأولى ومات".

وقيل: لمّا قيل لهم: إنّكم تموتون موتةً تعقُبها حياة، كما تقدّمَتكم موتة كذلك، قالوا: "ما هي إلّا موتتنا الأولى"، أي: ما الموتة التي تعقُبها حياةٌ إلّا الموتةَ الأولى. وقيل: المعنى: ليست الموتةُ إلّا هذه الموتةَ دون الموتةِ التي تعقُب حياةَ القبر كما تزعمون. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ بمَبعوثين.

﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَا﴾ خطاب لمَن وعدهم بالنشور مِن الرسول عليه السلام والمؤمنين. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيما تعِدونه مِن قيام الساعة وبعثِ الموتى، ليظهر أنّه حقّ. وقيل: كانوا يطلبون إليهم أن يدعوا الله تعالى فيُنْشِرَ لهم قصيَّ
[٧٨و] بن كلاب ليشاوروه، وكان كبيرَهم ومَفزعَهم / في المهمّات والملمّات.[١]

﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ٣٧﴾

﴿أَهُمْ خَيْرٌ﴾ ردّ لقولهم، وتهديد لهم، أي: أهُم خير في القوّة والمنَعَة اللّتين يُدفَع بهما أسباب الهلاك، ﴿أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ هو تُبَع الحِمْيَري الذي سار بالجيوش وحَيّر الحِيرة[٢] وبنى سمرقندَ. وقيل: هدَمها.[٣] وكان مؤمنًا، وقومُه كافرين، ولِذلك ذمّهم الله تعالى دونه، وكان يكتب في عنوان كتابه: "بسم الذي ملَك بحرًا وبحرًا"، أي: بحارًا كثيرةً.

وعنِ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «لا تسبّوا تُبّعًا، فإنّه كان قد أسلم».[٤] وعنه عليه السلام: «ما أدري أكان تُبّعٌ نبيًا أو غير نبيّ».[٥] وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما:[٦] «أنّه كان نبيًا».[٧]

وقيل لملوك اليمن: التبابعة؛ لأنّهم يُتبَعون، كما يقال لهم: الأقيال؛ لأنّهم يُتَقَيّلون.[٨]

﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ عطفٌ على ﴿قَوْمُ تُبَّعٍ﴾، والمرادُ بهم: عاد وثمود وأضرابُهم مِن كلّ جبّار عنيد أولي بأسٍ شديد. والاستفهام لتقرير أنّ أولئك أقوى مِن هؤلاء.

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٤/٢٧٩.

٢ "الحِيرة" مدينة بقُرب الكوفة، ومعنى "حَيّرها": بناها ونظّمَ أمرَها وصيّرها مدينةً، كما يقال: مَدَّن المدينةَ، ومَصّرَ مِصرًا. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٨/١٠.

٣ فسمّيت لذلك "سمرقند"؛ إذ معناها الحَفر والتخريب. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٨/١٠. وانظر: جامع البيان للطبري، ٢١/٤٩.

٤ مسند أحمد، ٣٧/٥١٩ (٢٢٨٨٠)؛ المعجم الكبير للطبراني، ١١/٢٩٦ (١١٧٩٠).

٥ الكشف والبيان للثعلبي، ٨/٣٥٤؛ الكشّاف للزمخشري، ٣/٢٨٠.

٦ م - رضي الله عنهما.

٧ الكشّاف للزمخشري، ٣/٢٨٠؛ المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٥/١٥٩.

٨ "يُتَقَيّلون" بالبناء للمجهول، مِن قولهم: "تَقَيّلَ فلان أباه" إذا اقتدى به كما قاله الراغب في مفرداته، ص ٦٨٩. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٨/١٠.

وقوله تعالى: ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ استئناف لبيان عاقبة أمرِهم. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ تعليل لإهلاكهم، ليُعلَم أنّ أولئك حيث أُهلكوا بسبب إجرامهم مع ما كانوا في غاية القوّة والشدّة فلأنْ يُهلَكَ هؤلاء وهم شركاء لهم في الإجرام أضعفُ منهم في الشدّة والقوّة أولى.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: ما بين الجنسين. وقُرئ: "وَمَا بَيْنَهُنَّ".[١] ﴿لَٰعِبِينَ﴾ لاهِينَ مِن غير أن يكون في خلقها غرض صحيح وغاية حميدة.

﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَا﴾ وما بينهما ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ استثناء مفرّغ مِن أعمّ الأحوال، أو أعمِّ الأسباب، أي: ما خلقناهما ملتبِسًا بشيء مِن الأشياء إلّا ملتبِسًا بالحقّ، أو ما خلقناهما بسببٍ مِن الأسباب إلّا بسبب الحقّ الذي هو الإيمان والطاعة والبعث والجزاء.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنّ الأمر كذلك، فيُنكرون البعثَ والجزاء.

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ أي: فصلِ الحقّ عن الباطل، وتمييزِ المُحقّ مِن المُبطِل، وفصلِ الرجل عن أقاربه وأحبّائه ﴿مِيقَٰتُهُمْ﴾ وقتُ موعدهم ﴿أَجْمَعِينَ﴾. / وقُرئ: "مِيقَاتَهُمْ"[٢] بالنصب على أنّه اسم ﴿إِنَّ﴾، و﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ خبرها، أي: إنّ ميعاد حسابهم وجزائِهم في يوم الفَصل. [٧٨ظ]

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى﴾ بدل مِن ﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾،[٣] أو صفة لـ﴿مِيقَٰتُهُمْ﴾،[٤] أو ظرف لِما دلّ عليه ﴿ٱلْفَصْلِ﴾، لا لنفسه. ﴿مَوْلًى﴾ مِن قَرابة أو غيرها ﴿عَن مَّوْلًى﴾ أيّ مولًى كان

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٢.

٣ في الآية السابقة.

٤ في الآية السابقة.

﴿شَيْـًٔا﴾ أي: شيئًا مِن الإغناء، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ الضمير لـ﴿مَوْلًى﴾ الأوّل باعتبار المعنى؛ لأنّه عامّ.

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾ بالعفو عنه وقَبول الشفاعة في حقّه. ومحلّه الرفع على البدل مِن "الواو"، أو النصب على الاستثناء. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُنصَرُ مَن أراد تعذيبه، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ لمَن أراد أن يرحمه.

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝٤٤ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ۝٤٥ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ۝٤٦﴾

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ﴾ وقُرئ بكسر "الشين".[1] وقد مرّ معنى "الزقّوم" في سورة الصافّات.[2]

﴿طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ أي: الكثيرِ الآثام، والمراد به الكافر، لدلالة ما قبله وما بعده عليه.

﴿كَٱلْمُهْلِ﴾ وهو ما يُمْهَلُ في النارِ حتّى يذوب. وقيل: هو دُرديّ الزيت.[3] ﴿يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ﴾ وقُرئ بـ"التاء"[4] على إسناد الفعل إلى "الشجرة". ﴿كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ﴾ غليانًا كغَلْيه.

﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝٤٧ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ۝٤٨﴾

﴿خُذُوهُ﴾ على إرادة القول، والخطابُ للزبانية. ﴿فَٱعْتِلُوهُ﴾ أي: جُرُّوه، و"العَتْلُ" الأخذ بمَجامع الشيء وجَرّه بقَهرٍ وعنف. وقُرئ بضمّ "التاء"،[5] وهي لغة فيه. ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: وسطه.

﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾ كان الأصل: "يُصَبّ مِن فوق رءوسهم الحميم"، فقيل: "يُصبّ مِن فوق رءوسهم عذاب هو الحميم" للمبالغة،

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٢.

[2] الصافات، ٦٢/٣٧.

[3] دُرديّ الزيت وغيره: ما يبقى في أسفله. الصحاح للجوهري، «درد».

[4] قرأ بها نافع وأبو جعفر وأبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف وشعبة عن عاصم ورَوح عن يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٧١/٢.

[5] قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٧١/٢.

ثمّ أضيفَ "العذاب" إلى "الحَميم" للتخفيف، وزِيدَ "مِن" للدلالة على أنّ المصبوب بعضُ هذا النوع.

﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ۝٤٩ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ۝٥٠﴾

﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ أي: وقولوا له ذلك استهزاءً به وتقريعًا له على ما كان يزعُمه، رُوي أنّ أبا جهل قال لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «ما بين جبلَيها[1] أعزُّ ولا أكرمُ منّي، فواللهِ ما تستطيع أنت ولا ربّك أن تفعلا بي شيئًا».[2] وقُرئ بالفتح،[3] أي: لِأَنّك، أو عذابَ أَنّك.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: العذابَ ﴿مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾ تشكّون / وتمارون فيه. [٧٩و]
والجمع باعتبار المعنى؛ لأنّ المراد جنس الأثيم.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ۝٥١ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٢ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٥٣﴾

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: عن الكفر والمعاصي ﴿فِى مَقَامٍ﴾ في موضع قيام، والمراد المكان على الإطلاق، فإنّه مِن الخاصّ الذي شاع استعماله في معنى العموم. وقُرئ بضمّ "الميم"،[4] وهو موضع إقامة. ﴿أَمِينٍ﴾ يأمَن صاحبُه الآفات والانتقالَ عنه، وهو مِن "الأَمْن" الذي هو ضدّ الخيانة، وصفَ به المكان بطريق الاستعارة، كأنّ المكان المُخيف يخون صاحبَه بما يَلقى فيه مِن المكاره.

﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ بدل مِن ﴿مَقَامٍ﴾[5] جيء به دلالةً على نزاهته واشتماله على طيّبات المآكل والمشارب.

﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ خبر ثانٍ، أو حال مِن الضمير في الجارّ، أو استئناف. و"السُّندُس" ما رَقّ مِن الحرير، و"الإِستَبْرق" ما غلُظ منه، مُعرّب.

---

[1] وفي هامش م: أي: جبلَي مكّة؛ وهما أبو قُبيس وثَور. «منه».
[2] الكشف والبيان للثعلبي، ٩٢/١٠ (القيامة، ٣٤/٧٥)؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٧٢/٤.
[3] قرأ بها الكسائي. النشر لابن الجزري، ٣٧١/٢.
[4] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣٧١/٢.
[5] في الآية السابقة.

﴿مُتَقَٰبِلِينَ﴾ في المجالس ليستأنس بعضهم ببعض.

﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝٥٤ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ۝٥٥﴾

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: الأمرُ كذلك، أو كذلك أثَبْناهم، ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ على الوصف. وقُرئ بالإضافة،[١] أي: قَرنّاهم بهِنّ. و"الحُور" جمع "الحَوراء"، وهي البيضاء، و"العِين" جمع "العَيناء"، وهي العظيمة العينَين. واختُلِف في أنّهنّ نساء الدنيا أو غيرُها.

﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ أي: يطلبون ويأمرون بإحضار ما يشتَهونه مِن الفواكه، لا يتخصّص شيء منها بمكان ولا زمان ﴿ءَامِنِينَ﴾ مِن كلّ ما يسُوءهم.

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٥٦﴾

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ بل يستمرّون على الحياة أبدًا. والاستثناء منقطع، أو متّصل على أنّ المراد بيان استحالة ذَوق الموت فيها على الإطلاق، كأنّه قيل: لا يذوقون فيها الموتَ إلّا إذا أمكَن ذَوق الموتة الأولى حينئذ. ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ وقُرئ مشدَّدًا[٢] للمبالغة في الوقاية.

﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٥٧﴾

[٧٩ظ] ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: أُعطُوا ذلك كُلّه عطاءً وتفضّلًا منه تعالى. / وقُرئ بالرفع،[٣] أي: ذلك فضل. ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوزَ وراءه؛ إذ هو خلاص عن جميع المكاره ونَيلٌ لكلّ المطالب.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٥٨ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ۝٥٩﴾

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فذلَكة للسورة الكريمة، أي: إنّما أنزلنا الكتاب المبين بلُغتك كي يفهمه قومك، ويتذكّروا به،

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن جبير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٢.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٢.

ويعملوا بموجَبه، وإذ لم يفعلوا ذلك ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ فانتظر ما يحُلّ بهم، ﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ ما يحُلّ بك.

رُوي عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ ﴿حمٓ﴾ الدخان ليلةَ جمعة أصبح مغفورًا له».[1]

---

١ مسند أبي يعلى، ١١/١٠٥ (٦٢٣٢)؛ عمل اليوم والليلة لابن السنّي، ص ٦٢٩.

سُورَةُ الدُّخَانِ

مكية كما رُوي عن ابن عباس وابن الزبير ﵃، واستُثْنيَ بعضُ قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ [الآية: ١٥].

وآيها كما قال الدانيُّ: تسعٌ وخمسون في الكوفي وسبعٌ في البصري وستٌّ في عَدَد الباقين(١). واختلافُها على ما في «مجمع البيان»(٢) أربع آيات: ﴿حمٓ﴾ و﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ﴾ [الآية: ٣٤] كوفيّ. ﴿شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ﴾ [الآية: ٤٣] عراقي شامي والمدني الأول. ﴿فِي ٱلْبُطُونِ﴾ [الآية: ٤٥] عراقي مكّي والمدني الأخير.

ووجهُ مناسبتها لما قبلها أنه عز وجل ختم ما قبلُ بالوعيد والتهديد، وافتتح هذه بشيء من الإنذار الشديد، وذكر سبحانه هناك قولَ الرسول ﷺ: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [الزخرف: ٨٨] وهنا نظيره فيما حكَى عن أخيه موسى عليهما الصلاة والسلام بقوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ [الدخان: ٢٢] وأيضاً ذكر فيما تقدَّم ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌۚ﴾ [الزخرف: ٨٩] وحكى سبحانه عن موسى عليه السلام ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَٱعْتَزِلُونِ﴾ [الدخان: ٢٠-٢١] وهو قريبٌ من قريب إلى غير ذلك. وهي إحدى النظائر التي كان يُصلِّي بهنّ رسولُ الله ﷺ كما أخرج الطبراني عن ابن مسعود «الذاريات» و«الطور» و«النجم» و«اقتربت» و«الرحمن» و«الواقعة» و«نون» و«الحاقة» و«المزمل» و«لا أقسم بيوم القيامة» و«هل أتى على الإنسان» و«المرسلات» و«عم يتساءلون» و«النازعات» و«عبس» و«ويل للمطففين» و«إذا الشمس كورت» و«الدخان»(٣).

---

(١) البيان في عدِّ آي القرآن للداني ص٢٢٥، وحاشية الشهاب ٨/ ٢.

(٢) ٢٥/ ١٠٥.

(٣) معجم الطبراني الكبير (٩٨٦١)، وأخرجه البخاري (٧٧٥) و(٥٠٤٣)، ومسلم (٨٢٢) =

وورد بِفَضْلها أخبارٌ:

أخرج الترمذي ومحمد بن نصر وابن مردويه والبيهقي عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ قرأ (حمٓ) الدخان في ليلةٍ أصبحَ يستغفرُ له سبعون ألف مَلَك»[(١)]، وأخرج المذكورون عنه أيضاً يرفعه: «مَنْ قرأ (حمٓ) الدخان في ليلةِ جمعة أصبح مغفوراً له»[(٢)]. وفي رواية للبيهقي وابن الضُّريس عنه مرفوعاً: «مَنْ قرأ ليلةَ الجمعة (حمٓ) الدخان و(يسٓ) أصبح مغفوراً له»[(٣)]. وأخرجُ ابن الضُّريس عن الحسن أن النبي ﷺ قال: «مَنْ قرأ سورةَ الدخان في ليلةٍ غُفِرَ له ما تقدَّم من ذَنْبه»[(٤)]، وأخرج ابن مردويه عن أبي أُمامة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ قرأ (حمٓ) الدخان في ليلةِ جمعةٍ، أو يوم جُمعةٍ، بَنى الله تعالى له بيتاً في الجنة»[(٥)].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾ الكلامُ فيه كالذي سلف في السورة السابقة.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي: الكتاب المُبين الذي هو القرآن على القولِ المُعوَّل عليه ﴿فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ هي ليلةُ القدر على ما رُوي عن ابن عباس وقتادة وابن جُبير ومجاهد

= ولفظه: قال عبد الله ﷺ: . . . وإني لأحفظ القُرَناء التي كان يقرأ بهن النبيُّ ﷺ؛ ثماني عشرة سورة من المفصَّل وسورتين من آل حاميم. وينظر فتح الباري ٢/ ٢٥٩.

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٤، وسنن الترمذي (٢٨٨٨)، وشعب الإيمان للبيهقي (٢٤٧٥). قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وعمر بن أبي خثعم يضعف، قال محمد [يعني البخاري]: وهو منكر الحديث.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٤، وسنن الترمذي (٢٨٨٩)، وشعب الإيمان (٢٤٧٦). قال الترمذي: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وهشام أبو المقدام يضعف، ولم يسمع الحسن من أبي هريرة.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٢٤، وشعب الإيمان (٢٤٧٧). قال البيهقي: تفرد به هشام بن زياد، وهو هكذا.

(٤) الدر المنثور ٦/ ٢٤، وفضائل القرآن (٢٢٢) وإسناده ضعيف لإرساله.

(٥) الدر المنثور ٦/ ٢٤، وأخرجه أيضاً الطبراني في الكبير (٨٠٢٦)، قال الهيثمي في المجمع ٢/ ١٦٨: فيه فضَّال بن جبير، وهو ضعيف جداً.

وابن زيد والحسن، وعليه أكثرُ المفسِّرين. والظواهرُ معهم.

وقال عكرمة وجماعة: هي ليلة النصف من شعبان. وتُسمَّى ليلةَ الرحمة، والليلةَ المباركة، وليلةَ الصَّكّ، وليلةَ البراءة. ووجهُ تسميتها بالأخيرين أن البندار[١] إذا استوفى الخَراجَ من أهله كتب لهم البراءةَ والصكَّ، كذلك إن الله عز وجل يكتبُ لعباده المؤمنين البراءةَ والصكَّ في هذه الليلة.

وظاهرُ كلامهم هنا أن البراءة ـ وهي مصدر بَرِئ براءةً، إذا تخلَّص ـ تُطلق على صكِّ الأعمال والدُّيون وما ضاهاها، وأنه ورد في الآثار ذلك، وهو مجازٌ مشهورٌ، وصار بذلك كالمُشتَرَك، وفي «المُغرِب»: بَرِئَ من الدَّين والعيب براءةً، ومنه البراءة لخطِّ الإبراء، والجمع براءات، وبَرَوات عامِّيَّة[٢]. اهـ.

وأكثرُ أهل اللغة على أنه لم يُسمع من العرب، وأنه عاميٌّ صِرْف وإن كان من باب المَجاز الواسع.

قال ابن السِّيد في «المقتضب»[٣]: البراءة في الأصل مصدر بَرِئ براءة، وأما البراءة المستعملة في صناعة الكتاب فتسميتُها بذلك إما على أنها من بَرِئ من دَيْنه: إذا أدَّاه، وبَرِئتُ من الأمر: إذا تخلَّيت عنه[٤]، فكأنَّ المطلوبَ منه أمرٌ تبرَّأ إلى الطالب أو تخلَّى له[٥]. وقيل: أصلُه أن الجاني كان إذا جنى وعفا عنه المَلِكُ كَتب له كتابَ أمانٍ مما خافه، فكان يقال: كتب السلطانُ لفلان براءةً، ثم عُمِّم ذلك فيما كُتب من أُولي الأمر وأمثالهم. اهـ.

وذكروا في فضل هذه الليلة أخباراً كثيرة؛ منها ما أخرجه ابن ماجه والبيهقي في «شعب الإيمان» عن عليٍّ كرم الله وجهه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كانت ليلةُ النصف من شعبان فقوموا ليلَها وصوموا نهارها، فإنَّ الله تعالى ينزل فيها لغروب

---

(١) البندار: هو الضيزن، وهو الذي يكون مع عامل الخراج. اللسان (ضزن).
(٢) المُغرِب في ترتيب المُعْرب (برأ).
(٣) هو الاقتضاب في شرح أدب الكتاب ١/ ١٩٣-١٩٤.
(٤) في الأصل و(م): منه، والمثبت من الاقتضاب، وحاشية الشهاب ٨/ ٣ وعنه نقل المصنف.
(٥) قوله: له، ليس في (م).

الشمس إلى السماء الدنيا فيقول: ألا مُستغفرٌ فأَغْفِرَ له، ألا مسترزق فأَرْزُقَه، ألا مُبتلًى فأُعَافِيَه، ألا كذا ألا كذا حتى يَطْلُعَ الفجر»(١).

وما أخرجه الترمذي وابن أبي شيبة والبيهقي وابن ماجه عن عائشة قالت: فقدتُ رسولَ الله ﷺ ذاتَ ليلة فخرجتُ أَطلُبه، فإذا هو بالبقيع رافعاً رأسَه إلى السماء فقال: «يا عائشة أكنتِ تخافين أن يحيفَ اللهُ تعالى عليكِ ورسولُه؟» قلتُ: ما بي من ذلك، ولكني ظننتُ أنك أتيتَ بعضَ نسائك. فقال: «إنَّ اللهَ عز وجل ينزلُ ليلةَ النصف من شعبان إلى السماء الدنيا فيغفرُ لأكثر من عَدَدِ شعرِ غَنَم كَلْب»(٢).

وما أخرجه أحمد بن حنبل في «المسند» عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسولَ الله ﷺ قال: «يطَّلعُ اللهُ تعالى إلى خَلْقه ليلةَ النصف من شعبان فيغفر لعباده إلا اثنين مشاحِن وقاتلِ نفس»(٣).

وذكر بعضُهم فيها صلاةً مخصوصة، وأنها تعدلُ عشرين حِجَّة مبرورةً وصيامَ عشرين سنة مقبولاً، وروى في ذلك حديثاً طويلاً عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه، وقد أخرجه البيهقي(٤)، ثم قال: يُشبه أن يكون هذا الحديث موضوعاً، وهو مُنكر، وفي رواته مجهولون.

وأطال الوعَّاظ الكلامَ في هذه الليلة وذِكْرِ فضائلها وخواصِّها، وذكروا عدَّة أخبارٍ في أنَّ الآجالَ تُنْسَخُ فيها. وفي «الدر المنثور»(٥) طرفٌ غير يسيرٍ من ذلك، وسنذكر بعضاً منه إن شاء الله تعالى. وفي «البحر»(٦): قال الحافظ أبو بكر بن

(١) سنن ابن ماجه (١٣٨٨)، وشعب الإيمان (٣٨٢٢)، وفي إسناده: ابن أبي سبرة، ضعَّفه البخاري، وقال أحمد: كان يضع الحديث، وقال النسائي: متروك.

(٢) سنن الترمذي (٧٣٩)، ومصنف ابن أبي شيبة ١٠/ ٤٣٧-٤٣٨، وشعب الإيمان (٣٨٢٦)، وسنن ابن ماجه (١٣٨٩)، وهو في مسند أحمد (٢٦٠١٨). قال الترمذي: لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وسمعت محمداً (يعني البخاري) يضعف هذا الحديث. . .

(٣) مسند أحمد (٦٦٤٢)، وهو حديث صحيح بشواهده كما ذكر محققو المسند.

(٤) في شعب الإيمان (٣٨٤١).

(٥) ٦/ ٢٦-٢٧.

(٦) ٨/ ٣٣.

العربي: لا يصحُّ فيها شيء، ولا نسخُ الآجال فيها[1]. ولا يخلو من مُجازفة، والله تعالى أعلم.

والمراد بإنزاله في تلك الليلة إنزالُه فيها جملةً إلى السماء الدنيا من اللَّوح، فالإنزال المُنَجَّم في ثلاث وعشرين سنةً أو أقل كان من السماء الدنيا، ورُوي هذا عن ابن جُبير[2] وغيره. وذُكِرَ أن المَحَلّ الذي أُنزل فيه من تلك السماء البيتُ المعمور، وهو مُسامِتٌ للكعبة بحيث لو نزل لَنزل عليها.

وأخرج سعيد بن منصور عن إبراهيم النَّخعي أنه قال: نزل القرآنُ جملةً على جبريل عليه السلام، وكان جبريل عليه السلام يَجيء به بعدُ إلى النبي ﷺ[3].

وقال غير واحد: المرادُ ابتداءُ إنزاله في تلك الليلة على التجوُّز في الطرف أو النسبة. واستُشكل ذلك بأنَّ ابتداءَ السنة المُحرَّم أو شهر ربيع الأول؛ لأنه وُلِدَ فيه ﷺ ومنه اعتُبر التاريخ في حياته عليه الصلاة والسلام إلى خلافةِ عمر رضي الله عنه، وهو الأصح. وقد كان الوحيُ إليه ﷺ على رأسِ الأربعين سنةً من مُدَّة عُمره عليه الصلاة والسلام على المشهور من عِدَّة أقوال، فكيف يكون ابتداءُ الإنزال في ليلة القدر من شهر رمضانَ أو في ليلة البراءةِ من شعبان ؟

وأُجيب بأنَّ ابتداءَ الوحي كان مناماً في شهر ربيع الأول ولم يكن بإنزال شيء من القرآن، والوحيُ يقظةً مع الإنزال كان في يوم الاثنين لسبعَ عشرة خَلَتْ من شهر رمضان. وقيل: لسبعٍ منه. وقيل: لأربعٍ وعشرين ليلةً منه. وأنت تعلم كَثْرَة اختلاف الأقوال في هذا المقام فمن يقول بابتداء إنزاله في شهر رمضان[4] يلتزم منها ما لا يأباه.

واختُلف في أول ما نزل منه، ففي «صحيح مسلم» أنه ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾[5].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٧٨.
(٢) تحرف في (م) إلى: ابن جرير.
(٣) الدر المنثور ٦/ ٢٥.
(٤) قوله: رمضان، ليس في (م).
(٥) صحيح مسلم (١٦١): (١٥٧) من حديث جابر رضي الله عنه، وأخرجه البخاري (٤٩٢٤).

وتعقَّبه النووي في «شرحه» فقال: إنه ضعيفٌ، بل باطلٌ. والصوابُ أنَّ أول ما نزل على الإطلاق: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ كما صُرِّح به في حديث عائشة[١]، وأما ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ فكان نزولُها بعد فترة الوحي كما صُرِّح به في رواية الزهري عن أبي سلمة عن جابر[٢]. وأما قولُ مَن قال من المفسرين: أول ما نزل الفاتحةُ، فبطلانُه أظهرُ من أن يُذْكر[٣]. اهـ.

والكلامُ في ذلك مستوفًى في «الإتقان»[٤] فَلْيرجعْ إليه من أراده.

ووصف الليلة بالبركة لِمَا أنَّ إنزالَ القرآن مستتبعٌ للمنافع الدينية والدنيوية بأَجْمعها، أو لِمَا فيها من تَنزُّل الملائكة والرحمة وإجابةِ الدعوة وفضيلةِ العبادة، أو لما فيها من ذلك وتقدير الأرزاق، وفصل الأَقْضية، كالآجال وغيرها، وإعطاء تمام الشفاعة له عليه الصلاة والسلام. وهذا بناءً على أنها ليلةُ البراءة؛ فقد رُوي أنه ﷺ سأل ليلةَ الثالثَ عشرَ من شعبان في أُمَّته فأُعطي الثُّلث منها، ثم سأل ليلةَ الرابعَ عشرَ، فأُعطي الثُّلثين، ثم سأل ليلةَ الخامسَ عشرَ فأُعطيَ الجميعَ إلا مَنْ شَرَدَ على الله تعالى شرادَ البعير[٥].

وأيًّاما كان فقد قيل: إنَّ التعليل إنما يحتاج إليه بناءً على القول بما اختاره العزُّ بن عبد السلام[٦] من أنَّ الأَمْكنةَ والأَزْمنةَ كلَّها متساويةٌ في حدِّ ذاتها لا يفضُل بعضُها بعضاً إلا بما يقع فيها من الأعمال ونحوها. وزاد بعضُهم: أو يحلّ، لتدخل البقعة التي ضَمَّته ﷺ، فإنها أفضلُ البِقاع الأَرْضِيَّة والسماوية حتى قيل ـ وبه أقولُ ـ: إنها أفضلُ من العرش.

والحقُّ أنه لا يَبعُدُ أن يَخُصَّ الله سبحانه بعضَها بمزيدِ تشريفٍ حتى يصيرَ ذلك داعياً إلى إقدام المُكلَّف على الأعمال فيها، أو لِحكمة أُخرى.

---

(١) صحيح مسلم (١٦٠): (٢٥٢).
(٢) صحيح مسلم (١٦١): (٢٥٦).
(٣) شرح النووي لصحيح مسلم ٢/ ٢٠٧.
(٤) ١/ ٧٦.
(٥) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٠٠.
(٦) كما في حاشية الشهاب ٨/ ٣.

وجملة «إنا أنزلناه» جوابُ القَسَم، وفي ذلك مبالغةٌ، نحو ما في قوله:

وثـنـايـاك إنـهـا إغـريـض[١]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣﴾ استئنافٌ يُبيِّن المُقتضي للإنْزال. وقوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾ استئنافٌ أيضاً لبيان التخصيص بالليلة المباركة، فكأنه قيل: أنزلناه لأنَّ من شأننا الإنذار والتحذير من العقاب، وكان إنزالُه في تلك الليلةِ المباركة لأنه من الأمور الدالَّة على الحكم البالغة، وهي ليلةٌ يُفرَقُ فيها كلّ أمر حكيم، ففي الكلام لفٌّ ونشرٌ، واشتراطُ أن يكونَ كلٌّ منهما بجملتين مستقلَّتين مما لا داعي إليه. وقيل: إن جملة «فيها يُفرَق» إلخ صفةٌ أُخرى لـ «ليلة»، وما بينهما اعتراضٌ لا يضرُّ الفصلُ به، بل لا يُعدُّ الفصلُ به فصلاً.

وقيل: إن قوله تعالى: «إنا كنَّا منذرين» هو جوابُ القَسَم وما بينهما اعتراضٌ، وإليه ذهب ابنُ عطية[٢] زاعماً أنَّه لا يجوز جعلُ «إنا أنزلناه» جواباً له؛ لما فيه من القَسَم بالشيء على نفسه.

واعترض بأنَّ قوله تعالى: «فيها يُفرَقُ كلُّ أمرٍ حكيم» يكون حينئذ مِن تتمة الاعتراضِ فلا يحسنُ تأخُّره عن المُقسم عليه، ولا يدفعه أن هذه الجملةَ مستأنفةٌ لا صفة أُخرى، لأنه استئنافٌ بياني متعلِّق بما قبلُ كما سمعت آنفاً، فلا يَليقُ الفصلُ أيضاً كما لا يخفى على مَنْ له ذوقٌ سليم. وما ذُكر من حديث القَسَم بالشيء على نَفْسه فقد أشرنا إلى جوابه.

وقيل: إن قوله سبحانه: «إنا كُنَّا منذرين» جوابٌ آخرُ للقَسَم، وفيه تعدُّد المُقْسَم عليه من غير عطف، ولم نَرَ من تعرَّض له.

ومعنى «يُفرَق»: يُفصَّل ويُلخَّص. والحكيمُ بمعنى المُحكم؛ لأنه لا يُبدَّل ولا يُغيَّر بعد إبرازه للملائكة عليهم السلام، بخلافه قبله وهو في اللوح، فإن الله

(١) قائله أبو تمام، وسلف ص٣٤٠ من هذا الجزء.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٦٨.

تعالى يمحو منه ما يشاء ويُثبت. وجُوِّز أن يكون بمعنى المَحكوم به. ونسبته إلى الأمر عليهما[١] حقيقةٌ.

ويَجُوز أن يكونَ المعنى: كُلُّ أمرٍ مُلتبسٍ بالحكمة، والأصل: حكيمٍ صاحبُه، فتجوِّز في النسبة. وقيل: إنَّ حكيم للنسبة ك: تامر ولابن.

وقد أَبهم سبحانه هذا الأمر.

وأخرج محمد بن نصر وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال في ذلك: يُكتب من أمِّ الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من رِزق، أو موتٍ، أو حياة، أو مطر، حتى يُكتب الحاجُّ، يحجُّ فلانٌ ويحجُّ فلان[٢].

وأخرج عبد بن حُميد وابن جرير عن ربيعة بن كلثوم قال: كنتُ عند الحسن، فقال له رجلٌ: يا أبا سعيد، ليلةُ القَدْر في كلِّ رمضان هي؟ قال: إي والله، إنها لفي كلِّ رمضان، وإنها لَليلةٌ يُفرق فيها كلُّ أمرٍ حكيم، فيها يَقضي اللهُ تعالى كلَّ أَجَلٍ وعملٍ ورزقٍ إلى مِثْلها[٣]. ورُوي هذا التعميم عن غير واحدٍ من السَّلف.

وأخرج البيهقي عن أبي الجوزاء: «فيها يُفرَقُ كلُّ أمر حكيم» هي ليلةُ القدر، يجاءُ بالدِّيوان الأعظم السنة إلى السنة، فيغفر اللهُ تعالى شأنه لمن يشاء، ألا ترى أنه عز وجل قال: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾[٤]، وفيه بحث.

وإلى مثلِ ذلك التعميم ذهبَ بعضُ من قال: إنَّ الليلةَ المباركة هي ليلةُ البراءة؛ أخرج ابنُ جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق محمد بن سوقة عن عكرمة أنه قال في الآية: في ليلةِ النصف من شعبان يُبرمُ أَمْرُ السنةِ، ويُنسخ الأحياء من الأموات، ويُكتب الحاجُّ، فلا يُزادُ فيهم ولا ينقصُ منهم أحد[٥].

---

(١) في (م): عليها.
(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٥.
(٣) تفسير الطبري ٢١/ ٧، والدر المنثور ٦/ ٢٥.
(٤) شعب الإيمان (٣٦٦٤).
(٥) الدر المنثور ٦/ ٢٥.

وفي كثير من الأخبار الاقتصارُ على قطع الآجال. أخرج ابن جرير والبيهقي في «شعب الإيمان» عن الزهري عن عثمان بن محمد بن المغيرة بن الأخنس[(١)] قال: قال رسولُ الله ﷺ: «تُقطع الآجالُ من شعبانَ إلى شعبانَ حتى إنَّ الرجلَ لَينكحُ ويُولد له وقد خرجَ اسمُه في الموتى»[(٢)].

وأخرج الدينوري في «المجالسة» عن راشد بن سعد أن النبيَّ ﷺ قال: «في ليلة النصف من شعبان يُوحي اللهُ تعالى إلى مَلَكِ الموت بقبضِ كلِّ نفس يُريد قبضَها في تلك السنة»[(٣)] ونحوه كثير.

وقيل: يبدأ[(٤)] في استنساخ كلِّ أمرٍ حكيم من اللوح المحفوظ في ليلة البراءة، ويقع الفراغُ في ليلة القدر، فَتُدفع نسخةُ الأرزاق إلى ميكائيل عليه السلام، ونسخةُ الحروب إلى جبرائيل عليه السلام وكذلك الزلازل والصواعق والخَسْف، ونسخةُ الأعمال إلى إسماعيل عليه السلام صاحب سماء الدنيا، وهو مَلَكٌ عظيم، ونسخةُ المصائب إلى مَلَكِ الموت.

ورُوي عن ابن عباس ﵄: تُقضى الأقضيةُ كلُّها ليلةَ النصف من شعبان، وتُسلَّم إلى أربابها ليلةَ السابع والعشرين من شهر رمضان.

واعتُرض بما ذكر على الاستدلال بالظواهر على أنَّ الليلة المذكورة هي ليلةُ القدر لا ليلة النصف من شعبان، ومن تدبَّر عَلِمَ أنه لا يخدش الظواهر. نعم حُكي عن عكرمة أنّ ليلةَ النصف من شعبان هي ليلةُ القدر، ويلزمُه تأويلُ ما يأبى ظاهرُه ذلك، فتدبَّر. وسيأتي إنْ شاء الله عز وجل الكلامُ في هذا المقام مستوفىً على أتمِّ وجه في تفسير سورة القدر، وهو سبحانه الموفِّق.

وقرأ الحسن والأعرج والأعمش: «يَفرُق» بفتح الياء وضمِّ الراء «كلَّ»

(١) في الأصل و(م): الأخفش، والمثبت من المصادر.
(٢) تفسير الطبري ٢١/ ١٠، وهو مرسل، وهو في شعب الإيمان (٣٨٣٩) من قول عثمان بن محمد بن المغيرة، وعثمان هذا قال فيه الحافظ ابن حجر في التقريب: صدوق له أوهام.
(٣) الدر المنثور ٦/ ٢٥، والمجالسة وجواهر العلم (٩٤٤)، وهو مرسل.
(٤) في (م): يبدأن، وهو تصحيف، والمثبت من الأصل والكشاف ٣/ ٥٠٠.

بالنصب[1]، أي: يَفرُق اللهُ تعالى، وقرأ زيدُ بن عليٍّ فيما ذكر الزمخشري[2] عنه: «نَفرُق» بالنون «كلَّ» بالنصب، وفيما ذَكَر أبو عليٍّ الأهوازيُّ[3] عنه بفتح الياء وكسر الراء ونصب «كلَّ» ورفع «حكيمٌ» على أنه الفاعل بـ «يفرق». وقرأ الحسن وزائدة عن الأعمش: «يُفرَّق» بالتشديد وصيغة المفعول[4]، وهو للتكثير. وفيه ردٌّ على قول بعض اللُّغويين ـ كالحريري ـ أن الفَرْقَ مختصٌّ بالمعاني والتفريق بالأجسام.

﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾ نصب على الاختصاص، وتنكيرُه للتفخيم، والجارُّ والمجرور في موضع الصِّفة له، وتعلُّقه بـ «يفرق» ليس بشيء. والمرادُ بالعِنْدية أنه على وَفْق الحِكْمة والتدبير، أي: أعني بهذا الأمر أمراً فخيماً حاصلاً على مقتضى حِكْمتنا وتدبيرنا، وهو بيانٌ لزيادة فَخَامته ومَدْحه.

وجوِّز كونه حالاً من ضمير «أمر» السابق المُستتر في «حكيم» الواقع صفةً له أو مِن «أمر» نفسِه، وصحَّ مجيء الحال منه مع أنه نكرةٌ لِتخصُّصه بالوصف على أن عمومَ النَّكرة المُضاف إليها «كل» مسوِّغٌ للحالية من غير احتياج الوصف. وقول السمين[5]: إنَّ فيه القول بالحال من المضاف إليه في غير المواضع المذكورة في النحو، صادرٌ عن نظر ضعيف؛ لأنه كالجزء في جواز الاستغناء عنه بأن يقال: يُفرق أمرٌ حكيم، على إرادة عموم النَّكرة في الإثبات كما في قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: ١٤]. وقيل: حال من «كل». وأيًّاما كان فهو مُغاير لذي الحال لوصفه بقوله تعالى: «من عندنا» فيصحّ وقوعُه حالاً من غير لَغْويةٍ فيه.

وكونُها مؤكِّدةً غيرُ مُتَأَتٍّ مع الوَصْفية كما لا يخفى على ذي الذهن السليم.

وهو على هذه الأوجه واحدُ الأمور.

وجُوِّز أنْ يرادَ به الأمر الذي هو ضدُّ النهي على أنه واحدُ الأوامر، فحينئذ

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣٧.

(٢) الكشاف ٣/ ٥٠٠.

(٣) كما في البحر المحيط ٨/ ٣٣، وعنه نقل المصنف.

(٤) المصدر السابق.

(٥) الدر المصون ٩/ ٦١٦.

يكون منصوباً على المصدرية لفعل مُضمر من لفظه، أي: أَمَرْنا أمراً من عندنا، والجملةُ بيان لقوله سبحانه: «يفرق» إلخ. وقيل: إما أن يكونَ نصباً على المصدرية لـ «يفرق» لأنَّ كَتْبَ الله تعالى للشيء إيجابُه، وكذلك أَمْرُه عز وجل به؛ كأنه قيل: يُؤمر بكلِّ شأن مطلوبٍ على وجه الحِكْمة أمراً، فالأمر وُضِعَ موضعَ الفرقان المُستعمل بمعنى الأمر. وإما أن يكونَ على الحالية من فاعل «أنزلنا» أو مفعوله، أي: إنا أنزلناه آمرين أمراً، أو حال كون الكتاب أمراً يجب أن يُفعل؛ وفي جعل الكتاب نَفْسَ الأمر لاشتماله عليه أيضاً تجوُّزٌ فيه فخامة.

وتعقَّب ذلك في «الكشف» فقال: فيه ضعفٌ؛ للفصل بالجملتين بين الحال وصاحبها على الثاني، ولعدم اختصاصِ الأوامر الصادرة منه تعالى بتلك الليلة على الأول.

ووجهُه أن تُخَصَّ بالقرآن. ولا يُجعل قولُه تعالى: «فيها يُفرق» علَّة للإنزال في الليلة، بل هو تفصيلٌ لمَا أُجمل في قوله سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ على معنى: فيها أنزل الكتاب المُبين الذي هو المُشتمِلُ على كلِّ مأمور به حكيم، كأنه جعل الكتاب كلّه أمراً، أو ما أمر به كلّ المأمورات، وفيه مبالغة حسنة. ولا يخفى أن في فَهْمه من الآية تَكَلُّفاً.

وقال الخفاجي[1] في أمر الفصل: إنه لا يضرُّ ذلك الفاصل على الاعتراض، وكذا على التعليل؛ لأنه غيرُ أجنبي.

وجَوَّز بعضُهم على تقدير أن يُرادَ بالأمر ضدُّ النهي كونه مفعولاً له، والعامل فيه «يفرق» أو «أنزلنا» أو «منذرين».

وقرأ زيدُ بن عليٍّ رضي الله عنهما: «أمرٌ» بالرفع[2]، وهي تنصر كونَ انتصابه في قراءة الجمهور على الاختصاص؛ لأنَّ الرفع عليه فيها.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ تعليلٌ لـ «يفرق» أو لقوله

(١) حاشية الشهاب ٨/ ٤.
(٢) الكشاف ٣/ ٥٠١، وتفسير القرطبي ١٩/ ١٠٤.

تعالى: «أمراً من عندنا»، و«رحمةً» مفعول به لـ «مرسلين»، وتنوينها للتفخيم، والجارُّ والمجرور في موضع الصِّفة لها، وإيقاع الإرسال عليها هنا كإيقاعه عليها في قوله سبحانه: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر: ٢].

والمعنى على ما في «الكشاف»[١]: يُفْصَل في هذه الليلة كلُّ أمر، لأنَّ من عادتنا أنْ نُرسل رحمتنا، وفَصْلُ كلِّ أمر من قسمةِ الأرزاق وغيرها من باب الرحمة، أي: إن المقصودَ الأصلي بالذات من ذلك الرحمةُ. أو تصدر الأوامرُ من عندنا، لأنَّ من عادتنا ذلك، والأوامرُ الصادرة من جهته تعالى من باب الرحمة أيضاً، لأن الغايةَ لِتكليف العبادِ تعريضُهم للمنافع. وفيه ـ كما قيل ـ إشارةٌ إلى أنَّ جعلَه تعليلاً لقوله سبحانه: «أمراً من عندنا» إنما هو على تقدير أن يُرادَ بالأمر مقابل النهي، وهو يجري على تقديري المصدرية والحالية.

وفي «الكشف» أن قوله: يُفصَل.. إلخ، أو تصدر الأوامرُ.. إلخ، تبيينٌ لمعنى التعليل على التفسيرين في «يُفرق»؛ لأنه إما بمعنى الفَصْل على الحقيقة من قسمة الأرزاق وغيرها، أو بمعنى: يُؤمر، والشأنُ المطلوب يكون مأموراً به لا محالة، فحاصله يرجعُ إلى قوله: أو تصدر الأوامر من عندنا، لا لوجهي التعليل من تعلُّقه بـ «يفرق» أو بـ «أمراً»، فإن تعلُّقه بـ «أمراً» إنما يصحُّ إذا نُصب على الاختصاص، وإذ ذاك ليس الأمر ما يُقابل النهي؛ لأنَّ الأمرَ إذا كان المقابلَ فهو إما مصدرٌ وإنما يُعلّل فعله، وإما حالٌ مؤكّدة فيكون راجعاً إلى تعليل الإنزال المخصوص، وليس المقصودَ، وإنما لم يذكر المعنى على تقدير تعلُّقه بـ «أمراً» لأن المعنى الأول يصلحُ تفسيراً له أيضاً. انتهى.

والظاهرُ كون ذلك تبييناً لوجهي التعليل، وما ذُكر في نَفْيه لا يخلو عن بحث كما يُعرف بالتأمّل. واعتبار العادة في بيان المعنى جاء من «كُنَّا» فإنه يقال: كان يفعلُ كذا، لِمَا تكرَّر وقوعُه وصار عادةً، كما صرَّحُوا به في الكتب الحديثية وغيرها، ولإفادة ذلك عدل عن: إنا مرسلون، الأَخْصَرِ.

---

(١) ٣/ ٥٠١.

وقوله سبحانه: «من ربك» وُضِعَ فيه الظاهر موضعَ الضمير، والأصلُ: مِنَّا، فجيء بلفظ الربّ مضافاً إلى ضميره ﷺ على وجه تخصيص الخطاب به ﷺ تشريفاً له عليه الصلاة والسلام ودلالةً على أن كونه سبحانه ربَّك وأنت مبعوثٌ رحمةً للعالمين مما يقتضي أَنْ يُرسل الرحمة.

وقال الطيبي: خصَّ الخطاب برسوله عليه الصلاة والسلام، والمراد العموم، والأصل: من ربِّكم، وجيء بلفظ الربِّ لِيُؤْذن بأنَّ الربوبية تقتضي الرحمة على المربوبين، وليكون تمهيدُه يبتنى عليه التعليل الآتي المُتضمِّن للتعريض بواسطة الحَصْر بأنَّ آلهتهم لا تسمع ولا تُبصر ولا تُغني شيئاً. وتُعقِّب بأنه لو أُريد العموم لفاتَتْ النُّكتة المذكورة، ولزم أَنْ يدخلَ المؤمنون في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ وما بعده، وليس المعنى عليه، وفي القلب منه شيء.

وفَسَّر بعضُهم الرحمةَ المُرسلة بنبينا ﷺ، ولا يخفى أنَّ صحةَ التعليل تأبى ذلك.

وجُوِّز أن يكون قوله تعالى: «إنا كنا مرسلين» بدلاً من قوله سبحانه: «إنا كُنَّا منذِرين» ـ الواقعِ تعليلاً لإنزال الكتاب ـ بدلَ كلٍّ أو اشتمالٍ باعتبار الإرسال والإنذار، ويكون «رحمة» حينئذ مفعولاً له، أي: أنزلنا القرآنَ لأنَّ عادتَنا إرسال الرُّسل والكتب إلى العباد لأجل الرحمةِ عليهم، واختيار كون الرحمة مفعولاً له ليتطابق البدلُ والمُبدَل منه، إذْ معنى المُبدل منه: فاعلين الإنذار، ويُطابقه: فاعلين الإرسال، ولم يُجوِّز كونها كذلك على وجه التعليل، بل أوجب كونها مفعولاً به ليصحَّ، إذ لو قيل: فيها تفصيلُ كلِّ شأن حكيم لأنَّا فاعلون الإرسال لأجل الرحمةِ، لم يُفِدْ أنَّ الفَصْلَ رحمةٌ، ولا أنه سبحانه مُرسِلٌ، فلا يستقيم التعليلُ.

قيل: وينصرُ نصبَ «رحمةً» على المفعول له[1] قراءةُ الحسن وزيد بن عليٍّ برفعها، لأنَّ الكلامَ عليه جملةٌ مستأنفةٌ، أي: هي رحمة؛ تعليلاً للإرسال فَيُلائم القولَ بأنها في قراءة النصب مفعولٌ له، وليطابق قراءتهما في كون معنى «إنا كُنَّا مرسلين»: إنا كُنَّا فاعلين الإرسال.

---

(١) قوله: له، ليس في (م).

وقال بعضُ أَجِلَّة المُحققِّين: إنَّ القولَ بأنه تعليلٌ أظهرُ من القول بأنه بدل، ليكون الكلام على نسق في التعليل غبَّ التعليل، ولِمَا ذكر في الحالة المقتضية للإبدال، ولوقوع الفَصْل.

وأشار ـ على ما قيل ـ بما ذَكَر في الحالة المقتضية للإبدال بأنَّ المُبدَل منه غيرُ مقصود، وأنه في حُكم السقوط، وهاهنا ليس كذلك. وتُعقِّب هذا بأنه أغلبيّ لا مُطَّرد. وقوله: لوقوع الفصل، أي: بين البدل والمبدل منه، بأنَّ[1] الفاصلَ غير أجنبي فلا يضرُّ الفصلُ به، فتدبَّر.

وجُوِّز كونُ «رحمة» مصدراً لـ: رحمنا، مُقدَّر، وكونُها حالاً من ضمير «مرسلين» وكونها بدلاً من «أمراً» فلا تَغْفُل.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لكلِّ مسموعٍ، فيسمع أقوالَ العباد ﴿ٱلْعَلِيمُ ۝٦﴾ لكلِّ معلوم، فيعلم أحوالهم. وتوسيطُ الضمير مع تعريف الطرفين لإفادة الحَصْر. والجملةُ تحقيق لربوبيته عز وجل، وأنها لا تحقُّ إلا لمن هذه نُعوتُه. وفي تخصيص «السميع العليم» على ما قال الطيبي إدماجٌ لوعيد الكفار ووعد المؤمنين الذين تلقَّوا الرحمةَ بأنواع الشُّكر.

﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ بدلٌ من «ربك» أو بيانٌ أو نعتٌ.

وقرأ غيرُ واحد من السبعة والأعرج وابن أبي إسحاق وأبو جعفر وشيبة بالرفع[2] على أنه خبٌر آخرُ لـ «إنَّ»، أو خبرُ مبتدأ محذوف، أي: هو ربٌ، والجملةُ مستأنفةٌ لإثباتِ ما قبلَها وتعليلِه.

﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧﴾ أي: إنْ كنتم ممن عنده شيء من الإيقان وطرفٌ من العلوم اليقينية، على أنَّ الوصفَ المتعدِّي مُنَزَّلٌ مَنزلةَ اللازم لِعدم القَصْد إلى ما يتعلَّق به، وجوابُ الشرطِ محذوفٌ، أي: إن كنتم من أهل الإيقان عَلِمْتُم كونَه سبحانه ربَّ السماوات والأرض لأنه من أظهر اليقينيات دليلاً وحينئذ يلزمكم القولُ

---

(١) أي: تعقب بأن...

(٢) قرأ بالرفع نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب. التيسير ص١٩٨، والنشر ٢/ ٣٧١.

بما يقتضيه مما ذكر أولاً، ويجوز أن يكونَ مفعوله مقدَّراً، أي: إنْ كنتم موقنين في إقراركم إذا سُئلتم عمن خلق السماوات والأرض فقلتم: الله تعالى خَلَقهنَّ، والجواب أيضاً محذوفٌ، أي: إنْ كنتم موقنين في إقراركم بذلك عَلِمتم ما يقتضيه مما تقدَّم لظهور اقتضائه إيَّاه. وجعل غيرُ واحد الجوابَ على الوجهين: تحقَّقَ عندكم ما قلناه. ولم يُجوِّزوا جَعْلَه مضمون «رب السماوات» إلخ، لأنه سبحانه كذلك أيقنوا أَمْ لم يُوقنوا، فلا معنى لجعله دالًّا عليه، وكذا جَعْله مضمونَ ما بعدُ، بل هذا مما لا يحسنُ باعتبار العلم أيضاً.

وفي هذا الشرط تنزيلُ إيقانهم منزلةَ عَدَمِهِ لظهور خِلافِهِ عليهم، وهو مرادُ من قال: إنه من باب تنزيل العالم منزلةَ الجاهل لِعدم جَرْيه على موجب العلم.

قيل: ولا يصحُّ أن يقالَ: إنهم نُزِّلوا منزلةَ الشاكِّين؛ لمكان قوله سبحانه بعد: «بل هم في شك» ولا أرى بأساً في أنْ يقال: إنهم نُزِّلوا أولاً كذلك ثم سُجِّل عليهم بالشكّ لأنهم وإن أقروا بأنه عز وجل ربُّ السماوات والأرض لم ينفكُّوا عن الشك؛ لإلحادهم في صفاته سبحانه وإشراكهم به تعالى شأنُه.

وجُوِّز أن يكون «موقنين» مجازاً عن: مريدين الإيقان، والجواب محذوفٌ أيضاً، أي: إنْ كنتم مريدين الإيقان فاعلموا ذلك، وفيه بُعد.

وأما جَعْلُ «إنْ» نافيةً - كما حكاه النيسابوري - فليس بشيء كما لا يخفى.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ جملةٌ مستأنفة مُقرِّرة لما قبلها، وقيل: خبرٌ لمبتدأ محذوف، أي: هو سبحانه لا إله إلا هو؛ وجملةُ المبتدأ وخبره مستأنفةٌ مُقرِّرة لذلك. وقيل: خبرٌ آخرُ لـ «إن» على قراءة «ربُّ السماوات» بالرفع وجعله خبراً. وقيل: خبرٌ له على تلك القراءة وما بينهما اعتراضٌ.

﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾ مستأنفةٌ كما قبلها، وكذا قوله تعالى: ﴿رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٨﴾ بإضمار مبتدأ، أو بدل من «ربُّ السماوات» على تلك القراءة، أو بيانٌ أو نعتٌ له. وقيل: فاعل لـ «يميت»، وفي «يُحيي» ضميرٌ راجعٌ إليه، والكلامُ من باب التنازع، أو إلى «رب السماوات». وقيل: «يحيي ويميت» خبرٌ آخرُ لـ «رب السماوات» وكذا «ربكم». وقيل: هما خبران آخران لـ «إن».

وقرأ ابن أبي إسحاق وابن محيصن وأبو حيوة والزعفراني وابن مقسم والحسن وأبو موسى وعيسى بن سليمان وصالح كلاهما عن الكسائي بالجرِّ بدلاً من «ربِّ السماوات» على قراءة الجرِّ، وقرأ أحمد بن جُبير الأنطاكي بالنصب على المدح[١].

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ﴾ إضرابٌ إبطالي أبطل به إيقانهم لِعدم جَرْيهم على مُوجبه، وتنوين «شكٌّ» للتعظيم، أي: في شكٍّ عظيم.

﴿يَلْعَبُونَ ۝٩﴾ لا يقولون ما يقولون مما هو مطابق لنفس[٢] الأمر عن جِدٍّ وإذعان، بل يقولونه مخلوطاً بِهُزْء ولعب. وهذه الجملة خبرٌ بعد خبر لـ «هم». وجوِّز أن تكون هي الخبر، والظرفُ متعلِّق بالفعل قُدِّم للفاصلة.

والالتفات عن خطابهم لفرط عنادهم وعدم التفاتهم.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ﴾ لترتيب الارتقاب أو الأمر به على ما قبلها، فإن كونهم في شكٍّ يلعبون مما يُوجب ذلك حتماً، أي: فانتظر لهم ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ۝١٠﴾ أي: يوم تأتي بجَدْب ومجاعة، فإنَّ الجائع جدًّا يرى بينه وبين السماء كهيئة الدخان وهي ظُلمة تعرضُ للبصر لِضَعْفه فيتوهَّم ذلك، فإطلاق الدخان على ذلك المرئي باعتبار أن الرائي يتوهَّمه دخاناً، ولا يأباه وَصْفُه بـ: «مبين»، وإرادة الجَدْب والمَجاعة منه مجازٌ من باب ذكر المُسبَّب وإرادة السبب، أو لأن الهواء يتكدَّر سنةَ الجَدْب بكثرة الغبار لِقلَّة الأمطار المُسكنة له، فهو كناية عن الجدب، وقد فَسَّر أبو عُبيدة[٣] الدخان به.

وقال القتبي[٤]: يُسمَّى دخاناً لِيُبس الأرض حتى يرتفع منها ما هو كالدخان. وقال: بعض العرب تسمِّي الشرَّ الغالبَ دخاناً. ووجّه ذلك بأنَ الدخان مما يُتأذَّى به فأُطلق على كلِّ مُؤْذٍ يُشبهه، وأُريد به هنا الجَدْب.

ومعناه الحقيقي معروف. وقياسُ جمعه في القِلَّة: أَدْخِنة، وفي الكَثْرة: دُخْنان،

---

(١) القراءاتان في القراءات الشاذة ص١٣٧، والبحر المحيط ٨/ ٣٣-٣٤.
(٢) في (م): لنفي.
(٣) في مجاز القرآن ٢/ ٢٠٨.
(٤) في تفسير غريب القرآن ص٤٠٢.

نحو غُراب وأَغْربة وغُرْبان، وشَذُّوا في جمعه على فَواعِل فقالوا: دَواخِن، كأنه جمع داخنة تقديراً، وقرينة التجوُّز فيه هنا حالية كما ستعلمه إنْ شاء الله تعالى من الخبر.

والمرادُ باليوم مطلقُ الزمان، وهو مفعولٌ به لـ «ارتقِبْ»، أو ظرف له والمفعول محذوفٌ، أي: ارتقِبْ وعدَ اللهِ تعالى في ذلك اليوم. وبالسماء جهةُ العُلُوّ، وإسنادُ الإتيان بذلك إليها[1] من قَبيل الإسناد إلى السبب، لأنه يحصل بعدم إمطارها، ولم يُسند إليه عز وجل مع أنه سبحانه الفاعلُ حقيقةً ليكون الكلامُ مع سابقه المُتضمِّنِ إسنادَ ما هو رحمةٌ إليه تعالى شأنه على وِزان قوله تعالى: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾.

وتفسير الدخان بما فسَّرناه به مرويٌّ عن قتادة وأبي العالية والنخعي والضحاك ومجاهد ومقاتل، وهو اختيار الفراء والزجاج[2].

وقد رُوي بطرق كثيرة عن ابن مسعود ﷺ؛ أخرج أحمد والبخاري وجماعة عن مسروق قال: جاء رجل إلى عبد الله فقال: إني تركت رجلاً في المسجد يقول في هذه الآية ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ﴾ إلخ: يغشى الناسَ قبل يوم القيامة دخانٌ، فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم، ويأخذ المؤمن منه كهيئة الزكام. فغضب، وكان متكئاً فجلس ثم قال: مَنْ عَلِمَ منكم علماً فليقل به، ومن لم يكن يعلم فليقل: اللهُ تعالى أعلم، فإنَّ من العلم أن يقول لما لا يعلم: اللهُ تعالى أعلم، وسأُحدِّثكم عن الدخان: إنَّ قريشاً لما استصعبت على رسول الله ﷺ، وأبطؤوا عن الإسلام قال: «اللهم أعني عليهم بسبعٍ كسبع يوسف» فأصابهم قحطٌ وجهد حتى أكلوا العظام، فجعل الرجلُ ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينه كهيئة الدخان من الجوع، فأنزل الله تعالى ﴿فَارْتَقِبْ﴾ إلى ﴿أَلِيمٌ﴾ فأُتيَ النبيُّ ﷺ، فقيل: يا رسول الله، استسقِ اللهَ تعالى لمُضَر. فاستسقى لهم عليه الصلاة والسلام، فَسُقُوا، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ الخبر[3].

وفي رواية أخرى صحيحة أنه قال: لمَّا رأى رسول الله ﷺ من الناس إدباراً

(١) في (م): إليهما.
(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٣٩، وللزجاج ٤/ ٤٢٤.
(٣) مسند أحمد (٣٦١٣)، وصحيح البخاري (٤٧٧٤) و(٤٨٠٩)، وصحيح مسلم (٢٧٩٨).

قال: «اللهم سبعاً كسبع يوسف» فأخذتهم سَنَةٌ حتى أكلوا الميتة والجلود والعظام، فجاءه أبو سفيان وناسٌ من أهل مكة فقالوا: يا محمد، إنك تزعُم أنك قد بُعثت رحمةً، وإن قومك قد هَلَكوا، فادعُ اللهَ تعالى لهم، فدعا رسولُ الله ﷺ، فَسُقُوا الغيثَ، فأطبقت عليهم سبعاً فشكا الناسُ كثرةَ المطر فقال: «اللهم حوالينا ولا علينا» فانحدرت السحابةُ عن رأسه فسقي الناس حولهم[١]. قال: فقد مضت آيةُ الدخان، وهو الجوع الذي أصابهم. الحديث[٢].

وظاهره يدل كما في «تاريخ ابن كثير» على أن القصة كانت بمكة، فالآية مكية، وفي بعض الروايات أن قصة أبي سفيان كانت بعد الهجرة، فلعلها وقعت مرتين[٣]. وقد تقدَّم ما يتعلَّق بذلك في سورة المؤمنين[٤].

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق ابن لهيعة عن عبد الرحمن الأعرج أنه قال في هذا الدخان: كان في يوم فتح مكة[٥]. وفي «البحر» عنه أنه قال: «يوم تأتي السماء» هو يوم فتح مكة لمَّا حجبت السماءَ الغبرةُ[٦]. وفي رواية ابن سعد أن الأعرج يروي عن أبي هريرة أنه قال: كان يوم فتح مكة دخان، وهو قول الله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾[٧]. ويحسن على هذا القول أن يكون كناية عمَّا حلَّ بأهل مكة في ذلك اليوم من الخوف والذُّلِّ ونحوهما.

وقال عليٌّ كرم الله تعالى وجهه وابن عمر وابن عباس وأبو سعيد الخدري وزيد بن علي والحسن: إنه دخان يأتي من السماء قبلَ يوم القيامة يدخل في أسماع الكَفَرة حتى يكونَ رأسُ الواحد كالرأس الحنيذ[٨]، ويعتري المؤمن كهيئة الزُّكام،

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٢٠).

(٢) أخرجه بهذه الزيادة البيهقي في دلائل النبوة ٢/ ٣٢٦، وجاء في رواية البخاري (١٠٠٧)، ومسلم (٢٧٩٨) (٣٩): وقد مضت آية الدخان والبطشةُ واللزامُ وآيةُ الروم.

(٣) البداية والنهاية ٤/ ٢٦٦-٢٦٧.

(٤) ١٨/ ١٠٨-١٢٢.

(٥) ذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية، وقال: هذا القول غريب جدًّا، بل منكر.

(٦) البحر المحيط ٨/ ٣٤.

(٧) طبقات ابن سعد ٢/ ١٤٢.

(٨) أي: المشوي؛ حَنَذَ الشاةَ: شواها وجعل فوقها حجارة محماة لتُنْضجها، فهي حنيذ. القاموس (حنذ).

وتكون الأرض كلُّها كبيتٍ أُوقد فيه ليس فيه خصاص[١].

وأخرج ابن جرير عن حذيفة بن اليمان مرفوعاً: «أول الآيات: الدجال، ونزول عيسى، ونار تخرج من قعر عدن أبينَ تسوق الناسَ إلى المحشر، تَقيل معهم إذا قالوا، والدخان»، قال حذيفة: يا رسول الله، وما الدخان؟ فتلا رسول الله ﷺ: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾، وقال: «يملأ ما بين المشرق والمغرب، يمكث أربعين يوماً وليلة، أما المؤمن فيصيبه منه كهيئة الزكمة، وأما الكافر فيكون بمنزلة السكران يخرج من مَنْخِريه وأُذنيه ودُبُره»[٢] فالدخان على ظاهره، والمعنى: فارتقب يومَ ظهور الدخان.

وحكى السفاريني في «البحور الزاخرة» عن ابن مسعود أنه كان يقول: هما دخانان، مضى واحدٌ، والذي بقي يملأ ما بين السماء والأرض، ولا يصيبُ المؤمن إلا بالزكمة، وأما الكافر فيشقُّ مسامعه فيبعث الله تعالى عند ذلك الريح الجنوب من اليمن فتقبض روح كلِّ مؤمن، ويبقى شِرارُ الناس. ولا أظنُّ صحة هذه الرواية عنه.

وحملُ ما في الآية على ما يعمُّ الدخانين لا يخفى حاله.

وقيل: المراد بـ «يوم تأتي السماء» إلخ يوم القيامة، فالدخان يحتمل أن يُراد به الشِّدة والشَّرّ مجازاً، وأن يُراد به حقيقته.

وقال الخفاجي: الظاهر عليه أن يكون قوله تعالى: «تأتي السماء» إلى آخره استعارةً تمثيلية، إذْ لا سماء، لأنه يومٌ تشقَّقُ فيه السماء، فمفرداته على حقيقتها[٣].

وأنت تعلم أنه لا مانع من القول بأنَّ السماء كما سمعت أولاً بمعنى جهة العلوّ، سلَّمنا أنها بمعنى الجِرْم المعروف، لكن لا مانع من كون الدخان قبل تشقُّقها، بأن يكون حين يخرج الناسُ من القبور مثلاً، بل لا مانع من القول بأنَّ المراد من إتيان السماء بدخان استحالتها إليه بعد تشقُّقها وعَوْدِها إلى ما كانت عليه

---

(١) تفسير القرطبي ١٩/١٠٦، وتفسير ابن كثير عند هذه الآية.

(٢) تفسير الطبري ٢١/١٩.

(٣) حاشية الشهاب ٨/٦.

أولاً كما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت:١١] ويكون فناؤها بعد صيرورتها دخاناً.

هذا، والأظهر حمل الدخان على ما روي عن ابن مسعود أولاً؛ لأنه أنسبُ بالسياق، لِمَا أنه في كفار قريش وبيانِ سوء حالهم، مع أن في الآيات بعدُ ما هو أوفقُ به، فوَجْهُ الربط أنه سبحانه لمَّا ذكر من حالهم مقابلَتهم الرحمةَ بالكفران، وأنهم لم ينتفعوا بالمُنزَل والمُنزَل عليه، عقَّب بقوله تعالى شأنه: «فارتقب يوم» إلخ، للدلالة على أنهم أهلُ العذاب والخذلان لا أهل الإكرام والغفران.

﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾ أي: يُحيط بهم، والمرادُ بهم كفار قريش. ومَنْ جعل الدخان ما هو من أشراط الساعة حمل الناسَ على مَنْ أدركه ذلك الوقت، ومَنْ جعل ذلك يوم القيامة حمل الناسَ على العموم. والجملة صفة أُخرى للدخان.

وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ في موضع نصب بقول مقدَّر وقع حالاً، أي: قائلين، أو يقولون: هذا.. إلخ. والإشارة للتفخيم.

وقيل: يجوز أن يكون «هذا عذاب أليم» إخباراً منه عز وجل تهويلاً للأمر، كما قال سبحانه وتعالى في قصة الذبيح: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ [الصافات:١٠٦] فهو استئناف أو اعتراض، والإشارة بـ «هذا» للدلالة على قرب وقوعه وتحقُّقه، وما تقدَّم أولى.

وقوله سبحانه: «ربنا» إلى آخره ـ كما صرَّح به غير واحد من المُفسِّرين ـ وعدٌ منهم بالإيمان إن كَشَفَ جلَّ وعلا عنهم العذاب، فكأنهم قالوا: ربنا إنْ كَشَفْتَ عنا العذاب آمنَّا، لكن عَدَلوا عنه إلى ما في المُنزل إظهاراً لمزيد الرغبة، وحملوه على ذلك لِمَا في بعض الروايات أنه لمَّا اشتدَّ القحطُ بقريش مشى أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ وناشده الرحمَ وواعده إن دعا لهم وزال ما بهم آمنوا.

والمراد بقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ نفي صِدْقهم في الوعد، وأنَّ غرضهم إنما هو كشفُ العذاب والخلاص، أي: كيف يتذكرون، أو من أين يتذكرون

بذلك ويفون بما وعدوه من الإيمان عند كشف العذاب عنهم ﴿وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾﴾ أي: والحال أنهم شاهَدوا من دواعي التذكُّر وموجبات الاتِّعاظ ما هو أعظمُ من ذلك في إيجابهما، حيث جاءهم رسولٌ عظيم الشأن ظاهرٌ أمرُ رسالته بالآيات والمعجزات التي تَخِرُّ لها صمُّ الجبال، أو مُظْهِرٌ لهم مناهجَ الحقّ بذلك.

﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ أي: عن ذلك الرسول عليه الصلاة والسلام، وهو هو، والجملة عطف على قوله تعالى: «وقد جاءهم» إلى آخره. وعطفُها على قوله سبحانه: «ربنا» إلخ لأنه على معنى قالوا: «ربنا» إلخ، ليس بذاك.

و«ثم» للاستبعاد والتراخي الرتبي، وإلا فهُم قد تولَّوا ريثما جاءهم وشاهدوا منه ما شاهدوا مما يوجب الإقبال إليه ﷺ.

﴿وَقَالُوا﴾ مع ذلك في حقِّه عليه الصلاة والسلام: ﴿مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾﴾ أي: قالوا تارة: يعلمه عدَّاس ـ غلامٌ رومي لبعض ثقيف ـ وأُخرى: مجنون، أو يقول بعضهم كذا، وآخرون كذا، ولم يقل: ومجنون، بالعطف؛ لأن المقصودَ تعديدُ قبائحهم.

وقرأ زرُّ بن حُبيش: «معلِّم» بكسر اللام[1]، فـ «مجنون» صفة له، وكأنهم أرادوا: رسولٌ مجنون. وحاشاه ثم حاشاه ﷺ.

﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾﴾ جوابٌ من جهته تعالى عن قولهم، وإخبارٌ بالعود على تقدير الكشف، أي: إن كَشَفنا عنكم العذاب كشفاً قليلاً ـ أو زماناً قليلاً ـ عُدْتُم. والمراد على ما قيل: عائدون إلى الكفر؛ وأنت تعلم أن عَوْدهم إليه يقتضي إيمانهم، وقد مرَّ أنهم لم يُؤمنوا، وإنما وَعَدوا الإيمان؛ فإما أن يكون وعدُهم مُنزَّلاً منزلة إيمانهم، أو المراد: عائدون إلى الثبات على الكفر، أو على الإقرار والتصريح به.

وقال قتادة: هذا توعُّد بمعاد الآخرة. وهو خلافُ الظاهر جدًّا.

ومن قال: إن الدخان يومَ القيامة، قال: إن قوله سبحانه: (إِنَّا كَاشِفُوا) إلى آخره وعدٌ بالكشف، على نحو قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨].

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٤.

ومن قال: المراد به ما هو من أشراط الساعة، قال بإمكان الكشف وعدم انقطاع التكليف عند ظهوره وإن كان من الأشراط، بل جاء في بعض الآثار أنه يمكثُ أربعين يوماً وليلة، فَيُكْشَفُ عنهم فيعودون إلى ما كانوا عليه من الضلال.

وحمله على ما رُوي عن ابن مسعود ظاهرُ الاستقامة لا قيل فيه ولا قال، وقوله سبحانه: «وقد جاءهم» إلخ قويُّ الملاءمة له، وهو بعيدُ الملاءمة للقول المرويِّ عن الأمير كرم الله تعالى وجهه ومن معه، فقد احتيج في تحصيلها إلى جعل الإسناد من باب إسناد حال البعض إلى الكلِّ، أو حمل الناس على الكفار الموجودين في ذلك الوقت. والأمر على القول بأنه ما كان في فتح مكة أهون، إلا أنه مع ذلك ليس كقول ابن مسعود. فتأمل.

﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ هو يوم بدر عند ابن مسعود. وأخرجه عبد بن حُميد وابن جرير عن أُبيّ بن كعب ومجاهد والحسن وأبي العالية وسعيد بن جُبير ومحمد بن سيرين وقتادة وعطية[1]. وأخرجه ابن مردويه عن ابن عباس[2].

وأخرج ابن جرير وعبد بن حُميد بسند صحيح عن عكرمة قال: قال ابن عباس: قال ابن مسعود: البطشة الكبرى يوم بدر، وأنا أقول: هي يوم القيامة[3].

ونقل في «البحر» حكاية أنه يوم القيامة عن الحسن وقتادة أيضاً[4].

والظرف معمولٌ لِمَا دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾ أي: إنا ننتقم يومَ إذ إنا منتقمون، وقيل: لـ «منتقمون»، وردَّه الزجّاج[5] وغيره بأنَّ ما بعد «إنَّ» لا يجوز أن يعمل فيما قبلها.

وقيل: لـ «عائدون» على معنى: إنكم لعائدون إلى العذاب يومَ نبطش.

وقيل: بـ «كاشفو العذاب». وليس بشيء.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٩، وتفسير الطبري ٢١/ ٢٥-٢٧.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٩.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٢٩، وتفسير الطبري ٢١/ ٢٧.

(٤) البحر المحيط ٨/ ٣٥.

(٥) في معاني القرآن ٤/ ٤٢٥.

وقيل: لذكِّرهم، أو: اذكر، مقدَّراً. وقيل: هو بدل من «يوم تأتي» إلخ.

وقرئ: «نبطُش» بضمِّ الطاء.

وقرأ الحسن وأبو رجاء وطلحة بخلاف عنه: «نُبطِش» بضمِّ النون[1]، من باب الإفعال على معنى: نحمل الملائكة عليهم السلام على أن يبطشوا بهم، أو نُمكِّنهم من ذلك، فالمفعول به محذوفٌ للعلم وزيادة التهويل، وجَعْلُ البطشة على هذا مفعولاً مطلقاً على طريقة: «أنبتكم نباتاً». وقال ابن جني وأبو حيان[2]: هي منصوبة بفعل مضمر يدل عليه الظاهر، أي: يوم نُبطِش مَن نُبطِشه فيَبْطِشُ البطشةَ الكبرى. وقال ابن جني: ولك أن تنصبها على أنها مفعول به، كأنه قيل: يوم نُقوِّي البطشةَ الكبرى عليهم ونمكِّنها منهم، كقولك: يوم نُسلِّط القتل عليهم ونُوسِّع الأخذ منهم. وفي «القاموس»: بَطَشَ به يَبْطِشُ ويَبْطُشُ: أخذه بالعنف والسطوة، كأبطشه. والبَطْش: الأخذُ الشديد في كلِّ شيء والبأس[3]. اهـ، فلا تغفل.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ أي: امتحنَّاهم بإرسال موسى عليه السلام إليهم، على أنه مِنْ: فَتَنَ الفضةَ: عرضها على النار، فيكون بمعنى الامتحان، وهو استعارةٌ، والمرادُ: عاملناهم معاملةَ المُمتحِن ليَظْهَر حالُهم لغيرهم، أو: أوقعناهم في الفتنة، على أنه بمعناه المعروف، والمراد بالفتنة حينئذ ما يُفتن به الشخص، أي: يغترّ ويغفلُ عمَّا فيه صلاحه، كما في قوله تعالى: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨] وفُسِّرت هنا بالإمهال وتوسيع الرزق.

وفسَّر بعضهم الفتنةَ بالعذاب، ثم تجوّز به عن المعاصي التي هي سببٌ، وهو تكلُّفُ ما لا داعي له.

وقرئ: «فَتَّنَّا» بتشديد التاء[4]، إما لتأكيد معناه المصدري أو لتكثير المفعول أو الفعل.

﴿وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ أي: مُكرم مُعظَّم عند الله عز وجل، أو عند

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣٧، والمحتسب ٢/ ٢٦٠.

(٢) المحتسب ٢/ ٢٦٠-٢٦١، والبحر المحيط ٨/ ٣٥.

(٣) القاموس المحيط (بطش).

(٤) البحر المحيط ٨/ ٣٥.

المؤمنين، أو عنده تعالى وعندهم، أو كريم في نفسه مُتَّصفٌ بالخِصال الحميدة والصِّفات الجليلة حسباً ونسباً. وقال الراغب: الكرم إذا وُصِفَ به الإنسان فهو اسمٌ للأخلاق والأفعال المحمودة التي تظهر منه، ولا يقال: هو كريم حتى يظهر ذلك منه. ونَقَل عن بعض العلماء أن الكرمَ كالحرية إلا أن الحريةَ قد تُقال في المحاسن الصغيرة والكبيرة، والكرمُ لا يقال إلا في المحاسن الكبيرة(١).

وقال الخفاجيُّ: أصل معنى الكريم: جامع المحامد والمنافع(٢). وادَّعى لذلك أن تفسيره به أحسنُ من تفسيره بالتفسيرين السابقين.

﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ أطلقوهم وسلِّموهم إليَّ، والمراد بهم بنو إسرائيل الذين كان فرعون مستعبدَهم، والتعبير عنهم بـ «عباد الله» للإشارة إلى أن استعبادَه إيَّاهم ظلمٌ منه، والأداء مجازٌ عما ذكر، وهذا كقوله عليه السلام: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ [طه:٤٧] ورُوي ذلك عن ابن زيد ومجاهد وقتادة.

أو: أدُّوا إليَّ حقَّ الله تعالى من الإيمان وقَبول الدعوة يا عبادَ الله، على أن مفعول «أدُّوا» محذوفٌ، و«عباد» منادى، وهو عامٌ لبني إسرائيل والقِبط، والأداء بمعنى الفعل للطاعة وقَبول الدعوة، ورُوي هذا عن ابن عباس.

و«أنْ» عليهما قيل: مصدرية قبلها حرفُ جرٍّ مقدَّر متعلِّق بـ «جاءهم»، أي: بأنْ أدُّوا. وتُعقِّب بأنه لا معنى لقولك: جاءهم بالتأدية إليَّ، وحَمْلُه على طلب التأدية إليَّ لا يخلو عن تعسُّف. ورُدَّ بأنه بتقدير القول، وهو شائعٌ مطَّرد، فتقديرُه بأَنْ قال: أدُّوا إليَّ. ولا يخلو عن تكلُّف ما، ومع هذا، الأمرُ مبنيٌّ على جواز وصل المصدرية بالأمر والنهي، وهو غير متَّفق عليه، نعم الأصح الجواز.

وقيل: هي مخفَّفة من الثقيلة. وتُعقِّب بأنها حينئذ يُقدَّر معها ضمير الشأن، ومفسِّره لا يكون إلا جملةً خبريَّة، وأيضاً لا بدَّ أن يقع بعدَها النفي أو «قد» أو السين أو «سوف» أو «لو»، وأنْ يتقدَّمها فِعْلٌ قلبيٌّ ونحوه.

وأُجيب بأنَّ مجيء الرسول يتضمَّن معنى فعل التحقيق كالإعلام، والفصلُ

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم (كرم).
(٢) حاشية الشهاب ٨/٧.

المذكور غيرُ متَّفق عليه، فقد ذهب المبرِّد تبعاً للبغادِدة إلى عدم اشتراطه، والقول بأنه شاذٌّ يُصان القرآن عن مِثله غيرُ مسلَّم، واشتراطُ كون مُفسِّر ضمير الشأن جملةً خبرية، فيه خلافٌ على ما يُفهم من كلام بعضهم.

ولم يذكر في «المغني» في الباب الرابع في الكلام على ضمير الشأن إلا اشتراطَ كون مُفسِّره جملةً، ولم يشترط فيها الخبرية، ولم يتعرض لخلاف. نعم قال في الباب الخامس: النوع الثامن: اشتراطُهم في بعضِ الجملة الخبرية وفي بعضها الإنشائية، وعَدَّ من الأول خبر «إنَّ» وضمير الشأن، لكنه قال بعد: وينبغي أن يُستثنى من ذلك في خبري «إنَّ» وضمير الشأن خبر «أن» المفتوحة إذا خُفِّفت، فإنه يجوز أن يكون جملةً دعائيَّة، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْخَـٰمِسَةَ أَنْ غَضِبَ اللهُ عَلَيْهَآ﴾ [النور: ٩] في قراءة مَنْ قرأ: «أَنْ» و«غَضِبَ» بالفعل، والاسم الجليل فاعل(١). وحقَّق بعض الأجِلَّة أن الإخبار عن ضمير الشأن بجملة إنشائية جائزٌ عند الزمخشري(٢).

أو هي مفسِّرة، وقد تقدَّم ما يدلُّ على القول دون حروفه، لأن مجيء الرسول يكون برسالة ودعوة، وكأنَّ التفسير لمتعلِّقه المقدَّر، أي: جاءهم بالدعوة، وهي أنْ أدُّوا إليَّ عبادَ الله ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾﴾

﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى ٱللَّهِ﴾ ولا تستكبروا عليه سبحانه بالاستهانة بوحيه جلَّ شأنه ورسولِه عليه الصلاة والسلام، «وأنْ» كالتي قبلها، والمعنى على المصدرية: بكفِّكم عن العلوِّ على الله تعالى.

﴿إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾﴾ تعليلٌ للنهي، أي: آتيكم بحجة واضحة لا سبيلَ إلى إنكارها، أو مُوضحةٍ صِدْقَ دعواي، و«آتيكم» على صيغة الفاعل أو المضارع، ولا يَخْفَى حُسْنُ ذكر الأمين مع الأداء، والسلطانِ مع العلاء.

وذكر «أن» في الأول ترشيحاً للاستعارة المصرحة أو المكنية بجعلهم كأنهم مالٌ للغير في يده أمره بدفعه لمن يُؤتمن عليه، وفي الثاني تورية عن معنى الملك مرشحة بقوله: «لا تعلوا».

(١) مغني اللبيب ص٦٣٧ و٧٦١. والقراءة المذكورة هي قراءة نافع. التيسير ص١٦١، والنشر ٢/ ٣٣٠.

(٢) الكشاف ٣/ ٥٠٢، وينظر حاشية الشهاب ٨/ ٨.

وقرأت فرقة: «أَني» بفتح الهمزة[١]، فقيل: هو أيضاً على تعليل النهي بتقدير اللام. وقيل: هو متعلِّق بما دخله النهي، نظير قولك لمن غضب من قول الحقِّ له: لا تغضب لأَنْ قيل لك الحقّ.

﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ أي: التجأت إليه تعالى وتوكَّلت عليه جل شأنه ﴿أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾﴾ من أنْ ترجموني، أي: تُؤذوني ضرباً أو شتماً، أو أن تقتلوني، وروي هذا عن قتادة وجماعة، قيل: لمَّا قال: أن لا تعلوا على الله، توعَّدوه بالقتل فقال ذلك. وفي «البحر»[٢]: إن هذا كان قبل أن يخبره عز وجل بعجزهم عن رجمه بقوله سبحانه: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ [القصص: ٣٥]. والجملة عطف على الجملة المستأنفة.

وقرأ أبو عمرو والأخوان: «عتُّ» بإدغام الذال في التاء[٣].

﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾﴾ فكونوا بمعزلٍ مني لا عليَّ ولا لي، ولا تتعرَّضوا لي بسوء، فليس ذلك جزاء من يدعوكم إلى ما فيه فلاحُكم.

وقيل: المعنى: وإن لم تؤمنوا لي فلا موالاةَ بيني وبين من لا يؤمن، فتنحَّوا واقطعوا أسبابَ الوصلة عني. ففي الكلام حذفُ الجواب وإقامة المسبَّب عنهُ مقامه، والأول أوفقُ بالمقام، والاعتزالُ عليه عبارةٌ عن الترك وإن لم تكن مفارقةٌ بالأبدان.

﴿فَدَعَا رَبَّهُ﴾ بعد أن أصرُّوا على تكذيبه عليه السلام ﴿أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أي: بأن هؤلاء.. إلخ، فهو بتقدير الباء صلةُ الدعاء، كما يقال: دعا بهذا الدعاء، وفيه اختصار، كأنه قيل: إن هؤلاء قومٌ مجرمون تناهى أمرهم في الكفر وأنت أعلم بهم، فافعل بهم ما يستحقُّونه. قيل: كان دعاؤه عليه السلام: اللَّهمَّ عجِّل لهم ما يستحقُّون بإجرامهم، وقيل: قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ إلى قوله: ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٥-٨٨] وإنما ذكر الله سبحانه السببَ الذي استوجبوا به الهلاك ليعلم منه دعاؤه والإجابة معاً، وأن دعاءه كان على يأسٍ من إيمانهم، وهذا من بليغ اختصارات الكتاب المُعجز.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٥.
(٢) ٨/ ٣٥.
(٣) التيسير ص٤١-٤٢، والنشر ٢/ ١٦. وقرأ بها أبو جعفر وخلف.

وقرأ ابن أبي إسحاق وعيسى والحسن - في رواية - وزيد بن عليٍّ بكسر همزة «أنَّ»[١]، وخُرِّج على إضمار القول، أي: قائلاً: إنَّ هؤلاء.. إلخ.

﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى﴾ وهم بنو إسرائيل ومَن آمن به من القبط ﴿لَيْلًا﴾ بقِطع من الليل، والكلام بإضمار القول؛ إما بعد الفاء، أي: فقال: أَسْرِ.. إلخ، فالفاء للتعقيب والترتيب، والقولُ معطوف على ما قبله. أو قبلها، كأنه قيل: قال، أو فقال: إن كان الأمر كما تقول: فأسر.. إلخ، فالفاء واقعةٌ في جواب شرط مقدَّر، وهو وجوابه مقولُ القول المُقدَّر مع الفاء أو بدونها على أنه استئنافٌ.

والإضمار الأول أولى لقلَّة التقدير، مع أنَّ تقدير «إنْ» لا يناسب، إذ لا شكَّ فيه تحقيقاً ولا تنزيلاً، وجعلها بمعنى «إذا» تكلُّفٌ على تكلُّف. وأبو حيان[٢] لا يُجيز حذفَ الشرط وإبقاء جوابه في مثل هذا الموضع، وقد شنَّع على الزمخشري في تجويزه[٣].

وقرأ نافع وابن كثير: «فاسر» بوصل الهمزة[٤]، مِن سَرى.

﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ يتبعكم فرعون وجنوده إذا علموا بخروجكم، فالجملة مستأنفة لتعليل الأمر بالسُّرَى ليلاً، ليتأخَّر العلم به فلا يُدرَكون، والتأكيد لتقدُّم ما يلوح بالخبر.

﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾ أي: ساكناً كما قال ابن عباس. يقال: رها البحرُ يَرهُو رَهْواً: سكن، ويقال: جاءت الخيلُ رهواً، أي: ساكنة، قال الشاعر:

والخيلَ تمزعُ رهواً في أَعِنَّتها ... كالطير تنجو من الشُّؤْبوب ذي البَرَدِ[٥]

ويقال: افعل ذلك رهواً، أي: ساكناً على هينة، وأنشد غيرُ واحد للقطاميِّ في نعت الركاب:

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣٧.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٣٥.

(٣) الكشاف ٣/ ٥٠٢.

(٤) وهي قراءة أبي جعفر أيضاً. التيسير ص١٢٥، والنشر ٢/ ٢٩٠.

(٥) البيت للنابغة الذبياني، وهو في ديوانه ص٣٤، وتفسير القرطبي ١٩/ ١١٥، والبحر ٨/ ٣١. ورواية الديوان: غرباً، بدل: رهواً. والغَرْب: الفرس الكثير الجري. وتمزع، أي: تُسرع. والشُّؤبوب: الدّفعة من المطر. القاموس (غرب) و(مزع) و(شأب).

يَمشينَ رَهْواً فلا الأعجازُ خاذلةٌ ولا الصدورُ على الأعجاز تَتَّكِلُ[(١)]

والظاهرُ أنه مصدرٌ في الأصل يُؤَوَّل باسم الفاعل. وجُوِّز أن يكون بمعنى الساكن حقيقةً.

وعن مجاهد: رهواً، أي: منفرجاً مفتوحاً. قال أبو عُبيدة[(٢)]: رَهَا الرجلُ يَرهُو رَهْواً: فتح بين رجليه. وعن بعض العرب أنه رأى جملاً فالجاً، أي: ذا سنامين، فقال: سبحان الله تعالى رهو بين سنامين! قالوا: أراد: فرجة واسعة. والظاهر أيضاً أنه مصدر مُؤَوَّل، أو فيه مضاف مقدَّر، أي: ذا فرجة.

قال قتادة: أراد موسى عليه السلام بعد أن جاوز البحر هو ومن معه أن يضربه بعصاه حتى يَلتئم كما ضربه أولاً فانفلق، لئلا يتبعه فرعون وجنوده، فأمر بأنْ يتركه رهواً. أي: مفتوحاً منفرجاً، أو ساكناً على هيئته، قارًّا على حاله من انتصاب الماء وكون الطريق يَبَساً، ولا يضربه بعصاه، ولا يُغير منه شيئاً، ليدخُلَه القِبط فإذا حصلوا فيه أطبقه اللهُ تعالى عليهم، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾ فهو تعليلٌ للأمر بتركه رهواً.

وقيل: «رهواً»: سهلاً. وقيل: يابساً. وقيل: جدداً. وقيل غيرُ ذلك. والكلُّ بيانٌ لحاصل المعنى، وزعم الراغب[(٣)] أن الصحيح أنَّ الرهوَ السعةُ من الطريق، ثم قال: ومنه الرهاء: المفازة المستوية، ويقال لكلِّ جَوْبَة مستوية يجتمع فيها الماء: رهو، ومنه قيل: لا شفعة في رهو[(٤)].

والحقُّ أن ما ذكره من جملة إطلاقاته، وأما أنه الصحيح فلا.

وقرئ: «أنهم» بالفتح[(٥)]، أي: لأنهم.

---

(١) ديوان القطامي ص٢٦.
(٢) كما في البحر ٨/ ٣١، والدر المصون ٩/ ٦٢٢.
(٣) في مفردات ألفاظ القرآن (رهو).
(٤) مأخوذ من حديث أورده أبو عبيد في غريب الحديث ٣/ ١٢١ عن النبيِّ ﷺ أنه قضى أن لا شفعة في فناء ولا طريق ولا منقبة ولا ركح ولا رهو.
(٥) الكشاف ٣/ ٥٠٣.

﴿كَمْ تَرَكُوا﴾ أي: كثيراً تركوا بمصر ﴿مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾ حسن شريف في بابه، وأُريد بذلك كما رُوي عن قتادة المواضع الحسان من المجالس والمساكن وغيرها. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس، وابنُ مردويه عن جابر، أنه أريد به المنابر[١]. وروي ذلك عن مجاهد وابن جُبير أيضاً. وقيل: السرر في الحجال. والأولُ أولى.

وقرأ ابن هرمز وقتادة وابن السَّمَيْفَع ونافع في روايةِ خارجةَ: «مُقام» بضمِّ الميم[٢].

﴿وَنَعْمَةٍ﴾ أي: تنعم. قال الراغب: النَّعمة بالفتح التنعُّم، وبناؤها بناء المَرة من الفعل، كالضَّربة والشَّتمة، والنِّعمة بالكسر الحالة الحسنة، وبناؤها بناء الحالة التي يكون عليها الإنسان، كالجِلْسة والرِّكبة، وتقال للجنس الصادق بالقليل والكثير[٣]. واختير هاهنا تفسير النعمة بالشيء المنعم به لأنه أنسبُ للترك، وهي كثيراً ما تكون بهذا المعنى.

وقرأ أبو رجاء: «ونعمةً» بالنصب[٤]، وخُرِّج بالعطف على «كم». وقيل: هي معطوفة على محلِّ ما قبلها، كأنه قيل: كم تركوا جناتٍ وعيوناً وزرعاً ومقاماً كريماً ونعمة.

﴿كَانُوا فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾﴾ طيبي الأنفس وأصحاب فاكهة، فَفَاكِه، كـ: لابِن، وتامر. وقال القشيري: لاهين.

وقرأ الحسن وأبو رجاء: «فَكِهين» بغير ألف[٥]، والفَكِه يستعمل كثيراً في المُستخفّ المستهزئ؛ فالمعنى: مُستخِفِّين بشكر النعمة التي كانوا فيها. وقال الجوهريُّ: فَكِهَ الرجلُ ـ بالكسر ـ فهو فَكِهٌ، إذا كان مزَّاحاً، والفَكِه أيضاً الأَشِرُ[٦].

(١) الدر المنثور ٦/ ٣٠.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٣٦، وهي غير المشهورة عن نافع.
(٣) مفردات ألفاظ القرآن (نعم).
(٤) البحر المحيط ٨/ ٣٦.
(٥) وهي قراءة أبي جعفر من العشرة. النشر ٢/ ٣٥٤.
(٦) الصحاح (فكه).

﴿كَذَٰلِكَ﴾ قال الزجاج[1]: المعنى: الأمر كذلك، والمراد التأكيدُ والتقرير، فيوقف على «كذلك»، فالكاف في موضع رفع خبر مبتدأ محذوف، أو الجارّ والمجرور كذلك. وقيل: الكاف في موضع نصب، أي: نفعل فعلاً كذلك لمن نريد إهلاكَه. وقول الكلبي: أي: كذلك أفعل بمن عصاني، ظاهر فيما ذكر.

وقال الزمخشري[2]: الكاف منصوبة على معنى: مِثْلَ ذلك الإخراج ـ أي: المفهوم مما تقدَّم ـ أخرجناهم منها.

﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾ عطف على «تركوا»، والجملة معترضة فيما عدا القول الأخير، وعلى «أخرجناهم فيه». وقيل: الكاف منصوبة على معنى: تركوا تركاً مثل ذلك، فالعطف على «تركوا» بدون اعتراض، وهو كما ترى.

والمراد بالقوم الآخرين بنو إسرائيل، وهم مُغايرون للقبط جنساً وديناً، ويُفسِّر ذلك قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الآية:٥٩] وهو ظاهرٌ في أن بني إسرائيل رَجَعوا إلى مصر بعد هلاك فرعون وملكوها، وبه قال الحسن.

وقيل: المراد بهم غير بني إسرائيل ممن ملك مصر بعد هلاك القبط، وإليه ذهب قتادة، قال: لم يُرْوَ في مشهور التواريخ أن بني إسرائيل رَجَعوا إلى مصر، ولا أنهم ملكوها قطّ. وأُوِّلَ ما في سورة الشعراء بأنه من باب: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ [فاطر:١١]، وقولِك: عندي درهمٌ ونصفُه، فليس المرادُ خصوصَ ما تركوه، بل نوعه وما يُشبهه.

والإيراث: الإعطاء. وقيل: المراد من إيراثها إياهم تمكينهم من التصرُّف فيها، ولا يتوقَّف ذلك على رجوعهم إلى مصر كما كانوا فيها أولاً.

وأخذ جمعٌ بقول الحسن وقالوا: لا اعتبار بالتواريخ، وكذا الكتب التي بيد اليهود اليوم؛ لِمَا أن الكذبَ فيها كثير، وحسبنا كتاب الله تعالى، وهو سبحانه أصدقُ القائلين، وكتابه جلَّ وعلا مأمون من تحريف المُحرِّفين.

---

(١) في معاني القرآن ٤/ ٤٢٦.
(٢) في الكشاف ٣/ ٥٠٣.

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ مجاز عن عدمِ الاكتراث بهلاكهم والاعتداد بوجودهم. وهو استعارةٌ تمثيلية تخييلية، شُبِّه حالَ موتهم لشدَّته وعظمته بحال من تبكي عليه السماء والأجرام العظام، وأثبت له ذلك، والنفي تابع للإثبات في التجوُّز كما حقّق في موضعه.

وقيل: هي استعارةٌ مكنية تخييلية؛ بأن شبه السماء والأرض بالإنسان وأسند إليهما البكاء، أو تمثيلية بأن شبّه حالهما في عدم تغير حالهما وبقائهما على ما كانا عليه بحال من لم يبكِ. وليس بشيء كما لا يخفى على من راجع كلامهم.

وقد كثر في التعظيم لمهلك الشخص: بكت عليه السماء والأرض، و: بكته الريح، ونحو ذلك، قال يزيد بن مُفرِّغ:

الريحُ تَبكي شَجْوَه والبرقُ يلمع في غَمَامَهْ[1]

وقال النابغة:

بكى حارثُ الجولانِ مِن فَقْدِ ربِّه وحورانُ منه خاشعٌ متضائلُ[2]

أراد بهما مكانين معروفين، وقال جرير:

لـمَّا أتى خبرُ الزبير تواضَعَتْ سورُ المدينةِ والجبالُ الخُشَّع[3]

وقال الفرزدق يرثي أميرَ المؤمنين عمر بن عبد العزيز:

الشمسُ طالعةٌ ليست بكاسفةٍ تبكي عليك نجومَ الليل والقمرا[4]

يتعجَّب من طلوع الشمس وكان من حقِّها أن لا تطلع، أو تطلعَ كاسفة، والنجوم تُروى منصوبةً ومرفوعة، فالنصب على المغالبة، أي: تغلب الشمسُ النجومَ في البكاء نحو: باكيته فبكيته.

---

(١) ديوان يزيد بن مفرِّغ ص١٤٣، وروايته: فالريح تبكي شجوها... والبرق يضحك في الغمامة.

(٢) ديوان النابغة ص٩١، وفيه: موحش، بدل: خاشع.

(٣) ديوان جرير ٢/ ٩١٣، وسلف ١٦/ ١٩٣.

(٤) البيت لجرير، وليس للفرزدق، وهو في ديوان جرير ٢/ ٧٣٦، وروايته: فالشمس كاسفة ليست بطالعة...، وهو برواية المصنف في الكامل ٢/ ٨٣٣، والعقد الفريد ١/ ٩٦.

قال جار الله: كان ﷺ يتهجَّد بالليل فتبكيه النجوم، ويعدِلُ بالنهار فتبكيه الشمسُ، والشمس غالبةٌ في البكاء؛ لأن العدلَ أفضلُ من صلاة الليل.

والجوهري[١] جعلها منصوبةً بكاسفة، أي: لا تكسف ضوءَ النجوم لِكَثْرة بكائها، وكأنه جعل خَفاءَ النجوم تحت ضوء الشمس كسفاً لها مجازاً. وفيه أن الكسف بالمعنى المذكور غيرُ واضح، وتخلُّل: تبكي، غيرُ مُسْتَفْصَحٍ. وفي «حواشي الصحاح»: الشمس كاسفة ليست بطالعة[٢]. وفيها أن نجومَ الليل ظرفٌ، أي: طول الدهر، كأنه من باب: آتيك الشمسَ والقمرَ، أي: وقتهما، كأنه قيل: تبكي ما يطلع النجوم والقمر، وفيه أنَّ مثل هذا الظرف مسموعٌ لا يثبت إلا بثبت، فكيف يعدل إليه مع المعنى الواضح؟!

وقيل: التقدير: تبكي بكاءَ النجوم، فحذف المضاف. وفيه أنه مما لا يكاد يُفهم. والرفع واضح، والقمر منصوبٌ على أنه مفعول معه.

وهذا استطرادٌ دعانا إليه شهرةُ البيت مع كثرة الخبط فيه.

وأخرج الترمذي وجماعة عن أنس قال: قال: رسول الله ﷺ: «ما من عبد إلا وله في السماء بابان؛ بابٌ يصعدُ منه عَمَلُه، وبابٌ ينزلُ منه رزقُه، فالمؤمن إذا مات فقداه وبكيا عليه» وتلا هذه الآية: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾[٣].

وذُكر أنهم لم يكونوا يعملون على وجه الأرض عملاً صالحاً، فتفقدَهم فتبكي عليهم، ولم يَصْعَدْ لهم إلى السماء من كلامهم ولا من عملهم كلامٌ طَيِّب، ولا عملٌ صالح، فتفقدَهم فتبكي عليهم.

وأخرج البيهقي في «شعب الإيمان» والحاكم وصحَّحه وغيرهما عن ابن عباس

---

(١) الصحاح (كسف).
(٢) وهي رواية الديوان، وقد أشرنا إليها عند تخريج البيت.
(٣) الدر المنثور ٦/ ٣٠، وسنن الترمذي (٣٢٥٥) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه، وموسى بن عبيدة ويزيد بن أبان الرقاشي (وهما من رجال الإسناد) يُضَعَّفان في الحديث.

قال: إنَّ الأرضَ لَتبكي على المؤمن أربعين صباحاً. ثم قرأ الآية[١].

وأخرج ابن المنذر وغيره عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أنه قال: إنَّ المؤمن إذا مات بكى عليه مصلَّاه من الأرض ومصعد عمله من السماء، ثم تلا: (فَمَا بَكَتْ) إلخ[٢]. وجعلوا كلّ ذلك من باب التمثيل.

ومَن أَثْبَتَ ـ كالصوفية ـ للأجرام السماوية والأرضية وسائر الجمادات شعوراً لائقاً بحالها لم يَحْتَجْ إلى اعتبار التمثيل، وأثبت بكاءً حقيقيًّا لها حسبما تقتضيه ذاتها ويَليق بها، أو أوَّله بالحزن أو نحوه وأثبته لها حسب ذلك أيضاً.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عطاء: بكاء السماء حمرةُ أطرافها[٣]. وأخرج ابن أبي الدنيا عن الحسن نحوه، وأخرج عن سفيان الثوري قال: كان يقال: هذه الحمرة التي تكون في السماء بكاءُ السماء على المؤمن[٤].

ولعمري ينبغي لمن لم يضحك من ذلك أن يبكي على عقله. وأنا لا أعتقد أن مَن ذُكر من الأجلَّة كانوا يعتقدونه.

وقيل: إنَّ الآيةَ على تقدير مضاف، أي: فما بكت عليهم سكانُ السماء ـ وهم الملائكة ـ وسكان الأرض ـ وهم المؤمنون ـ بل كانوا بهلاكهم مسرورين. وروي هذا عن الحسن، والأحسن ما تقدَّم.

﴿وَمَا كَانُوا﴾ لمَّا جاء وقت هلاكهم ﴿مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ مُمْهَلين إلى وقت آخر أو إلى يوم القيامة، بل عجّل لهم في الدنيا.

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ بما فعلنا بفرعون وقومه ما فعلنا ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾﴾ من استعباد فرعون وقتله أبناءهم واستحيائه نساءهم على الخسف والضيم.

﴿مِن فِرْعَوْنَ﴾ بدل من «العذاب» على حذف المضاف، والتقدير: من عذاب فرعون، أو جعله ـ عليه اللعنة ـ عين العذاب مبالغةً. وجُوِّز أن يتعلَّق بمحذوف يقع

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٣١، وشعب الإيمان (٣٢٩٠)، ومستدرك الحاكم ٢/ ٤٤٩.
(٢) الدر المنثور ٦/ ٣١.
(٣) الدر المنثور ٦/ ٣١، وتفسير الطبري ٢١/ ٤١.
(٤) الدر المنثور ٦/ ٣١.

حالاً، أي: كائناً من جهة فرعون، وقيل: متعلِّق بمحذوف واقع صفةً، أي: كائناً، أو الكائن من فرعون، ولا بأس بهذا إذا لم يُعدَّ ذلك من حذف الموصول مع بعض صلته.

وقرأ عبد الله: «من عذاب المهين»[1] على إضافة الموصوف إلى صفته، كبقلة الحمقاء.

وقرأ ابن عباس: «مَنْ فرعونُ» على الاستفهام[2] لتهويل العذاب، أي: هل تعرفون مَنْ فرعون في عُتوِّه وشيطنته، فما ظنكم بعذابه؟!. وقيل: لتحقير فرعون بجعله غيرَ معلوم يُسْتفهم عنه كالنكرة، لِمَا فيه من القبائح التي لم يُعهد مثلها، وما بعدُ يناسب ما قبلُ كما لا يخفى. وأيًّا ما كان فالظاهر أن الجملة استئنافٌ. وقيل: إنها مقولُ قولٍ مقدَّرٍ هو صفةٌ للعذاب، وقدّر «المقول» عنده إن كان تعريف العذاب للعهد، و«مقول» إن كان للجنس فلا تغفل.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا﴾ متكبراً ﴿مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ في الشَّرِّ والفساد. والجارُّ والمجرور إما خبر ثانٍ لـ «كان»، أي: كان متكبِّراً مُغرِقاً في الإسراف، وإما حال من الضمير المستتر في «عالياً»، أي: كان متكبّراً في حال إغراقه في الإسراف.

﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ﴾ أي: اصطفينا بني إسرائيل وشرَّفناهم ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: عالمين باستحقاقهم ذلك، أو: مع عِلْم منَّا بما يفرط منهم في بعض الأحوال. وقيل: عالمين بما يصدر منهم من العدل والإحسان والعلم والإيمان. ويرجع هذا إلى ما قيل أولاً، فإن العدلَ وما معه من أسباب الاستحقاق.

وقيل: لأجل علم فيهم، وتُعقِّب بأنه ركيكٌ؛ لأنَّ تنكيرَ العلم لا يُصادف محزَّه. وأُجيب بأنه للتعظيم ويحسن اعتباره علّة للاختيار.

﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ أي: عالَمي زمانهم، كما قال مجاهد وقتادة، فالتعريف للعهد، أو الاستغراق العرفي، فلا يلزم تفضيلهم على أمة محمد ﷺ الذين هم خيرُ أمةٍ أخرجت للناس على الإطلاق. وجُوِّز أن يكون للاستغراق الحقيقي، والتفضيل

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣٨.
(٢) الكشاف ٣/ ٥٠٤.

باعتبار كثرة الأنبياء عليهم السلام فيهم، لا من كلِّ الوجوه حتى يلزم تفضيلهم على هذه الأمة المحمدية.

وقيل: المراد: اخترناهم للإنجاء[1] على الوجه الذي وقع، وخَصصناهم به دون العالمين. وليس بشيء.

ومما ذكرنا يُعلم أنه ليس في الآية تعلُّق حرفَي جرٍّ بمعنًى بمتعلَّقٍ واحد، لأنَّ الأول متعلِّق بمحذوف وقع حالاً، والثاني متعلِّق بالفعل، كقوله:

ويوماً على ظَهْر الكَثيبِ تعذَّرتْ ... عليَّ وآلَتْ حَلْفةً لم تحلَّلِ[2]

وقيل: لأن كلَّ حرف بمعنى.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ﴾ كـ: فَلْق البحر، وتظليل الغمام، وإنزال المَنِّ والسلوى، وغيرها من عظائم الآيات التي لم يُعهد مثلها في غيرهم، وبعضُها وإن أُوتيها موسى عليه السلام يَصْدُقُ عليه أنهم أُوتوه، لأنَّ ما للنبيِّ لأُمَّته.

﴿مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾ أي: نعمة ظاهرة أو اختبار ظاهر لننظر كيف يعملون. وفي «فيه» إشارةٌ إلى أن هناك أموراً أُخرى، ككونه معجزة.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ كفار قريش؛ لأنَّ الكلامَ فيهم، وذكرُ قصة فرعون وقومه استطراديٌّ للدلالةِ على أنهم مِثْلُهم في الإصرار على الضلالة، والإنذارِ عن مثل ما حلَّ بهم، وفي اسم الإشارة تحقيرٌ لهم ﴿لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: ما العاقبةُ ونهايةُ الأمر إلا الموتةُ الأولى المُزيلة للحياة الدنيوية.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾﴾ أي: بمبعوثين بعدها، وتوصيفُها بالأولى ليس لقصد مقابلة الثانية، كما في قولك: حجَّ زيدٌ الحجَّةَ الأُولى، ومات. قال الإسنوي في «التمهيد»[3]: الأول في اللغة: ابتداء الشيء، ثم قد يكون له ثان وقد لا يكون،

---

(١) في (م): للإيحاء.

(٢) البيت لامرئ القيس من معلقته، وهو في ديوانه ص١٢.

(٣) كذا ذكر الشهاب في حاشيته ٨/ ١٠، وعنه نقل المصنف، وكلام الإسنوي في كتابه الكوكب الدري فيما يتخرج على الأصول النحوية من الفروع الفقهية ص٢٤٩.

كما تقول: هذا أولُ ما اكتسبته، فقد تكتسب بعده شيئاً وقد لا تكتسب، كذا ذكره جماعة منهم الواحدي في «تفسيره» والزجاج(١).

ومن فروع المسألة ما لو قال: إن كان أول ولد تَلدينه ذكراً فأنت طالق، تطلق إذا ولدته، وإن لم تَلِدْ غيره بالاتفاق. قال أبو عليٍّ: اتفقوا على أنه ليس من شرط كونه أولاً أن يكون بعده آخر، وإنما الشرط أن لا يتقدَّم عليه غيره. اهـ.

ومنه يعلم ما في قول بعضهم: إن الأول يضايف الآخر والثاني، ويقتضي وجودَه بلا شبهة، والمثال إنْ صحَّ فإنما هو فيمن نوى تعدُّد الحجِّ فاخترمَتْه المنية فَلِحَجِّه ثانٍ باعتبار العزم = من قصور الاطلاع، وأنه لا حاجة إلى أن يقال: إنها أُولى بالنسبة إلى ما بعدها من حياة الآخرة، بل هو في حدِّ ذاته غير مقبول لِمَا قال ابن المُنير من أن الأولى إنما يقابلها أُخرى تُشاركها في أخصِّ معانيها، فكما لا يصحُّ ـ أو: لا يحسن ـ أن يقال: جاءني رجلٌ وامرأة أُخرى، لا يقال: الموتة الأولى بالنسبة لحياة الآخرة(٢).

وقيل: إنه قيل لهم: إنكم تموتون موتة تتعقَّبها حياة كما تقدَّمتكم موتة قد تعقَّبتها حياة، وذلك قوله عز وجل: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة:٢٨] فقالوا: «إن هي إلا موتَتُنا الأولى» يريدون: ما الموتة التي من شأنها أن تتعقَّبها حياة إلا الموتة الأولى دون الثانية، وما هذه الصفة التي تصفون بها الموتةَ من تعقُّب الحياة لها إلا للموتة الأُولى خاصة، وهذا ما ارتضاه جار الله(٣)، وأراد أن النفي والإثبات لَمَّا كان لردِّ المُنكِر المُصِرِّ إلى الصواب كان منزلاً على إنكارهم، لا سيما والتعريف في الأُولى تعريف عهد، وقوله تعالى: ﴿الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ﴾ [الدخان:٥٦] تفسير للمبهم، وهي على نحو: هي العرب تقول كذا، فيتطابقان، والمعهود الموتة التي تعقَّبتها الحياة الدنيوية، ولذلك استشهد بقوله تعالى: (وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا) إلخ، فليس اعتبار الوصف عُدولاً عن الظاهر من غير حاجة، كما قال ابن المُنيِّر.

---

(١) كما في حاشية الشهاب ٨/ ١٠.
(٢) ينظر الانتصاف (بحاشية الكشاف) ٣/ ٥٠٥، وحاشية الشهاب ٨/ ١٠، والكلام منه.
(٣) الكشاف ٣/ ٥٠٥.

وقوله في الاعتراض أيضاً: إن الموت السابق على الحياة الدنيوية لا يُعبَّر عنه بالمَوْتة؛ لأن فيها ـ لمكان بناء المرَّة ـ إشعاراً بالتجدُّد، والموتُ السابق مستصحبٌ لم تتقدَّمه حياة[1] = مدفوع، كما قال صاحب «الكشف». ثم إنه لا يلزم من تفسير الموتة الأُولى بما بعد الحياة في قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الدخان:٥٦] تفسيرها بذلك هنا؛ لأن إيقاع الذوق عليها هناك قرينة أنها التي بعد الحياة الدنيا؛ لأن ما قبل الحياة غير مذوق. ومع هذا كلِّه الإنصافُ أن حمل الموتة الأولى هنا أيضاً على التي بعد الحياة الدنيا أظهرُ من حملها على ما قبلَ الحياة من العدم، بل هي المُتبادرةُ إلى الفَهم عند الإطلاق، المعروفةُ بينهم، وأمرُ الوصف بالأُولى على ما سمعت أولاً.

وقيل: إنهم وُعدوا بعد هذه الموتة موتة القبر وحياة البعث، فقوله تعالى عنهم: «إن هي إلا موتتنا الأولى» ردٌّ للموتة الثانية، وفي قوله سبحانه: «وما نحن بمنشرين» نفي لحياة القبر ضمناً، إذ لو كانت بدون الموتة الثانية لَثبت النشر ضرورة.

﴿فَأْتُوا بِـَٔابَآئِنَآ﴾ خطابٌ لمن وعدهم بالنشور من الرسول ﷺ والمؤمنين، أي: فأتوا لنا بمن مات من آبائنا ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ في وعدكم، ليدلَّ ذلك على صدقكم، ودلالة الإيقان إما لمجرَّد الإحياء بعد الموت، وإما بأن يسألوا عنه. قيل: طلبوا من الرسول عليه الصلاة والسلام أن يدعوَ الله تعالى فيحيي لهم قصي بنَ كلاب لِيشاوروه في صحَّة النبوَّة والبعث؛ إذ كان كبيرَهم ومستشارَهم في النوازل.

﴿أَهُمْ خَيْرٌ﴾ في القوَّة والمَنَعة ﴿أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ هو تُبَّع الأكبر الحِميري، واسمه: أسعدُ، بهمزة، وفي بعض الكتب: سعد، بدونها، وكنيته: أبو كرب، وكان رجلاً صالحاً. أخرج الحاكم وصحَّحه عن عائشة قالت: كان تُبَّع رجلاً صالحاً، ألا ترى أن الله تعالى ذمَّ قومَه ولم يَذُمَّه[2]. وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس: لا يشتبهنَّ عليكم أمرُ تُبَّع، فإنه كان مسلماً[3].

(١) الانتصاف٣/ ٥٠٥.
(٢) الدر المنثور ٦/ ٣١، والمستدرك ٢/ ٤٥٠.
(٣) الدر المنثور ٦/ ٣١، وتاريخ مدينة دمشق ١١/ ٦.

وأخرج أحمد والطبراني وابن أبي حاتم وابن مردويه عن سهل بن سعد الساعدي قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تَسُبُّوا تُبَّعاً؛ فإنه كان قد أسلم»[1].

وأخرج ابن عساكر[2] وابن المنذر عن ابن عباس قال: سألت كعباً عن تُبَّع، فإني أسمع اللهَ تعالى يذكر في القرآن قومَ تُبَّع ولا يذكر تُبَّعاً؟! فقال: إن تُبَّعاً كان رجلاً من أهل اليمن ملكاً منصوراً، فسار بالجيوش حتى انتهى إلى سمرقند، فَرجَعَ فأخذ طريقَ الشام، فأَسرَ بها أحباراً فانطَلَق بهم نحو اليمن حتى إذا دنا من مكة[3] طار في الناس أنه هادم الكعبة، فقال له الأحبار: ما هذا الذي تُحدِّث به نفسك، فإن هذا البيت لله تعالى وإنك لن تُسلَّط عليه. فقال: إن هذا لله تعالى، وأنا أحقُّ من حرَّمه، فأسلم من مكانه وأحرم فدخلها محرماً، فقضى نُسكه ثم انصرف نحو اليمن راجعاً حتى قَدِمَ على قومه، فدخل عليه أشرافهم فقالوا: يا تُبَّع أنت سيِّدُنا وابن سيِّدِنا، خرجتَ من عندنا على دينٍ، وجئتَ على غيره، فاختر منَّا أحدَ أمرين؛ إما أن تُخلِّينا ومُلكَنا وتعبد ما شئتَ، وإما أن تَذَرَ دينك الذي أحدثتَ. وبينهم يومئذ نارٌ تنزلُ من السماء، فقال الأحبار عند ذلك: اجعل بينكَ وبينهم النار. فتواعدَ القومُ جميعاً على أن يجعلوها بينهم، فجيء بالأحبار وكتبهم، وجيء بالأصنام وعُمَّارها، وقَدِموا جميعاً إلى النار، وقامت الرجالُ خلفهم بالسيوف، فهدرت النارُ هديرَ الرعد، ورمَتْ شعاعاً لها، فنكص أصحاب الأصنام وأقبلت النار فأحرقت الأصنام وعُمَّارها، وسَلِمَ الآخرون، فأسلم قومٌ واستسلم قومٌ، فلبثوا بعد ذلك عُمرَ تُبَّع، حتى إذا نزل بِتُبَّع الموت استخلف أخاه، وهلك، فقتلوا أخاه وكفروا صفقة واحدة.

وفي رواية عن ابن عباس: أن تُبَّعاً لما أقبل من الشرق بعد أن حيَّر الحِيْرة، أي: بناها ونظم أمرها ـ وهي بكسر الحاء المهملة وياء ساكنة، مدينة بقرب

(١) الدر المنثور ٦/ ٣١، ومسند أحمد (٢٢٨٨٠)، ومعجم الطبراني الكبير (٦٠١٣). قال ابن حجر في الكافي الشاف ص١٤٨: فيه ابن لهيعة عن عمرو بن جابر، وهما ضعيفان. اهـ. وينظر تفسير ابن كثير عند هذه الآية.

(٢) تاريخ دمشق ١١/ ٨، والكلام من الدر المنثور ٦/ ٣١-٣٢.

(٣) في الأصل و(م) والدر المنثور: ملكه، والمثبت من تاريخ دمشق، وهو أوجه.

الكوفة ـ وبنى سمرقند، وهي مدينة بالعجم معروفة، وقيل: إنه هدمها، وقصد المدينةَ، وكان قد خلَّف بها حين سافر ابناً له فَقُتِلَ غِيلة، فأجمع على خرابها واستئصال أهلها، فجمع له الأنصار وخرجوا لقتاله، وكانوا يُقاتلونه بالنهار ويَقرونه بالليل، فأعجبه ذلك وقال: إن هؤلاء لكرامٌ. فبينما هو على ذلك إذ جاءه كعب وأسد ابنا عَمٍّ من قُريظة حِبْران، وأخبراه أنه يُحال بينك وبين ما تُريد، فإنها مُهاجَرُ نبيٍّ من قريش اسمه: محمد ﷺ، ومولده بمكة، فثناه قولُهما عمَّا يُريد، ثم دَعَواه إلى دينهما فاتَّبعهما وأكرمهما، فانصرفوا عن المدينة ومعهم نفرٌ من اليهود، فقال له في الطريق نفر من هُذيل: نَدُلُّك على بيت فيه كنزٌ من لؤلؤ وزبرجد وذهب وفضَّة بمكة، وأرادت هُذيل هلاكه؛ لأنهم عرفوا أنه ما أراده أحدٌ بسوء إلا هلك، فذكر ذلك للحِبْرين فقالا: ما نعلم لله عز وجل بيتاً في الأرض اتَّخذه لنفسه غيرَ هذا، فاتَّخِذْه مسجداً وانسك عنده واحلق رأسَك، وما أراد القومُ إلا هلاكَك. فأكرمه وكساه، وهو أول من كسى البيت، وقطع أيدي أولئك النَّفر من هُذيل وأرجلهم وسَمَلَ أعينهم وصَلَبهم[1].

وفي رواية أنه قال للحِبْرين حين قالا له ما قالا: وأنتما ما يمنعكما من ذلك؟ فقالا: أما والله إنه لبيتُ أبينا إبراهيم عليه السلام، وإنه لَكَما أخبرناك، ولكن أهله حالوا بيننا وبينه بالأوثان التي نصبوها حوله وبالدماء التي يريقونها عنده، وهم نجسٌ أهلُ شرك، فعرف صِدْقَهما ونُصْحَهما، فطاف بالبيت ونحر وحلق رأسه، وأقام بمكة ستةَ أيام فيما يذكرون ينحر للناس ويُطعم أهلها ويسقيهم العسل.

وقيل: إنه أراد تخريبَ البيت، فرُميَ بداء عظيم فكفَّ عنه وكساه.

وأخرج ابن عساكر عن ابن إسحاق أن تُبَّعاً أُري في منامه أن يكسو البيت، فكساه الخَصَف، ثم أُري أن يكسوه أحسنَ من ذلك، فكساه المَعَافر، ثم أُري أن يكسوه أحسن من ذلك، فكساه الوصائل وصائل اليمن، فكان ـ فيما ذُكر لي ـ أول من كساه، وأوصى بها ولاته من جُرْهُم وأَمَر بتطهيره، وجعل له باباً ومفتاحاً.

---

(١) ذكر هذا الخبر أبو حيان في البحر المحيط ٨/ ٣٩، وهو مذكور في التيجان في ملوك حمير لابن هشام ص٣٠٥-٣٠٦، وما بعده مذكور فيه أيضاً.

وفي رواية أنه قال أيضاً: ولا تقربوه دماً ولا ميتاً ولا تَقْرَبْه حائض[(١)].

وفي «نهاية» ابن الأثير في الحديث أن تُبَّعاً كسى البيتَ المُسوح، فانتفض البيتُ منه ومَزَّقه عن نفسه، ثم كساه الخَصَف فلم يقبله، ثم كساه الأنطاع[(٢)]. وفي موضع آخر منها أن أول من كسى الكعبة كسوةً كاملةً تُبّع، كساها الأنطاع، ثم كساها الوصائل[(٣)].

والخَصَف؛ فَعَلٌ بمعنى مفعول من الخَصْف، وهو ضمُّ الشيء إلى الشيء، والمرادُ: شيء منسوجٌ من الخُوص على ما هو الظاهر.

وقيل: أُريد به هاهنا الثياب الغِلاظ جدًّا تشبيهاً بالخصف المذكور.

والمعَافر: بُرُود من اليمن منسوبة إلى معافر قبيلة بها، والميم زائدة.

والوصائل: ثيابٌ حُمْر مُخطَّطة يمانية.

والمسوحُ، جمع مِسْح بكسر الميم وسكون المهملة: أثوابٌ من شعر غليظة.

والأنطاع، جمع نِطْع بالكسر وبالفتح وبالتحريك: بُسُط من أَديم.

وأخرج ابن سعد وابن عساكر عن أُبيّ بن كعب قال: لما قَدِمَ تُبّع المدينةَ ونزل بفنائها بَعَثَ إلى أحبار يهود فقال: إني مُخرِّب هذا البلد حتى لا تقوم به يهودية ويرجع الأمر إلى دين العرب. فقال له شامول اليهودي وهو يومئذ أعلمهم: أيُّها المَلِكُ إنَّ هذا بلدٌ يكون إليه مهاجَرُ نبيٍّ من بني إسماعيل مولده بمكة، اسمه: أحمد، وهذه دار هجرته. إلى أن قال: قال: وما صفته؟ قال: رجل ليس بالقصير ولا بالطويل في عينيه حُمرة، يركب البعير، ويلبس الشملة، سيفه على عاتقه لا يُبالي من لاقى حتى يظهر أمره. فقال تُبّع: ما إلى هذا البلد من سبيل، وما كان ليكون خرابها على يدي[(٤)].

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٣٢، وتاريخ دمشق ١١/ ١٦، وهو مذكور أيضاً في التيجان ص٣٠٦-٣٠٧.

(٢) النهاية (خصف).

(٣) النهاية (وصل).

(٤) الدر المنثور ٦/ ٣٢، وفيه: شابور، بدل: شامول، والخبر في طبقات ابن سعد ١/ ١٥٩، وتاريخ دمشق ١/ ١٥٩.

وذكر أبو حاتم الرياشي أنه آمن بالنبيِّ ﷺ قبل أن يبعث بسبع مئة سنة، وقيل: بينه وبين مولده عليه الصلاة والسلام ألف سنة. والقولان يَدُلَّان على أنه قبلَ مبعث عيسى عليه السلام.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: لا تقولوا في تُبَّع إلا خيراً، فإنه قد حجَّ البيت وآمن بما جاء به عيسى ابن مريم[1]. وهو يدلُّ على أنه بعد مبعث عيسى عليه السلام، والأول أشهر.

ومن حديث عبَّاد بن زياد المريِّ أنه لما أخبره اليهود أنه سيخرج نبيٌّ بمكة يكون قرارُه بهذا البلد ـ يعني المدينة ـ اسمه: أحمد، وأخبروه أنه لا يُدرِكه، قال للأوس والخزرج: أقيموا بهذا البلد، فإنْ خرج فيكم فوازِروه، وإن لم يخرج فأَوصوا بذلك أولادَكم، وقال في شعره:

حُدِّثت أن رسول المَليك يخرج حقًّا بأرض الحرم
ولو مدَّ دهري إلى دهرِه لكنتُ وزيراً له وابنَ عم[2]

وفي «البحر»[3] بدل البيت الأول:

شهدتُ على أحمدٍ أنه رسولٌ من الله باري النَّسم[4]

وفيه أيضاً رواية عن ابن إسحاق وغيره أنه كتب أيضاً كتاباً وكان فيه: أما بعد: فإني آمنتُ بك وبكتابك الذي أُنزل عليك، وأنا على دينكَ وسُنَّتك، وآمنتُ بربِّك وربِّ كلِّ شيء، وآمنت بكلِّ ما جاء من ربِّك من شرائع الإسلام، فإنْ أدركتُكَ فبها ونِعْمَتْ، وإن لم أُدركك فاشفع لي، ولا تنسني يومَ القيامة، فإني من أُمَّتك الأولين وتابعيك قبلَ مجيئك، وأنا على مِلَّتك ومِلَّة أبيك إبراهيم عليه السلام. ثم ختم الكتابَ ونقشَ عليه: لله الأمرُ مِنْ قَبْلُ ومِنْ بَعْدُ. وكتب عنوانه: إلى محمد بن

(١) الدر المنثور ٦/ ٣١.
(٢) الدر المنثور ٦/ ٣٢، وتاريخ دمشق ١١/ ١٨-١٩.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٣٨.
(٤) وذكره أيضاً هكذا ابن هشام في التيجان ص٣٠٨، وابن رشيق في العمدة ٢/ ٢٢٦.

عبد الله نبيِّ الله ورسوله، خاتم النبيين ورسول ربِّ العالمين ﷺ، من تُبَّع الأوَّل[١]. ودَفَعه إلى عظيم من الأوس والخزرج وأَمَره أن يدفعه للنبيِّ عليه الصلاة والسلام إن أدركه.

ويقال: إنه بنى له داراً في المدينة يسكنها إذا أدركه ﷺ وقدم إليها، وأن تلك الدار دار أبي أيوب خالد بن زيد، وأن الشعر والكتاب وصلا إليه وأنه من ولد ذلك الرجل الذي دُفعا إليه أولاً، ولما ظهر النبيُّ عليه الصلاة والسلام دفعوا الكتاب إليه، فلما قُرئ عليه، قال: «مرحباً بِتُبَّع الأخ الصالح». ثلاثَ مرات[٢].

وجاء أنه ﷺ صلَّى عليه صلاة الجِنازة، وكذا على البراء بن معرور بعد وفاته بشهر يوم قدومه عليه الصلاة والسلام المدينةَ[٣] كما قال النجم الغَيْطي[٤]: وكانت صلاة الجنازة قد فرضت تلك السنة.

وكون هذا هو تُبَّع الأول، ويقال له: الأكبر، هو المذكور في غير ما كتاب، وذكر عبد الملك بن عبد الله بن بدرون في شرحه لقصيدة ابن عبدون أن أسعد هذا هو تُبَّع الأوسط، وذكر أيضاً أن ملكه ثلاث مئة وعشرين سنة، وملك بعده عمرو أربعاً وستين سنة.

وقال ابن قتيبة[٥]: حسان وهو الذي قتل زرقاء اليمامة وأباد جديساً، وكان مُلكه خمساً وعشرين سنة.

والتواريخ ناطقة بتقدُّم تبابعة عليه، فإن تُبَّعاً يقال لمن مَلَك اليمنَ مطلقاً، كما يقال لملك التُّرك: خاقان، والروم: قيصر، والفرس: كسرى، أَوْ لا يسمى به

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٨، وهو في تفسير القرطبي ١٩/ ١٢٧-١٢٨.
(٢) أورده العيني في عمدة القاري ٤/ ١٧٦ وعزاه لمحمد بن إسحاق في كتابه المبتدأ وقصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.
(٣) أخرجه البيهقي ٤/ ٤٩ مرسلاً وموصولاً.
(٤) هو محمد بن أحمد بن علي السكندري الغَيْطي الشافعي، له: قصة المعراج، والإسلام والإيمان، توفي سنة (٩٨١هـ). شذرات الذهب ١٠/ ٥٩٥، والأعلام للزركلي ٦/ ٦.
(٥) المعارف ص٦٣٢.

إلا إذا كانت له حمير وحضرموت كما في «القاموس»[1]، أو إلا إذا كانت له حمير وسبأ وحضرموت، كما ذكره الطيبيُّ.

والمتصف بذلك غير واحد كما لا يخفى على من أحاط خبراً بالتواريخ. وما تقدَّم من حكاية أنه هدم سمرقند، ذَكَر عبدُ الملك خلافَه ونسب هدمها إلى شمر بن إفريقيس ابن أبرهة أحد التبابعة أيضاً، كان قبل تُبَّع المذكور بكثير، قال: إن شمر خرج نحو العراق ثم توجَّه يريد الصين ودخل مدينة الصغد فهدمها، وسميت شمركند، أي: شمر خربها، وعُرِّبت بَعْدُ، فقيل: سمرقند[2]. اهـ.

وحكاية البناء يمكن نسبتها إلى شمر هذا فإن كند في لغة أهل أذربيجان ونواحيها ـ على ما قيل ـ بمعنى القرية، فسمرقند بمعنى قرية شمر، وهو أوفق بالبناء.

وذكر علَّامة عصره الملا أمين أفندي العمري المَوْصلي تغمَّده الله تعالى برحمته في كتابه «شرح ذات الشفاء» أن تُبَّعاً الذي ذُكر سابقاً هو ابن حسان، وأنه مَلَك الدنيا كلَّها، وأنه يقال له: الرائش؛ لأنه راش الناس بالعطاء. ولعل ما قاله قولٌ لبعضهم، وإلا فقد قال ابن قتيبة[3]: إنه ابن كليكرب.

وفي شرح قصيدة ابن عبدون أن الرائش لقب الحارث بن بدر أحد التبابعة، وهو قبل أسعد المتقدِّم ذِكْره بزمان طويل جدًّا، وهو أيضاً ممن ذكر نبيَّنا ﷺ في شعره فقال:

ويملك بعدهم رجلٌ عظيم ... نبيٌّ لا يرخِّص في الحرام
يسمى أحمداً يا ليت أني ... أُعمَّر بعد مَخرجه بعام[4]

ثم إن مُلْكَه الدنيا كلَّها غيرُ مسلَّم. وبالجملة الأخبار مضطربة في أمر التبابعة وأحوالهم وترتيب ملوكهم، بل قال صاحب «تواريخ الأمم»: ليس في التواريخ أسقمُ من تاريخ ملوك حمير؛ لِمَا يذكر من كثرة عدد سنينهم مع قلَّة عدد ملوكهم،

---

(١) مادة (تبع).
(٢) ينظر التيجان ص٢٣٧، والمعارف ص٦٢٩.
(٣) المعارف ص٦٣١.
(٤) المعارف ص٦٢٧.

فإن ملوكهم ستَّة وعشرون ومدَّتهم ألفان وعشرون سنة[١].

وقال بعض: إن مدَّتهم ثلاثة آلاف واثنان وثمانون سنة، ثم ملك من بعدهم اليمنَ الحبشةُ.

والله تعالى أعلم بحقيقة الحال، والقَدْرُ المُعوَّل عليه هاهنا أن تُبعًّا المذكور هو أسعد أبو كرب، وأنه كان مؤمناً بنبيِّنا ﷺ، وكان على دين إبراهيم عليه السلام ولم يكن نبيًّا، وحكاية نبوَّته عن ابن عباس ﷺ لا تصحُّ، وإخباره بمبعثه ﷺ لا يقتضيها، لأنه عَلِمَ ذلك من أحبار اليهود، وهم عرفوه من الكتب السماوية.

وما روي من أنه عليه الصلاة والسلام قال: «ما أدري أكان تُبَّع نبيًّا أو غيرَ نبيٍّ» لم يثبت، نعم روى أبو داود والحاكم أنه عليه الصلاة والسلام قال: «ما أدري أذو القرنين هو أم لا»[٢] وليس فيه ما يدل على التردُّد في نبوَّته وعدمها، فإن ذا القرنين ليس بنبيٍّ على الصحيح، ثم إن الظاهر أنه عليه الصلاة والسلام درى بعدُ أنه ليس ذا القرنين.

وقال قوم: ليس المراد بتُبَّعٍ هاهنا رجلاً واحداً إنما المراد ملوكُ اليمن. وهو خلافُ الظاهر، والأخبار تُكذِّبه.

ومعنى تُبَّع: متبوع، فهو فعّل بمعنى مفعول، وقد يجيء هذا اللفظ بمعنى فاعل كما قيل للظل: تُبَّع، لأنه يتبع الشمس، ويقال لملوك اليمن: أقيال، مِن: تَقَيَّل فلان أباه، إذا اقتدى به؛ لأنهم يقتدى بهم، وقيل: سُمِّي ملكهم قَيْلاً لنفوذ أقواله، وهو مُخفَّف قَيِّل كميِّت.

﴿وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: قبل قوم تُبَّع كعادٍ وثمود، أو قبل قريش، فهو تعميمٌ بعد تخصيص ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ استئناف لبيان عاقبة أمرهم هدَّد به كفار قريش، أو حال بإضمار «قد» أو بدونه من الضمير المستتر في الصلة، أو خبر عن الموصول إن جعل مبتدأ ولم يعطف على ما قبله.

---

(١) وذكر ذلك ابن الوردي في تاريخه ١/ ٩٣.

(٢) لم نقف عليه بهذا اللفظ، والذي في سنن أبي داود (٤٦٧٤)، والمستدرك ٢/ ٤٥٠ من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «ما أدري أتُبَّع لعينٌ هو أم لا، وما أدري أعُزير نبيٌّ هو أم لا». وفي المستدرك: أذو القرنين، بدل: أعُزير. وينظر ما سلف عند تفسير الآية (٨٤) من سورة الكهف.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ تعليلٌ لإهلاكهم، أي: أهلكناهم بسبب كونهم مجرمين فَلْيحذر كفار قريش الإهلاك لإجرامهم.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: ما بين الجنسين، وهو شامل لما بين الطبقات.

وقرأ عُبيد بن عمير: «وما بينهن»[1] فالضمير لمجموع السماوات والأرض.

﴿لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ أي: عابثين، وهو دليلٌ على وقوع الحشر كما مرَّ في «الأنبياء»[2] وغيرها.

﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ﴾ أي: وما بينهما ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ استثناءٌ مفرغ من أعمِّ الأحوال، أي: ما خلقناهما مُلتبسين بشيء من الأشياء إلا مُلتبسين بالحق، فالجارُّ والمجرور في موضع الحال من الفاعل، وجُوِّز أن يكون في موضع الحال من المفعول، والباء للملابسة فيهما. وجُوِّز أن تكون للسببية، والاستثناء مُفرَّغ من أعمِّ الأسباب، أي: ما خلقناهما بسببٍ من الأسباب إلا بسبب الحقِّ الذي هو الإيمان والطاعة والبعث والجزاء، والملابسة أظهر.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ تذييل وتجهيل فخيمٌ لمنكري الحشر، وتوكيدٌ لأنَّ إنكارهم يؤدي إلى إبطال الكائنات بأسرها ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥] ولهذا قال المؤمنون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ أي: فصل الحقِّ عن الباطل. والمُحقِّ عن المُبطل بالجزاء، أو فصل الشخص عن أحبابه وذوي قرابته.

﴿مِيقَٰتُهُمْ﴾ وقت وعدهم ﴿أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾﴾ وقرئ: «ميقاتَهم» بالنصب[3] على أنه اسم «إنَّ» والخبر «يوم الفصل»، أي: إن ميعاد حسابهم وجزائهم في يوم الفصل، وليس مثل: إن حراسنا أسداً[4].

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٩.
(٢) في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الآية: ١٦].
(٣) الكشاف ٣/ ٥٠٥، والبحر المحيط ٨/ ٣٩.
(٤) قطعة من بيت سلف عند تفسير الآية (١٩٤) من سورة الأعراف.

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى﴾ بدل من «يوم الفصل»، أو عطفُ بيانٍ عند مَن لا يشترط المطابقة تعريفاً وتنكيراً. وجوِّز نصبه بأعني مقدَّراً، وأن يكون ظرفاً لِمَا دَلَّ عليه الفصل لا له، للفصل بينه وبينه بأجنبي، وهو مصدر لا يعمل إذا فُصِل لِضَعْفه، أَوْ له على قولِ مَن اغتفر الفصل إذا كان المعمولُ ظرفاً كابن الحاجب والرضي.

وجوَّز أبو البقاء[1] كونه صفةً لـ «ميقاتُهم».

وتُعُقِّب بأنه جامدٌ نكرة لإضافته للجملة، فكيف يكون صفةً للمعرفة، مع أنه لا يصح بناؤه عند البصريين إذا أضيف إلى جملة صدرها مُعْرَبٌ، وهو المضارع؟

أي: يوم لا يجزي ﴿مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا﴾ من الإغناء، أي: الإجزاء، فـ «شيئاً» منصوب على المصدرية، ويجوز كونه مفعولاً به، و«يغني» بمعنى يدفع وينفع. وتنكير «شيئاً» للتقليل. والمولى: الصاحب الذي من شأنه أن يتولَّى معونة صاحبه على أموره، فيدخل في ذلك ابن العمِّ والحليف والعتيق والمُعتق وغيرهم، وذكر الخفاجي[2] أنه من الولاية، وهي التصرُّف، فيشمل كلَّ من يتصرَّف في آخر لأمرٍ ما، كقرابة وصداقة، وهو قريب مما ذكرنا. وأيًّاما كان فليس ذلك من استعمال المشترك في أكثر من معنى واحد، ولو سلم أن هناك مشتركاً استعمل في أكثر من معنى كانت الآية دليلاً لابن الهمام عليه الرحمة في جواز ذلك في النفي، فيقال عنده: ما رأيت عيناً، ويراد العين الباصرة وعين الذهب وغيرها. ويعلم من نفي إغناء المولى نفي إغناء غيره من باب أولى.

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ الضمير عند جمع للمولى الأول ـ والجمع باعتبار المعنى لأنه نكرة في سياق النفي، فهي تعمُّ ـ دون الثاني، لأنه أفيدُ وأبلغُ؛ لأن حال المولى الثاني نُصرته معلوم من نفي الإغناء السابق، ولأنه إذا لم يَنصر مَن اسْتَنَد إليه فكيف هو؟ وأيضاً وجه جمع الضمير فيه أظهر. وجُوِّز عودُه على الثاني للدلالة على أنه لا ينصره غير مولاه، وهو في سياق النفي أيضاً وإن لم يكن في ذلك بمرتبة الأول. نعم قيل في وجه الجمع عليهما: إن النكرة في سياق النفي تدلُّ على كلِّ فردٍ فردٍ فلا يرجعُ الضميرُ لها جمعاً.

(١) إملاء ما من به الرحمن (بهامش الفتوحات الإلهية) ٤/ ٣١١.
(٢) حاشية الشهاب ٨/ ١١.

وأُجيب بأنه لا يطَّرد؛ لأنها قد تحمل على المجموع بقرينةِ عودِ ضمير الجمع عليها، ولعل الأولى عودُ الضمير على المولى المفهوم من النكرة المنفية.

وقال بعض: لو جعل الضمير للكفار كضمير «ميقاتهم» كثرت الفائدة وقلَّت المؤنة. فتأمَّل.

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾ في محلٍّ رفع على أنه بدل من ضمير «ينصرون»، أو في محلٍّ نصب على الاستثناء منه، أي: لا يمنع من العذاب إلا من رحمه الله تعالى، وذلك بالعفو عنه وقبول الشفاعة فيه.

وجوِّز كونه بدلاً أو استثناءً من «مولى»، وفيه كما في الأول دليلٌ على ثبوت الشفاعة، لكن الرجحان للأول لفظاً ومعنى. والاستثناء من أيٍّ كان متصلٌ، وقال الكسائي: إنه منقطع، أي: لكنْ مَن رحمه الله تعالى فإنه لا يحتاج إلى قريب ينفعه، ولا إلى ناصر ينصره. ولا وجهَ له مع ظهور الاتصال، نعم إنه لا يتأتَّى على كون الاستثناء من الضمير وكونه راجعاً للكفار، فلا تغفل.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لا يُنْصرُ مَن أراد سبحانه تعذيبَه ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾ لمن أراد أن يرحمه عز وجل.

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾﴾ مرَّ معنى الزقوم في «الصافات»[1]، وقرئ «شِجْرة» بكسر الشين[2].

﴿طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ أي: الكثير الآثام، والمراد به الكافر لدلالة ما قبله وما بعده عليه، دون ما يعمّه والعاصيَ المُكثرَ من المعاصي، ثم إن المراد به جنس الكافر لا واحد بعينه.

وقال ابن زيد وسعيد بن جبير: إنه هنا أبو جهل. وليس بشيء، ولا دليلَ على ذلك بما أخرجه سعيد بن منصور عن أبي مالك من أن أبا جهل كان يأتي بالتمر والزبد فيقول: تزقَّموا، فهذا الزقُّوم الذي يَعِدُكم به محمد. فنزلت (إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ * طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ)[3] لِمَا لا يخفى، ومثله ما قيل: إنه الوليد.

---

(١) عند تفسير الآية (٦٢) منها.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٣٩.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٣٢.

وأخرج أبو عُبيد في «فضائله» وابن الأنباري وابن المنذر عن عون[1] بن عبد الله أن ابن مسعود أقرأ رجلاً: «إن شجرة الزقوم طعام الأثيم» فقال الرجل: طعام اليثيم[2]، فردَّدها عليه فلم يستقم بها لسانه، فقال: أتستطيع أن تقول: طعام الفاجر؟ قال: نعم. قال: فافعل.

وأخرج الحاكم ـ وصحَّحه ـ وجماعة عن أبي الدرداء أنه وقع له مثل ذلك، فلما رأى الرجلَ أنه لا يفهم قال: إن شجرة الزقوم طعام الفاجر[3].

واستُدلَّ بذلك على أنَّ إبدالَ كلمةٍ مكانَ كلمةٍ جائزٌ إذا كانت مُؤدِّية معناها. وتعقَّبه القاضي أبو بكر في «الانتصار»[4] بأنه أراد أن يُنبِّهه على أنه لا يريد اليتيم، بل الفاجر فينبغي أن يقرأ «الأثيم»، وأنت تعلم أن هذا التأويل لا يكاد يتأتَّى فيما رُوي عن ابن مسعود، فإنه كالنَّصِّ في تجويز الإبدال لذلك الرجل، وأبعدُ منه عن التأويل ما أخرج ابنُ مردويه عن أُبيّ أنه كان يُقرئ رجلاً فارسيًّا، فكان إذا قرأ عليه: «إن شجرة الزقوم طعام الأثيم» قال: طعام اليتيم، فمرَّ به النبيُّ ﷺ فقال: «قل له: طعام الظُّلّام» فقالها، ففصح بها لسانه[5].

وفي الباب أخبار كثيرةٌ جياد الأسانيد كخبر أحمد من حديث أبي هريرة: «أُنزل القرآن على سبعة أحرف عليماً حكيماً غفوراً رحيماً»[6].

وكخبره من حديث أبي بَكْرَةَ: «كلّه ـ أي: القرآن ـ شافٍ كافٍ ما لم تَخْتِمْ آيةَ عذابٍ

---

(١) في الأصل و(م): عوف، وهو خطأ. والخبر في الدر المنثور ٦/ ٣٢، وفضائل القرآن لأبي عبيد ص١٨٣، وذكره القرطبي في تفسيره ١٩/ ١٣٢ عن ابن الأنباري، وفي إسناد الخبر: نعيم بن حماد، قال عنه ابن حجر في التقريب: صدوق يخطئ كثيراً.

(٢) في مصادر التخريج: اليتيم.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٣٢-٣٣، والمستدرك ٢/ ٤٥١، وهو أيضاً عند عبد الرزاق في المصنف ٣/ ٣٦٤، والطبري ٢١/ ٥٣-٥٤.

(٤) ذكره عنه ابن المُنيِّر في الانتصاف (بحاشية الكشاف) ٣/ ٥٠٦.

(٥) الدر المنثور ٦/ ٣٣، وفيه: طعام الظالم، بدل: طعام الظلام.

(٦) مسند أحمد (٨٣٩٠).

برحمة أو رحمة بعذاب»[١] نحو قولك: تعالَ وأَقبِلْ وأَسرِع وعجّل . . إلى غير ذلك. لكن قال الطحاوي: إنما كان ذلك رخصةً لما كان يتعسَّر على كثير منهم التلاوة بلفظ واحد؛ لعدم علمهم بالكتابة والضبط وإتقان الحِفْظ، ثم نُسِخَ بزوال العُذر وتَيَسُّر الكتابة والحفظ. وكذا قال ابن عبد البر والباقلاني وآخرون، ولعله إن تحقق إبدالٌ من أحد من الصحابة ﷺ بعدَه عليه الصلاة والسلام يقال: إنه كان منه قبل الاطِّلاع على النَّسْخ.

ومتى لم يَجُزْ إبدال كلمة مكان كلمة مُؤدِّية معناها مع الاتحاد عربيةً، فعدمُ جواز ذلك مع الاختلاف عربيةً وفارسيةً مثلاً أظهرُ، وما رُوي عن الإمام أبي حنيفة ﷺ من أنه يرى جوازَ قراءة القرآن بالفارسية بشرط أداء المعاني على كمالها، فقد صحَّ عنه خلافه، وقد حقَّق الشرنبلالي عليه الرحمة هذه المسألة في رسالة مفردة بما لا مزيد عليه، وقد تقدَّم في هذا الكتاب شيء من ذلك فتذكَّر[٢].

والطعام: ما يتناول منه من الغذاء، وأصله مصدر، فلذا وقع خبراً عن المؤنَّث ولم يُطابق، وجوّز أن يكون ذلك من باب قوله:

إنارةُ العقلِ مكسوفٌ بطَوْعِ هَوًى وعقلُ عاصي الهوى يزدادُ تنويرا[٣]

فكأنه قيل: إنَّ الزقوم طعامُ الأثيم.

﴿كَالْمُهْلِ﴾ عَكَر الزيت، كما رُوي عن ابن عمر ﷺ، وجاء في حديث رواه الحاكم وغيره عن أبي سعيد مرفوعاً، وفيه «فإذا قُرِّب إلى وجهه ـ يعني الجهنميَّ ـ سقطت فروة وجهه»[٤]، وربَّما يُؤيَّد بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ [المعارج: ٨] مع قوله سبحانه: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ [الرحمن:٣٧].

وقال بعض: عَكَر القَطِران. وفي رواية عن ابن عباس ﷺ: الصديد، ومنه ما في حديث أبي بكر ﷺ: ادفنوني في ثوبَيَّ هذين، فإنما هما للمُهل والتراب.

(١) مسند أحمد (٢٠٤٢٥).
(٢) ينظر ما سلف ١٢/ ١٨١ وما بعد، و١٩/ ٢٧٧.
(٣) خزانة الأدب ٤/ ٢٢٧، ولم ينسبه.
(٤) المستدرك ٢/ ٥٠١.

وفي رواية أخرى عنه ﷺ أنه ما أُذيب من ذهب أو فضة أو حديد أو رصاص، ورُوي ذلك عن ابن مسعود. قيل: وسُمِّي ذلك مُهلاً؛ لأنه يمهل في النار حتى يذوبَ، فهو من المُهل بمعنى السكون، وادَّعى بعضهم الاشتراك وقد جاء استعماله في كلٍّ ما سمعت.

وقرأ الحسن: «كالمَهْل» بفتح الميم[1]، وهو لغة فيه.

والجارُّ والمجرور أو الكاف في محلٍّ رفع خبر مبتدأ محذوف، والجملة استئنافٌ لبيان حال الطعام، أي: هو كالمُهل، أو: مثل المُهل، وقوله عز وجل: ﴿يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ۝٤٥﴾ خبر ثانٍ لذلك المبتدأ، وقيل: حال من الضمير المُستتر في الجارِّ والمجرور، فيكون وصفاً للطعام أيضاً.

وقال أبو عُبيد: هو حال من «المُهل»، وقيل: صفة له؛ لأن «أل» فيه للجنس، نحو:

أَمُرُّ على اللئيم يَسُبُّني[2]

ويعتبر داخلاً في التشبيه. وأنت تعلم أن غليان الطعام في البطن فيه مبالغة، أما التشبيه بمهل يغلي في البطن فلا.

وقيل: «كالمهل» أو الكاف خبر ثان لـ «إنَّ»، وجملة «يغلي في البطون» حال من الزقُّوم، أو الطعام.

وتُعقِّب بأنه مُنع مجيء الحال من المضاف إليه في غير صورٍ مخصوصةٍ ليس هذا منها، ومُنع مجيئه من الخبر ومن المبتدأ.

وأجيب بأن هذا بناء على جواز مجيء الحال من الخبر ومن المبتدأ، والمضاف إليه المبتدأ في حكمه، وأن ما ذكر من الصور التي يجيء الحال فيها من المضاف إليه؛ لأن المضاف كالجزء في جواز إسقاطه، ولا يخفى أنه بناء على ضعيف.

وقيل: «كالمهل» خبر ثانٍ، والجملة حال من ضمير الشجرة المُستتر فيه،

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣٧.

(٢) سلف ٧/ ٤٦٤ و١٣/ ٦٢، وغيرها.

والتذكير باعتبار كونها طعام الأثيم، أو لاكتسابها إياه مما أُضيفت إليه نظير ما سمعت في البيت آنفاً. وهو تكلُّفٌ مستغنى عنه.

وقيل: الجملة على ذلك خبر مبتدأ محذوف هو ضمير الطعام أو الزقوم. فإن كانت الجملة حينئذ مستأنفةً فالبحثُ هيِّن، وإن كانت حاليةً عاد ما مرَّ آنفاً، ولا أراك تظنه هيِّناً.

وقيل: «كالمهل» حال من «طعام» وحاله معلوم.

وبالجملة: الوجوهُ في إعراب الآية كثيرة، وأنا أَختار منها ما ذكرتُه أولاً.

وقرأ عمرو بن ميمون وأبو رزين والأعرج وأبو جعفر وشيبة وابن محيصن وطلحة والحسن في رواية وأكثر السبعة: «تغلي» بالتاء الفوقية[1]، فـ «كالمهل» خبر ثان لـ «إنَّ»، وجملة «تغلي» خبر ثالث، واتحاد المبتدأ والخبر متكفِّل باتحاد القراءتين معنًى، فافهم ولا تغفل.

﴿كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ صفة مصدر محذوف، أي: غلياً كغلي الحميم، وجوِّز أن يكون حالاً، والحميم ما هو في غاية الحرارة.

﴿خُذُوهُ﴾ على إرادة القول، والمَقولُ له الزبانية، أي: ويقال لهم: خذوه ﴿فَٱعْتِلُوهُ﴾ فجرُّوه بقهر. قال الراغب: العَتْلُ: الأَخْذ بمجامع الشيء وجرُّه بقهر[2]. وبعضهم يُعبّر بالثوب بدل الشيء، وليس ذاك بلازم، والمدار على الجرِّ مع الإمساك بعنف.

وقال الأعمش ومجاهد: معنى «اعتلوه» اقصفوه كما يقصف الحطب، والظاهر عليه التضمين أو تعلّق الجار بـ «خذوه»، والمعنى الأول هو المشهور.

وقرأ زيد بن علي والحجازيان وابن عامر ويعقوب: «فاعتُلوه» بضمِّ التاء[3].

---

(١) قرأ ابن كثير وحفص ورويس: «يغلي» بالياء، وقرأ الباقون: «تغلي» بالتاء. التيسير ص١٩٨، والنشر ٢/ ٣٧١.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن (عتل).

(٣) التيسير ص١٩٨، والنشر ٢/ ٣٧١، وقراءة زيد بن علي في البحر ٨/ ٤٠.

ورُوي ذلك عن الحسن وقتادة والأعرج على أنه من باب قعد، وعلى قراءة الجمهور من باب نصر، وهما لغتان.

﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾﴾ أي: وسطه، وسُمِّي سواء لاستواء بُعدِ جميع أطرافه بالنسبة إليه.

﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾﴾ كأنَّ أصله: صُبُّوا فوق رأسه الحميمَ، ثم قيل: صبوا فوق رأسه عذاباً هو الحميم، للمبالغة بجَعْلِ العذاب عينَ الحميم، وهو مترتِّب عليه، ولجعله مصبوباً كالمحسوس، ثم أضيف العذاب إلى الحميم للتخفيف، وزيد «من» للدلالة على أن المصبوبَ بعض هذا النوع، فهناك إما تمثيلٌ أو استعارة تصريحية أو مَكْنية أو تخييلية.

﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ أي: ويقال ـ أو: قولوا ـ له ذلك؛ استهزاءً وتقريعاً على ما كان يزعمه.

أخرج عبد الرزاق وغيره عن قتادة قال: لما نزلت (خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ) قال أبو جهل: ما بين جبليها رجلٌ أعزّ ولا أكرم منِّي. فقال الله تعالى: «ذق» إلخ[1].

وأخرج الأموي في «مغازيه» عن عكرمة أن أبا جهل قال للنبيِّ ﷺ: ما تستطيع لي أنت ولا صاحبك من شيء، لقد علمتَ أنني أمنعُ أهلِ بطحاء، وأنا العزيز الكريم. فقتله الله تعالى يومَ بدر وأذلَّه وعيَّره بكلمته: «ذق إنك أنت العزيز الكريم»[2].

ورُوي أن اللعين قال يوماً: يا معشر قريش، أخبروني ما اسمي، فذكرت له ثلاثة أسماء: عمرو والجلاس وأبو الحكم، فقال: ما أصبتم اسمي، ألا أخبركم به؟ قالوا: بلى. قال: اسمي العزيز الكريم. فنزلت «إن شجرة الزقوم» الآيات[3].

---

(١) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٢٠٩.
(٢) الدر المنثور ٦/ ٣٣.
(٣) الدر المنثور ٦/ ٣٣، وفيه: عمرو، بدل: عمر. وعزاه أيضاً لابن المنذر.

وهذا ونحوه لا يدلُّ أيضاً على تخصيص حكم الآية به، فكلُّ أثيمٍ يُدعى دعواه كذلك يوم القيامة.

وقيل: المعنى: ذق إنك أنت العزيز في قومك الكريم عليهم، فما أغنى ذلك عنك، ولم يفدك شيئاً. والذوق مستعارٌ للإدراك.

وقرأ الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما على المنبر والكسائي: «أَنَّك» بفتح الهمزة[1]، على معنى: لأنك.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: العذاب أو الأمر الذي أنتم فيه ﴿مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ تشكُّون وتُمارون فيه، وهذا ابتداء كلام منه عز وجل، أو من مقول القول، والجمع باعتبار المعنى لِمَا سمعت أن المراد جنس الأثيم.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ﴾ في موضع قيام. والمراد بالقيام الثَّبات والملازمة كما في قوله تعالى: ﴿مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ [آل عمران: ٧٥] ويُكنى به عن الإقامة، لأن المُقيم ملازمٌ لمكانه، وهو مراد من قال: في مقام، أي: موضع إقامة.

وقرأ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وزيد بن عليٍّ وأبو جعفر وشيبة والأعرج والحسن وقتادة ونافع وابن عامر: «مُقام» بضمِّ الميم[2]، ومعناه: موضع إقامة، وعلى ما قرَّرنا ترجع القراءتان إلى معنى واحد.

﴿أَمِينٍ ﴿٥١﴾﴾ يأمن صاحبه مما يكره، فهو صفةٌ من الأمن، وهو عدمُ الخوف عما هو من شأنه، ووصف المقام به باعتبار أمنِ مَن آمن به، فهو إسناد مجازي كما في نهرٍ جارٍ، وظاهر كلام الزمخشري[3] أنَّ ذلك استعارةٌ من الأمانة، كأن المكان مؤتمن وُضِعَ عنده ما يحفظه من المكاره، ففيه استعارةٌ مكنية وتخييلية.

وقال ابن عطية[4]: فَعيل بمعنى مفعول، أي: مأمون فيه. وليس بذاك.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٠، وقراءة الكسائي في التيسير ص١٩٨، والنشر ٢/ ٣٧١.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٤٠، وقراءة أبي جعفر ونافع وابن عامر في التيسير ص١٩٨، والنشر ٢/ ٣٧١.

(٣) في الكشاف ٣/ ٥٠٧.

(٤) في المحرر الوجيز ٥/ ٧٧.

وجُوِّز أن يكون للنسبة، أي: ذي أمن.

﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٢﴾ بدل من «مقام» بإعادة الجارِّ، أو الجارُّ والمجرور بدل من الجارِّ والمجرور، وظرفية العيون للمجاورة، والظاهر أنه بدل اشتمال لا كلٍّ أو بعض[1]. وفي ذلك دلالةٌ على نزاهة مكانهم واشتماله على ما يستلذُّ من المآكل والمشارب.

﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ خبرٌ ثانٍ، أو حال من الضمير في الجارِّ والمجرور، أو استئناف. والسندس، قال ثعلب: الرقيق من الديباج، والواحدة: سندسة، والإستبرق: غليظُه. وقال الليث: هو ضربٌ من البُزْيُون يُتَّخذُ من المِرْعزَّى، ولم يختلف أهلُ اللغة في أنهما معرَّبان، كذا ذكره بعضهم[2].

وفي «الكشاف»[3]: الإستبرق: ما غَلُظَ من الديباج، وهو تعريب: إستبر. قال الخفاجي[4]: ومعنى إستبر في لغة الفرس: الغليظ، مطلقاً، ثم خُصَّ بغليظ الدِّيباج وعُرِّب، وقيل: إنه عربي من البراقة، وأُيِّد بقراءته بوصل الهمزة، وهو كما ترى.

وذكر بعضهم أن السندس أصلُه سندي، ومعناه: منسوب إلى السِّند المكان المعروف، لأن السندس كان يُجلب منه، فأُبدلت ياء النسبية سيناً، وقد مرَّ الكلام في ذلك فتذكر.

ثم إن وقوع المعرَّب في القرآن العظيم لا يُنافي كونه عربيًّا مبيناً.

ونقل صاحب «الكشف» عن جارِ الله أنه قال: الكلام المنظوم مركَّب من الحروف المبسوطة في أي لسان كان تركي أو فارسي أو عربي، ثم لا يدلُّ على أن العربي أعجمي فكذا هاهنا. ثم قال صاحب «الكشف»: يريد أن كون إستبر أعجميًّا لا يلزمه أن يكون إستبرق كذلك.

---

(١) في (م): وبعض. والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٨/ ١٣، وهو الصواب.
(٢) كالأزهري في تهذيب اللغة ١٣/ ١٥٣.
(٣) ٣/ ٥٠٧.
(٤) حاشية الشهاب ٨/ ١٣.

وقرأ ابن محيصن: «واسْتَبْرقَ» فعلاً ماضياً كما في «البحر»[(١)]، والجملة حينئذ قيل: معترضة، وقيل: حال من «سندس»، والمعنى: يلبسون من سندس وقد بَرَقَ لصقالتِهِ ومَزيد حُسنه.

﴿مُتَقَٰبِلِينَ ۝﴾ في مجالسهم ليستأنس بعضُهم ببعض ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: الأمر كذلك، فالكاف في محلِّ رفع على الخبرية لمبتدأ محذوف، والمراد تقرير ما مرَّ وتحقيقه. ونقل عن جارِ الله أنه قال: والمعنى فيه أنه لم يستوف الوصف، وأنه بمثابة ما لا يُحيط به الوصف، فكأنه قيل: الأمر نحو ذلك وما أَشبهه.

وأراد على ما قال المُدقِّق أن الكاف مُقحم للمبالغة، وذلك مُطَّردٌ في عُرفي العرب والعجم.

وجُوِّز أن يكون في محلٍّ نصب على معنى: أثبناهم مثل ذلك، وقوله تعالى: ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم﴾ على هذا عطف على الفعل المقدَّر، وعلى ما قبلُ على «يلبسون» والمراد على ما قال غير واحد: وَقَرنَّاهم ﴿بِحُورٍ عِينٍ ۝﴾ وفُسِّر بذلك قيل: لأن الجنة ليس فيها تكليفٌ فلا عقد ولا تزويج بالمعنى المشهور. وقيل: لمكان الباء، وزوَّجه المرأة بمعنى أنكحه إيَّاها، مُتعدٍّ بنفسه. وفيه بحث فإن الأخفش[(٢)] جوَّز الباء فيه فيقال: زوَّجته بامرأة فتزوَّج بها، وأَزْدُ شَنُوءة يُعَدُّونه بالباء أيضاً، وفي «القاموس»: زوَّجته امرأة، وتزوَّجت امرأةً وبها، أو هي قليلة[(٣)]. ويعلم مما ذكر أن قول بعض الفقهاء: زوَّجته بها، خطأ لا وجه له.

ويجوز أن يقال: إن ذلك التفسير لأن الحور العين في الجنة ملكُ يمين كالسراري في الدنيا فلا يَحتاج الأمر إلى العقد عليهنَّ، على أنه يمكن أن يكون في الجنة عقدٌ وإن لم يكن فيها تكليف. وقد أخرج ابن جرير وغيره عن مجاهد أنه قال: «زوجناهم»: أنكحناهم[(٤)].

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٤٠.
(٢) كما في حاشية الشهاب ٨/ ١٣.
(٣) القاموس المحيط (زوج).
(٤) الدر المنثور ٦/ ٣٣، وتفسير الطبري ٢١/ ٦٥.

ومن الناس من قال بالتكليف فيها بمعنى الأمر والنهي لكن لا يجدون في الفعل والترك كلفة، نعم المشهور أن لا تكليف فيها، وبعض ما حرم في الدنيا كنكاح امرأة الغير ونكاح المحارم لا يفعلونه لعدم خطوره لهم ببال أصلاً.

والحُور جمع: حوراء، وهي البيضاء كما رُوي عن ابن عباس والضحاك وغيرهما. وقيل: الشديدة سواد العين وبياضها، وقيل: الحوراء ذات الحَوَر، وهو سواد المُقلة كلِّها كما في الظباء، فلا يكون في الإنسان إلا مجازاً.

وأخرج ابن المنذر وغيره عن مجاهد أن الحوراء التي يَحار فيها الطَّرْف.

والعِين جمع: عيناء، وهي عظيمة العينين.

وأكثرُ الأخبار تدلُّ على أنهنَّ لسن نساء الدنيا؛ أخرج ابن أبي حاتم والطبراني عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «خلق الحور العين من زعفران»(١) وأخرج ابن مردويه والخطيب عن أنس بن مالك مرفوعاً نحوه(٢).

وأخرج ابن المبارك عن زيد بن أسلم قال: إن الله تعالى لم يخلق الحور العين من تراب، إنما خلقهنَّ من مِسْك وكافور وزعفران(٣).

وأخرج ابن مردويه والديلمي عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «حور العين خلقهنَّ من تسبيح الملائكة عليهم السلام»(٤)، وهذا إن صحَّ لا يُعارض ما قبله إذ لا بدَّ عليه من أن يقال بتجسُّد المعاني، فيجوز تجسُّد التسبيح وجَعْلُه جزءاً مما خلقن منه.

وقيل: المراد بهنَّ هنا نساء الدنيا، وهنَّ في الجنة حورٌ عين بالمعنى الذي سمعت، بل هنَّ أجملُ من الحور العين؛ أعني النساء المخلوقات في الجنة من

---

(١) المعجم الأوسط (٢٩٠)، والكبير (٣٨١٣). قال في المجمع ١٠/ ٤١٩: وفي إسنادهما ضعفاء.

(٢) قال المناوي في فيض القدير ٣/ ٤٢٣: فيه الحارث بن خليفة، قال الذهبي في الذيل: مجهول.

(٣) الزهد لابن المبارك (١٥٣٧).

(٤) مسند الفردوس ٢/ ١٩٢، وأخرجه أيضاً الثعلبي في تفسيره ٩/ ٢١١. وينظر السلسلة الضعيفة (٣٥٤٠).

زعفران أو غيره، ويعطى الرجل هناك ما كان له في الدنيا من الزوجات، وقد يُضَمُّ إلى ذلك ما شاء الله تعالى من نساء مِتْنَ ولم يتزوَّجن، ومن تزوَّجت بأكثر من واحد فهي لآخرِ أزواجها، أو لأوَّلهم إن لم يكن طلَّقها في الدنيا، أو تُخيَّر فتختار مَنْ كان أحسنَهم خُلقاً معها. أقوال؛ صحَّح جمعٌ منها الأول، وتُعطى زوجةُ كافرٍ دخلت الجنة لمن شاء الله تعالى، وقد ورد أن آسية امرأة فرعون تكون زوجة نبيِّنا ﷺ.

وقرأ عكرمة: «بحورِ عين» بالإضافة[1]، وهي على معنى «مِن»، أي: بالحور من العين، وفي قراءة عبد الله: «بعيسٍ عينٍ»[2] والعيساء: البيضاء تعلوها حمرة.

﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ يطلبون ويأمرون بإحضار ما يشتهون من الفواكه ولا يتخصّص شيء منها بمكان ولا زمان ﴿ءَامِنِينَ ۝٥٥﴾ من الضرر، أيَّ ضرر كان، وهو حال من ضمير «يدعون»، وكونه حالاً من الضمير في قوله سبحانه: «في جنات» بعيد، وأبعدُ منه جعل «يدعون» حينئذ صفةَ الحور، والنون فيه ضمير النسوة، ووزنه: يفعلن، لِمَا فيه من ارتكاب خلافِ الظاهر مع عدم المناسبة للسياق.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ أو حالية، وكأنه أُريد أن يقال: لا يذوقون فيها الموت ألبتةَ، فوضع الموتة الأُولى موضعَ ذلك، لأن الموتة الماضية مُحال ذوقها في المستقبل، فهو من باب التعليق بالمُحال، كأنه قيل: إن كانت الموتةُ الأُولى يستقيم ذوقها في المستقبل فإنهم يذوقونها، ونظيره قول القائل لمن يستسقيه: لا أَسقيك إلا الجمر، وقد علم أن الجمر لا يُسقى، ومثله قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٢] فالاستثناء متصل، والدخول فَرْضي للمبالغة، وضمير «فيها» للجنات.

وقيل: هو متصل، والمؤمن عند موته لمعاينة ما يُعطاه في الجنة كأنه فيها، فكأنه ذاقَ الموتة الأُولى في الجنة. وقيل: متصل، وضمير «فيها» للآخرة، والموت أولُ أحوالها. ولا يخفى ما فيه من التفكيك مع ارتكاب التجوُّز.

---

(١) المحتسب ٢/ ٢٦١.

(٢) القراءات الشاذة ص١٣٧، والمحتسب ٢/ ٢٦١.

وقيل: الاستثناء منقطع، والضمير للجنات، أي: لكن الموتة الأُولى قد ذاقوها في الدنيا، والأصل اتصالُ الاستثناء.

وقال الطبري: «إلا» بمعنى بعد(١). والجمهور لم يُثبتوا هذا المعنى لها.

وقال ابن عطية(٢): ذهب قومٌ إلى أن «إلا» بمعنى سوى، وضعَّفه الطبري(٣).

وقال أبو حيان(٤): ليس تضعيفه بصحيح، بل يصح المعنى بـ «سوى» ويتَّسق. وفائدة الوصف تذكير حال الدنيا.

والداعي لِمَا سمعتَ من الأوجُهِ دفعُ سؤالٍ يُورَدُ هاهنا من أن الموتة الأُولى مما مضى لهم في الدنيا، وما هو كذلك لا يمكن أن يذوقوه في الجنة، فكيف استُثنيتْ؟ وقيل: إن السؤال مبنيٌّ على أن الاستثناء من النفي إثبات، فيثبت للمستثنى الحكم المنفي عن المستثنى منه، ومحالٌ أن يثبت للموتة الأولى الماضية الذوقُ في الجنة، وأما على قولِ مَن جَعَلَه تكلُّماً بالباقي بعد الثُّنيا، والمعنى: لا يذوقون سوى الموتة الأولى من الموت، فلا إشكال، فتأمَّل.

وقرأ عبيد بنُ عمير: «لا يُذاقون» مبنيّاً للمفعول(٥). وقرأ عبد الله: «لا يذوقون فيها طعم الموت»(٦) وجاء في الحديث: النوم، لأنه أخو الموت؛ أخرج البزار والطبراني في «الأوسط» وابن مردويه والبيهقي في البعث بسند صحيح عن جابر بن عبد الله قال: قيل: يا رسول الله، أينام أهلُ الجنة؟ قال: «لا النوم أخو الموت، وأهل الجنة لا يموتون ولا ينامون»(٧).

﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٥٦﴾ وقرأ أبو حيوة: «وَوَقَّاهم» مشدَّد القاف(٨) على

---

(١) تفسير الطبري ٢١/ ٦٧.
(٢) في المحرر الوجيز ٥/ ٧٨.
(٣) تفسير الطبري ٢١/ ٦٧.
(٤) في البحر المحيط ٨/ ٤٠.
(٥) البحر المحيط ٨/ ٤٠.
(٦) القراءات الشاذة ص١٣٨.
(٧) الدر المنثور ٦/ ٣٤، ومسند البزار (٣٥١٧ - زوائد)، والمعجم الأوسط (٩٢٣).
(٨) القراءات الشاذة ص١٣٧.

المبالغة في التكثير في الوقاية؛ لأن التفعيل لزيادة المعنى لا للتعدية، لأن الفعل متعدٍّ قبله.

﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: أُعطوا كلَّ ذلك عطاء وتفضُّلاً منه تعالى، فهو نصب على المصدرية، وجوِّز فيه أن يكون حالاً ومفعولاً له، وأيًّا ما كان ففيه إشارة إلى نفي إيجاب أعمالهم الإثابة عليه سبحانه وتعالى.

وقرئ: «فضلٌ» بالرفع[1]، أي: ذلك فضل.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾﴾ لأنه فوزٌ بالمطالب وخلاصٌ من المكاره.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ﴾ أي: فإنما سهَّلنا القرآن ﴿بِلِسَانِكَ﴾ أي: بلغتك، وقيل: المعنى: أنزلناه على لسانك بلا كتابة لكونك أُمِّيًّا، وهذا فذلكةٌ وإجمالٌ لِمَا في السورة بعد تفصيلٍ؛ تذكيراً لِمَا سلف مشروحاً فيها، فالمعنى: ذكِّرهم بالكتاب المبين، فإنما يسَّرناه بلسانك ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ أي: كي يفهموه ويتذكَّروا به ويعملوا بموجبه.

﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ أي: وإن لم يتذكَّروا فانتظر ما يحلُّ بهم، وهو تعميمٌ بعد تخصيص بقوله تعالى: «فارتقب يوم تأتي السماء» إلخ ﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ منتظرون ما يحلُّ بك كما قالوا: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]. وقيل: معناه: مرتقبون ما يحلُّ بهم تهكُّماً. وقيل: هو مُشاكلة، والمعنى: إنهم صائرون للعذاب.

وفي الآية من الوعد له ﷺ ما لا يخفى.

وقيل: فيها الأمر بالمتاركة، وهو منسوخٌ بآية السيف فلا تَغْفُل.

❁ ❁ ❁

ومن باب الإشارة في الآيات ما ذكروه في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ إلى آخر القصة من تطبيق ذلك على ما في الأنفس، وهو مما يُعلم مما ذكرناه في باب الإشارة من هذا الكتاب غيرَ مرة فلا نُطيل به.

---

(١) تفسير البيضاوي ٨/ ١٤.

وقالوا في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾: إنه إشارة إلى الوحدة، كقوله عز وجل: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت:٥٣] وأفْصَحَ بعضُهم فقال: الحقُّ هو عز وجل، والباء للسببية، أي: ما خلقناهما إلا بسبب أن تكون مرايا لظهور الحقِّ جل وعلا. ومَن جَعَلَ منهم الباء للملابسة أنشد:

رقَّ الزجاجُ وراقت الخمر ... فتشاكلا وتَشَابَهَ الأمرُ
فكأنما خمرٌ ولا قدحٌ ... وكأنما قدحٌ ولا خمرُ[1]

والعبارة ضيِّقة، والأمر طور ما وراء العقل، والسكوت أسلم.

وقالوا في ﴿شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ﴾: هي شجرة الحرص وحبُّ الدنيا، تظهر يومَ القيامة على أسوأ حال وأخبث طعم.

وقالوا: ﴿ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ ما كان في الدنيا بقتل النفس بسيف الصدق في الجهاد الأكبر، وهو المشار إليه بـ: موتوا قبل أن تموتوا، فمن مات ذلك الموت حَيِيَ أبداً الحياةَ الطيبة التي لا يُمازجها شيء من ماء الألم الجسماني والروحاني، وذلك هو الفوز العظيم، والله تعالى يقول الحق وهو سبحانه يهدي السبيل.

❁ ❁ ❁

انتهى بعون الله تعالى الجزء الرابع والعشرون من روح المعاني

ويليه إن شاء الله الجزء الخامس والعشرون ويبدأ

بسورة الجاثية

---

(١) البيتان في خزانة الأدب ٨/ ٤٠٤، ونسبهما لأبي إسحاق الصابي.